

سعادة الأنام بشرح عقيدة العوام

الدكتور/مراد عبدالله الجنابي

أستاذ العقيدة والفكر الإسلامي المساعد
قسم الدراسات الإسلامية والقرآن وعلومه
كلية التربية (حجة) - جامعة صنعاء

سَعَادَةُ الْأَنَامِ

بشرح عقيدة العوام

دكتور

مراد عبدالله الجنابي

أستاذ العقيدة والفكر الإسلامي المساعد

جامعة صنعاء - قسم الدراسات الإسلامية والقرآن وعلومه

كلية التربية (حجة) ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤

تأسست المكتبة الأثرية في عدن قبل عام 1890

تأسس المركز في صنعاء عام 1994

رقم الإيداع بدار الكتب صنعاء 436 / 2005

الطبعة الأولى 1426هـ الموافق 2006م

حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع
والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع
والحاسوبي وغيرها إلا بإذن خطي

مركز عبادي للدراسات والنشر

ت: 219618 / فاكس: 219619

ص. ب: 662 صنعاء الجمهورية اليمنية

التفويض الطباعي: مركز عبادي للدراسات والنشر

الاستفتاح

بسم الله الرحمن الرحيم

(الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم)

صدق (الله العظيم)

"البقرة - ٢٥٥"

{ لا إله إلا الله }

جملة جليلة في معناها، مختصرة في مبناها، عظيمة في أثرها، مشرفة في قدرها، مشرقة في نورها، فريدة في فضلها، أربع كلمات بها قامت الملة، وعليها وضعت القبلة، وبها جاء كل كتاب أنزله الله تعالى على كل رسول من رسوله الكرام، وبها النجاة من النيران، والفوز بالنعيم الخالد في الجنان. وبصحة الاعتقاد واليقين بمعناها، والإذعان به يتحقق الإيمان، وعلى أساس النطق بها صدقاً، والعمل بمقتضاها حقاً يقوم الإسلام.

وبالجمع بين صحة الاعتقاد والاستسلام لحكمها والانقياد... تشرق في القلوب حقيقة الإحسان.

مفتاح الجنة للسيد أحمد مشهور الحداد رحمه الله تعالى، ص: ٣٨

الإهداء

إلى:

العلماء الأكارم: يزيدون روائع العلم فلا يزيغون عن منابعه،
والأساتذذ الأماجد: يبتثون حقائق العلم فلا يحيدون عن مقابعه،
وللتلاميذ الأحبة: يحبون ازاهر العلم فلا يميلون عن مرابعه،
(وكلهم من رسول الله ملتمس غرفا من البحر أو رشفا من الديم)

إلى:

النفوس: الغنية بالحب والجمال،
والعقول: النيرة بالعلم والحكمة،
والقلوب: العامرة بالتقى والإيمان،

إلى:

والدي، وشيوخ الأفاضل، وأساتذتي، وأهل بيتي، وأحابي الذين هم في سويدا
قلبي

أهدي هذا الكتاب، ربنا جل جلالك وعم نوالك عندك مفاتيح كل خير ومكرمة
ومغانم كل عفو ومغفرة أنت الغني وكلنا فقراء في درب الحياة.

د. مراد عبدالله الجنابي

• ربيع الأول ربيع الخير والنور ١٤٢٦هـ

المقدمة

الحمد لله الذي أحيا القلوب بحب العلم، وخدمة العلماء، والصلاة والسلام على سيدنا وشفيع ذنوبنا محمد إمام الأنبياء وسيد الأتقياء، ورضي الله عن آله الطيبين الطاهرين الكرماء، وعن صحابته الذين نور الله بهم البصائر، فكانوا مناراً للصلحاء، وقدوةً للفضلاء، وعن تابعيهم بإحسان إلى يوم الفصل والقضاء.

أما بعد:

فإن العقائد الإسلامية هي من مواضع الشد في هذا الدين، بما يدخل الناس في دين الإسلام، وبما يتميز المؤمنون عن المشركين والكافرين.

فمعرفة من أعظم الواجبات الدينية، لأن منها ينطلق المؤمن لانتخاذ مواقفه التفصيلية في الحياة اليومية، وفي ضوئها يعلن عبوديته الخالصة لله رب العالمين، ويتبع ما جاء به إمام الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، ولا سيما في عصرنا الحاضر، عصر المادية والإلحاد واللا دينية، عصر التطرف والغلو والتعصب المقيت، تلك الظواهر التي أفسدت العقول البشرية وقادت شعوبها إلى إعلان التمرد والحرب على الخالق العظيم، وبهم ورب آبائهم الأولين ورب الناس أجمعين.

إن جرثومة التطرف والغلو والتعصب سرت إلى المسلمين اليوم وتأثروا بها عن طريق صراع الحضارات وفرض المبادئ اللا دينية عليهم في ظل عصر الاستخواب الطويل على بلاد المسلمين، ذلك الاستعمار الذي نعتوه نعت الأضداد، وساعد على ذلك جهل المسلمين بحقائق دينهم وتأخرهم عن التطور الحضاري الحديث، وتقاعسهم عن إحداث التغيير المطلوب في حياتهم، فظلوا يتقبلون بين الضعف الإيماني والانحطاط الفكري، والاستبداد السياسي، والظلم الاقتصادي، والتمزق الاجتماعي، واخواء الروحي، وهكذا انحرفت أجيالهم فعدت فريسة سهلة لقيم الحضارة الغربية الجديدة بكل ما تحمل من الآثام.

وللحق فإن جهود علماء الأمة الإسلامية أدت دورها قبل مئات السنين في الدفاع عن عقيدة الإسلام والمسلمين، وأنقذت المسلمين من الوقوع في مزالق الكفر والشرك والردة والانحراف، ودافعت عن أصول الدين وقضت على شبهات الأعداء والمارقين، غير أن دراستها بالأسلوب القديم نفسه وفي إطار المشاكل المعروضة نفسها وخوض المعارك الكلامية والفكرية التي سادت زمانها، لم يعد ينسجم مع الفكر الحضاري الحديث الذي يتحدى الإسلام في كل قضية من قضايا الحياة المعاصرة.

إن أعداء الإسلام حققوا ضربات موجعات اعتمدت على وسائل مخفية متستر عليها لمقاصد الهدم والتخريب الاستعماري، تعددت الوسائل وتنوعت، واعتنت خططاً وبرامج دقيقة متماسكة متتابعة المراحل منها : التشكيك والإضعاف، وفرق تسد، والتمويه والتضليل، والضم والاحتواء، واضطلع لها بأعباء التخطيط والتنظيم والتطبيق والتنفيذ رجال ونساء من أمم الاستعمار. يريدون هدم أصول عقيدتنا، وتعطيل أحكامنا، وتشويه أخلاقنا، ونشر الفرقة بين أبناء أمتنا لتحقيق لهم مقاصد الهدم والتخريب وإضعاف المسلمين ونهب ثرواتهم.

إن الاعتماد على الوحي الإلهي في مواجهة التحديات الخطيرة المتمثلة بفكر الإلحاد وزحف الانحراف وتآمر الأعداء خير سبيل لتجدد الحضارة الإسلامية وتوحد الأمة لتتقدم من مواقع القوة إلى البناء الحضاري الإسلامي المجيد في ضوء أنوار الوسطية والاعتدال، ونبد التطرف والعلو والخلاف العقيم.

لهذا جاء هذا الجهد العلمي المتمثل بشرح منظومة عقيدة العوام للعلامة السيد أحمد المرزوقي المالكي المكي رحمه الله رفقاً وتطبيقاً لمنهج الاعتماد على الوحي الإلهي في بيان أصول الدين، فإنني لن أخوض إلا في العقائد اليقينية التي ثبتت بالوحي الإلهي القاطع في كتاب الله وسنة النبي المصطفى ﷺ، وجعلت العقل شاهداً ومؤيداً لما جاء به النقل الصحيح.

وأما الفروع التي اختلفت حولها المدارس الكلامية القديمة، فلن أتعرض لها، وإنما يسعنا فيها سكوت القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عن بيان تفاصيلها وجزئياتها وكيفياتها، تاركين دراسة تلك الخلافات الفكرية التاريخية إلى المتخصصين فيها حتى

يطلعوا على تطور الفكر الإسلامي عبر تاريخه الطويل المتقلب، وقد سُمِّيَ الكتاب ((سعادة الأنام)) والسعادة إنما تكون في دائرة التوسط والاعتدال، فإن الوسطية والاعتدال ملاذاً آمناً للرجال، وبها ينال المؤمنون رضا الواحد المتعال، وجنة وحسن المآل.

ولمنظومة عقيدة العوام شهرة وذووع لا يخفى بين طلبة العلم من أهل السنة والجماعة، وقد لاقت رواجاً وقبولاً منقطع النظير لأنها بين المتأخرين من علماء الحرمين الشريفين، ومصر وحضرموت وجزر شرق آسيا والهند والساحل الأفريقي وغيرها من أصقاع بلاد المسلمين، من لدن عصر ناظمها السيد / أحمد المرزوقي في منتصف القرن الثالث عشر وحتى أيامنا هذه، وأكثر الناس تلقياً لها بالقبول الشوافع سواءً من أهل الحرمين الشريفين أو حضرموت اليمن أو شرق آسيا، فإنها شهرة عندهم، مع أن ناظمها وواضعها مالكي المذهب، وفي هذا دلالة كبيرة على التوافق والمحبة الموجودة لدى أسلافنا الصالحين ومدى الاعتراف بالفضل لأهله^(١).

واقضى منهج الكتاب تقسيمه على ثلاثة فصول ومقدمة، بيّنت في الفصل الأول مبادئ علم التوحيد وبعض المسائل المهمة في مباحث خاصة، ثم جعلت شرح المنظومة في الفصل الثاني الذي تضمن شرحاً وافياً للإلهيات والنبوات والسمعيات، وذكرت بقية الواجبات على المكلف في حق النبي محمد صلى الله عليه وسلم في نسبه وولادته ووفاته وبعثته ورضاعه ونسائه أمهات المؤمنين في الفصل الثالث والأخير.

هذا ولا أدعي أنني أتيت بما لم تستطعه الأوائل، فشان العقيدة كبير وأمرها عظيم، وتوضيح أركان الإيمان بالله ورسله يحتاج إلى علم غزير، ودراية عظيمة بالنصوص، وذكاء أكبر، وإيمان أعمق، كما أنني لم أدعي لعملني هذا العصمة أو الكمال فهذا شأن الرسل والأنبياء، ومن ظن أنه قد أحاط بالعلم فقد جهل نفسه، فالعلم بحر لا

(١) ينظر سطور في ترجمة السيد أحمد المرزوقي للسيد محمد بن أبي بكر بانبيب، مكة المكرمة شرفها الله تعالى وحماها.

شاطئ له، وقال العماد الأصبهاني : (إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده، ولو غيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قُدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر).

وأخيراً أرجو من الباري جل جلاله وعمّ نواله أن يكون عملاً لوجهه خالصاً وعباده نافعاً وأن يُثيبني على كل حرف كتبه ويجعله في ميزان حسناتي ووالديّ ومشايخي وأهل بيتي، وأن يُثيب الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب، قال الشاعر :

أسيرُ خلف ركاب القوم ذا عرج مؤملاً جبرَ ما لا قيت من عوج
فإن لحقت بهم من بعد ما سبقوا فكم لربّ السما في الناس من فرج
وإن ظَلَلْتُ بقفر الأرض مُنقطعاً فما على أعرج في ذاك من حرج
والحمد لله من قبل ومن بعد وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الفقير إلى عفو ربه ورحمته

د. مراد عبد الله الجنابي

٢٧ / رمضان المبارك / ١٤٢٦ هـ

الموافق : ٢٩ / ١٠ / ٢٠٠٥ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

منظومة عقيدة العوام

للحلاصة السيد أحمد المرزوقي المالكي رحمه الله

أَبْدَأُ بِاسْمِ اللَّهِ وَالرَّحْمَنِ	وَبِالرَّحِيمِ دَائِمِ الْإِحْسَانِ
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْقَدِيمِ وَالْأَوَّلِ	الْآخِرِ الْبَاقِي بِلَا تَحَوُّلٍ
ثُمَّ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَرْمَدًا	عَلَى النَّبِيِّ خَيْرِ مَنْ قَدْ وَحَّدَا
وَالِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبَعَ	سَبِيلَ دِينِ الْحَقِّ غَيْرَ مُبْتَدِعٍ
وَبَعْدُ فَاغْلَمْ بِوَجُوبِ الْعَرِفَةِ	مَنْ وَاجِبِ اللَّهِ عِشْرِينَ صِفَةً
فَاللَّهُ مُوجُودٌ قَدِيمٌ بَاقٍ	مُخَالِفٌ لِلْخَلْقِ بِالْإِطْلَاقِ
وَقَائِمٌ غَنِيٌّ وَوَاحِدٌ وَحْيٍ	قَادِرٌ مُرِيدٌ عَالَمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ
سَمِيعٌ الْبَصِيرُ وَالْمُتَكَلِّمُ	لَهُ صِفَاتُ سَبْعَةٍ تَنْتَظِمُ
فَقُدْرَةُ إِرَادَةٍ سَمْعٌ بَصَرٌ	حَيَاةُ الْعِلْمِ كَلَامٌ اسْتَمَرُّ

وَجَائِزُ بِفَضْلِهِ وَعَدْلِهِ
 أَرْسَلَ أَنْبِيَاءَ نَوِي فِطَانَةٍ
 وَجَائِزُ فِي حَقِّهِمْ مِنْ عَرْضِ
 عَصَمَتِهِمْ كَسَائِرِ الْمَلَائِكَةِ
 وَالْمُسْتَحِيلُ ضِدُّ كُلِّ وَاجِبِ
 تَفْصِيلُ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ لَزِمَ
 هُمْ آدَمُ أَدْرِيسُ نُوحُ هُودُ مَعَ
 لُوطُ وَإِسْمَاعِيلُ إِسْحَاقُ كَذَا
 شُعَيْبُ هَارُونُ وَمُوسَى وَالْيَسَعَ
 إِيَّاسُ يُونُسُ زَكَرِيَّا يَحْيَى
 عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
 وَالْمَلِكُ الَّذِي بَلَا أَبٍ وَأُمٍّ
 تَفْصِيلُ عَشْرِ مِنْهُمْ جِبْرِيلُ
 مُنْكَرٌ نَكِيرٌ وَرَقِيبٌ وَكَذَا

تَرَكُ لِكُلِّ مُمَكِّنٍ كَفْعَلِهِ
 بِالصَّدَقِ وَالتَّبْلِيغِ وَالْأَمَانَةِ
 بَغَيْرِ نَقْصٍ كَخَفِيفِ الْمَرْضِ
 وَاجِبَةٌ وَفَاضِلُوا الْمَلَائِكَةِ
 فَاحْفَظْ لْخَمْسِينَ بِحُكْمٍ وَاجِبِ
 كُلِّ مَكْلَفٍ فَحَقِّقْ وَاعْتَنِمْ
 صَالِحَ وَإِبْرَاهِيمَ كُلُّ مُتَّبِعِ
 يَعْقُوبَ يُوسُفَ وَأَيُّوبَ احْتَذَى
 نُوحَ الْكَفَلِ دَاوُدَ سَلِيمَانَ اتَّبِعِ
 عِيسَى وَطَهَ خَاتِمَ دَعَا غِيَا
 وَآلِهِمْ مَا دَامَتِ الْأَيَّامُ
 لَا أَكُلَ لَا شَرِبَ وَلَا نَوْمَ لَهُمْ
 مِيكَالُ إِسْرَافِيلُ عَزْرَائِيلُ
 عَتِيدُ مَالِكُ وَرِضْوَانُ احْتَذَى

أَرْبَعَةٌ مِنْ كُتُبٍ تَفْصِيْلُهَا
 زُبُورُ دَاوُدَ وَانْجِيلُ عَلَي
 وَصُحُفُ الْخَلِيلِ وَالْكَلِيمِ
 وَكُلُّ مَا أَتَى بِهِ الرَّسُولُ
 إِيمَانُنَا بِيَوْمٍ آخِرٍ وَجِبَ
 خَاتِمَةٌ فِي ذِكْرِ بَاقِي الْوَاجِبِ
 نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ قَدْ أُرْسِلَا
 أَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ عَبْدُ الْمَطْلَبِ
 وَأُمُّهُ أَمِيَّةُ الزُّهْرِيَّةِ
 مَوْلَدُهُ بِمَكَّةِ الْأُمَيْيَّةِ
 أَتَمَّ قَبْلَ الْوَحْيِ أَرْبَعِينَ
 وَسَبْعَةَ أَوْلَادُهُ فَمِنْهُمْ
 قَاسِمٌ وَعَبْدُ اللَّهِ وَهُوَ الطَّيِّبُ
 أَنَاهُ إِبْرَاهِيمُ مِنْ سُرِيَّةِ

تَوْرَةُ مُوسَى بِالْهُدَى تَنْزِيلُهَا
 عِيسَى وَفُرْقَانُ عَلَي خَيْرِ الْمَلَا
 فِيهَا كَلَامُ الْحَكَمِ الْعَلِيمِ
 فَحَقُّهُ التَّسْلِيمُ وَالْقَبُولُ
 وَكُلُّ مَا كَانَ بِهِ مِنَ الْعَجَبِ
 مِمَّا عَلَى مَكْلَفٍ مِنْ وَاجِبِ
 لِلْعَالَمِينَ رَحْمَةٌ وَفَضْلًا
 وَهَاشِمٌ عَبْدٌ مَنَافٍ يَنْتَسِبُ
 رَضَعَتُهُ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةِ
 وَفَاتُّهُ بِطَيِّبَةِ الْمَدِينَةِ
 وَعُمُرُهُ قَدْ جَاوَزَ السِّتِينَ
 ثَلَاثَةَ مِنْ الذُّكُورِ تُفْهَمُ
 وَطَاهِرٌ بِذَيْنِ ذَا يُلَقَّبُ
 فَأُمُّهُ مَارِيَّةُ الْقَبْطِيَّةِ

وغير إبراهيم من خديجة
وأربع من الإناث تُذكر
فاطمة الزهراء بعلمها علي
فزَيْنَبُ وبعدها رُقِيَّة
عن تسع نسوة وفاة المصطفى
عائشة وحفصة وسودة
هند وزَيْنَبُ كذا جویریة
حمزة عمه وعَبَّاسُ كذا
وقبل هجرة النبي الإسرا
وبعد إسرائٍ عروجٌ للسماء
من غير كيفٍ وانحصارٍ وافترض
وبلغ الأئمة بالإسرائٍ
قد فاز صديقٌ بتصديقٍ له
وهذه عقيدةٌ مختصرة

هم ستة فخذ بهم وليجة
رضوان ربّي للجميع يُذكر
وابناهما السبطان فضلهم جلي
وأم كلثوم زكّت رضىة
خيرن فاخترن النبي المقتفى
صفيّة ميمونة ورملة
للمؤمنين أمّهات مرضية
عمته صفيّة ذات احتذى
من مكة ليلاً لقدسٍ يدرى
حتى رأى النبي رباً كلماً
عليه خمساً بعد خمسين فرض
وفرض خمسة بلا امتراء
وبالعروج الصدق ووافى أهله
وللعوام سَهْلَةٌ مُيسرة

نَاطِلُكَ أَحْمَدُ الْمَرْزُوقِي مَنْ يَنْتَمِي لِلصَّابِقِ الْمَصْدُوقِ

والحمد لله وصَلَّى سَلَامًا عَلَى النَّبِيِّ خَيْرَ مَنْ قَدْ عَلَّمَا

وَالْآلِ وَالصُّحُبِ كُلُّ مُرْشِدٍ وَكُلٌّ مِّنْ بَخِيرٍ هَدَى يَقْتَدِي

وَأَسْأَلُ الْكَرِيمَ خَلاصَ الْعَمَلِ وَنَفْعَ كُلِّ مَنْ بِهِ قَدْ اشْتَغَلَ

أَبْيَاتُهَا مَيِّزُ بَعْدُ الْجُمْلِ تَأْرِخُهَا لِي حَيُّ غُرِّ جُمْلِ

سَمِيَّتُهَا عَقِيدَةُ الْعَوَامِ مِنْ وَاجِبٍ فِي الدِّينِ بِالْتَّمَامِ

وہاں سے چل کر گولہ باری:

ترجمة

هو السيد الشريف أحمد بن رمضان منصور بن محمد بن شمس الدين بن رئيس بن زين الدين بن ناصب الدين بن محمد بن قاسم بن محمد بن رئيس إبراهيم بن محمد بن سيدي مرزوق الكفافي بن موسى بن عبد الله المحض الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليهم سلام الله ورحماته وتحياته وبركاته.

كذا ساق نسبه العلامة أحمد أبو الخير مرداد في كتابه، وسماه كحاله في (معجم المؤلفين) : أحمد بن محمد بن رمضان، فليحرر ذلك، ويحرر نسبه واتصاله وكماله، ووقع عند البعض تلقبيه بالحسيني، وهو حسني النسب، وأما هو حسيني من جهة الأمهات كما نص عليه مرداد^(١).

مولده ونشأته وطلبه للعلم :

ولد رحمه تعالى بمدينة (سنباط) من مدن الإقليم المصري عام ١٢٠٥هـ، وكُنِيَ (أبا الفوز)، كناه به شيخ السجادة الوفاية السيد أبو الإقبال أحمد وفاء رحمه الله تعالى. والمرزوقي نسبة لجده السيد العارف بالله مرزوق المدفون بـ (كفافة) على شاطئ البحر الأحمر، وكان شيخاً جليلاً له مُريدون كثر، بلغت زواياه (١٤٠) زاوية مفرقة في البلدان

(١) مصادر الترجمة: نشر النور والزهر (المختصر): ١١٣-١١٤، ٨٩، ٢١٤، ٢٢٤، ٤٠٢، ٤٨١.

فهرس الفهارس : ج ١ ص ١٢٢، ١٣٧، ١٣٨، ٣٩٠. ج ٢ ص ٥٥٠، ١٠٧٢، ١٠٧٩.

سير وتراجم: ص ٢٤٠، معجم المطبوعات الحديثة لسركيس : ج ٢ ص ١٧٣٢، جامع الشروح والحواشي : ج ٣ ص ١٢١١، معجم المؤلفين ج ١ ص ٥٦٤.

وسطور في ترجمة السيد أحمد المرزوقي : للسيد المفضل محمد بن أبي بكر با ذيب، نزيل مكة المكرمة حفظه الله ووفقه لصالح الأعمال.

المصرية. ونشأة المترجم له نشأة طيبة صالحة، وعكف على تحصيل العلوم الدينية في الأزهر الشريف، وأخذ عن جميع من الشيوخ الأئمة الجهابذة.

شيوخه:

أخذ عن جمع من كبار علماء الأزهر الشريف، ولم تذكر لنا المصادر سوى القلة منهم، ولكن قليلهم لا يقال له قليل، فعلى رأسهم العلامة شيخ الأزهر الشريف الإمام الفقيه المحقق عبد الله حجازي الشرقاوي (ت ١٢٢٤هـ)، ومنهم الإمام الجليل الشيخ محمد الأمير الكبير صاحب الثبت المشهور (ت ١٢٤٢هـ) ومنهم العلامة المسند الشيخ محمد بن علي الشنواني (ت ١٢٣٣ هـ) وله ثبت أيضاً. وغيرهم رحمهم الله تعالى جميعاً.

المجاورة بالحرم المكي الشريف:

قدم صاحب الترجمة مع أخيه الأكبر العلامة السيد محمد إلى مكة المكرمة، فتجاورا بها واستطابا سكنها فطنبا خيامهما في الرحاب الحرمية، وكانت لهما شهرة بالعلم والتدريس والإفادة ولم يبرحا منها إلى أن دنى الحمام وغادراها إلى دار السلام وكان السيد محمد المرزوقي تولى إفتاء السادة المالكية بمكة ولم يفارق هذا المنصب إلى أن توفي وانتقل إلى رحمة الله تعالى في ٢٧ من ذي القعدة سنة ١٢٦١هـ، فتولاه بعده أخوه السيد أحمد صاحب هذه الترجمة، واستمر فيه حتى وافته المنية هو أيضاً رحمهما الله تعالى. وكان للسيد أحمد المرزوقي درس في الحرم المكي الشريف بجوار المقام المالكي، يدرس فيه شتى أنواع العلوم، واهتم في آخر عمره بعد أن كف بصره بتفسير البيضاوي وإعادته لطلابه.

مؤلفاته:

- ١- منظومة عقيدة العوام، التي نحن بصدد الحديث عنها وشرح أبياتها وعددها (٥٧) بيتاً فقط.
- ٢- شرح المنظومة للسيد أحمد المرزوقي، يسمى (نيل المرام لبيان عقيدة العوام) منه نسخة خطية بمكتبة مسجد الحبر ابن عباس بالطائف ١٠/١٦٣، ونسخة أخرى بمكتبة قاريونس (١٨٠٩)، وثالثة بدار الكتب المصرية (٥٢/٢)، وطبع بمصر عام ١٢٩٨هـ، طبعة فريدة، ولم يجدد طبعها حسب علمي.
- ٣- بيان الأصل في بيان لفظ بافضل.
- ٤- تسهيل الأذهان على متن اللسان، في علم النحو، والمتن للعلامة الخوارزمي البقالي.
- ٥- الفوائد المرزوقية في شرح الأجرومية.
- ٦- منظومة في قواعد الصرف والنحو.
- ٧- نظم في الفلك، وقام بشرحه السيد محمد المرزوقي بشرح لطيف.
- ٨- بلوغ المرام لبيان ألفاظ مولد سيد الأنام، وهو شرح على المولد الشهير بمولد الحريري، لمؤلفه الشيخ أحمد بن قاسم المالكي الشهير بالحريري، طبع في مطبعة بولاق عام ١٢٨٦هـ، و١٢٩١هـ، يقع الشرح في (٢٠٠) صفحة.
- ٩- منظومة عصمة الأنبياء، فرغ من نظمها في عام ١٢٥٨هـ.

تلامذته والآخذون عنه:

يصعب حصر كافة الآخذين عن السيد أحمد المرزوقي في هذا النطاق، ودرس يقام في الحكم المكي يحضره بالطبع المناسبات، وحسبنا أن نذكر مشاهير من عرفوا بأخذهم عنه، ومن رووا وأسندوا عنه، فمنهم : العلامة الشهير السيد أحمد زيني دحلان الجيلاني الحسني المكي الشافعي، الشيخ صالح راوة الجاوي ثم المكي، الشيخ عبد الغني البيماوي ثم المكي، الشيخ أحمد بن أسعد الدهان الحنفي المكي، الشيخ أحمد الحلواني المقرئ الشامي الشافعي، الشيخ محمد المنصوري المصري ثم المكي الشافعي، العلامة أحمد بن محمد الطاهر الأزدي المراكشي المغربي المالكي، الشيخ محمد بن هني بن معروف المغربي المالكي، العلامة محمد المدني ابن عزوز التونسي المالكي، السيد العلامة محمد بن ناصر الحازمي الحسني التهامي، وغيرهم وغيرهم.

تنبيه: وهم البعض فعد من الآخذين عنه السيد العلامة أحمد بن حسن العطاس، وهذا مستحيل لأن مولده بحضرموت سنة ١٢٥٧هـ، ولم يأت إلى مكة إلا بعد عام ١٢٨٠هـ. فليعلم.

وفاته:

كانت وفاة السيد أحمد المرزوقي بمكة المكرمة عام ١٢٦٢هـ أثناء توليه منصب إفتاء السادة المالكية.

تنبيه: وهم صاحب معجم المطبوعات يوسف سركيس فذكر في معجمه أن السيد أحمد المرزوقي كان حياً سنة ١٢٨١هـ، وهذا وهم لا ريب، فلينتبه إلى ذلك.

أسرته:

السيد أحمد المرزوقي رزقه الله بنت وحيدة، كان حظها من الأزواج السيد العالم الصالح محمد صالح بن العلامة المفتي الأجل السيد محمد بن حسين الكتبي الحسني المكي المتوفي بمكة سنة ١٢٩٥هـ، ورزق منها بأولاد مباركين: (محمد مكي، وطاهر، وأمين، وعبد الوهاب، وحسن، ونور، وبنت تزوجها العالم عبد الرحمن المحجوب المصري الحسني الشهير بأبو حسين)، وهو من تلامذة السيد محمد البن حسين الكتبي (ت ١٢٨٥هـ)، والسيد عبد الرحمن المحجوب كان من طلاب العلم المجاورين بمكة، ولقربه من الشيخ المذكور أحبه لنباهته وتحصيله فزوجه بحفيدة المذكورة، فأنجبت له ابنه السيد محمد المولود عام ١٢٨٤هـ، فلقبه بالمرزوقي تيمناً باسم جده لأمه صاحب الترجمة، ونبغ هذا الابن وكان عالماً جليلاً من كبار علماء الحرم المكي الشريف، وتولى عدة مناصب قضائية وتوفي سنة ١٣٦٥هـ.

شروح عقيدة العوام:

ذكرت في المقدمة العناية التي لقيتها منظومة عقيدة العوام من قبل أهل العلم، وانتشار تدريسها وتحفيظها في الأقطار، وهذه العناية لا بد وأن تواكبها عناية بشرح الأبيات نفسها، وقد سبق وأن ذكرت شرح الناظم نفسه عليها، وهناك شروح أخرى منها:-

- ١- حاشية العلامة يوسف السنبلأويني المصري ثم المكي (ت ١٢٨٥هـ) على شرح الناظم.
- ٢- حاشية العلامة أحمد أبو الخير مرداد الحنفي المكي (ت ١٣٤٢هـ) تسمى فيض الملك العلام.

٣- نيل المرام شرح عقيدة العوام، للعلامة الحبر الفهامة فريد دهره ووحيدي

عصره الشيخ أسد حمزة عبد القادر الأوسي الزبيدي رحمه الله
(ت ١٤٢٥هـ) مخطوط.

٤- نور الظلام شرح عقيدة العوام، للنواوي البيننتي.

٥- جلاء الإفهام شرح عقيدة العوام، دروس مستفادة من شرح السيد العلامة / محمد بن علوي المالكي المكي الحسني، من كبار علماء الحرمين الشريفين (ت ١٤٢٥هـ) جمعها الأستاذ / محمد إحياء علوم الدين، مدير معهد نور الحرمين في مدينة فوجون - أندونيسيا.

٦- موجز الكلام، لفضيلة الشيخ الفقيه المربي محمد بن علي بن محمد بأعطية الدوعني نزيل جده حفظه الله ونفع به، طبع عدة مرات، وهو مقرر للطلاب في بعض البلدان الإسلامية.

٧- سعادة الأنام بشرح عقيدة العوام، للدكتور / مراد بن عبد الله بن برع بن مهدي الجناي - أستاذ العقيدة والفكر الإسلامي المساعد في جامعة صنعاء - كلية التربية - حجة، وهو شرح موسع للمنظومة، ومقرر على طلاب قسم الدراسات الإسلامية والقرآن وعلومه في مرحلة البكالوريوس.

هذا ما جرى به القلم واستطعت تحصيله من الكلام على ترجمة السيد أحمد المرزوقي - رحمه الله - ومنظومته المباركة عقيدة العوام، أسأل الله أن يكون نافعا وافيا بالمقصود، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

سببُ إنشاء هذه المنظومة

نقل العلماء^(١) عن الناظم قصة طريقة في سبب نظمه هذه المنظومة لا بأس بنقلها وهي:

أن الناظم الشيخ اللوذعي العلامة السيد أحمد المرزوقي المكي المالكي - رحمه الله - رأى في منامه حضرة النبي الأكرم ﷺ وأصحابه ﷺ أجمعين واقفون حوله، وقال له الحبيب المصطفى ﷺ: [أقرأ منظومة التوحيد التي من حفظها دخل الجنة، ونال المقصود من كل خير وافق الكتاب والسنة]، فقال له: وما تلك المنظومة يا رسول الله؟ فقال الأصحاب الكرام له: اسمع من رسول الله ﷺ ما يقول، فقال حضرة النبي الأعظم ﷺ: قل: "أبدأ باسم الله والرحمن" فقال: أبدأ باسم الله والرحمن إلى آخرها وهو قوله:

وصحف الخليل والكليم
فيها كلام الحكم العليم

ورسول الله ﷺ يسمعه، فلما استيقظ من منامه قرأ ما رآه في منامه فوجده محفوظاً عنده من أوله إلى آخره، ثم رأى حضرة النبي ﷺ مرة ثانية وقت السحر في المنام، فقال له حضرة النبي الأكرم ﷺ: أقرأ ما جمعت - أي في قلبك - فقرأه من أوله إلى آخره وهو واقف بين يديه ﷺ وأصحابه ﷺ واقفون حوله يقولون: آمين، بعد كل بيت من هذه المنظومة، فلما ختم قراءته قال حضرة النبي ﷺ: وفقك الله تعالى لما يرضيه، وقبل منك ذلك وبارك عليك وعلى المؤمنين، ونفع بها العباد آمين.

(١) ينظر جلاء الأفهام بشرح عقيدة العوام، ص ١١ للعلامة الأستاذ محمد إحياء علوم الدين، مدير معهد نور الحرمين، فوجون - أندونيسيا.

ثم سئل الناظم رحمه الله تعالى بعد اطلاع الناس على تلك المنظومة، فأجاب سؤالهم فزاد عليها منظومة من قوله:

[وكل ما أتى به الرسول فحقه التسليم والقبول] إلى آخر الكتاب.

هذا ما أخبر به المؤلف عن نفسه، ونحن نقلناه بنصه والعهدة على الراوي. والشرح لهذه المنظومة هو ما قمنا به خدمة لديننا وبيان لعقيدتنا عقيدة أهل الحق من أهل السنة والجماعة، أما ما يتعلق بالرؤيا فهو خاص بصاحبها رحمه الله تعالى وأجزله من فضله خيراً ونور ضريحه ورمسه ورحم والديه ومشايخه إن ربنا سميع قريب مجيب للدعاء.

وأما الرؤيا فيراها الرجل لا تصلح مناطاً لحكم شرعي، فأما ما روي عن نص الأذان برؤيا عبدالله بن زيد رضي الله عنه فإن مناط الحكم فيه هو إقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم. والرؤيا الصادقة جزء من بضع وأربعين جزءاً من النبوة، لكنها قد ترى رموزاً فتعبر، ولا يستلزم صدق الرؤيا صحة التعبير.

والرؤيا على ثلاثة أنواع: فمنها الرؤيا أصلها اطلاع الروح على ما في اللوح المحفوظ بطريق من طرق الاطلاع، وهذه لا تكون إلا صادقة. ومثالها رؤية الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم فإن الشيطان لا يتمثل به^(١).

ومن الرؤيا ما يلقيها الشيطان إلى النفس، وهذه تكون كاذبة جملة، أو فيها ما يشبه الصحيح المفضي إلى باطل لا محالة. ومنها ما هي من أفكار الرائي ذاته، فإن فكر الإنسان دائم الحركة أشبه ما يكون "نواس" الساعة^(٢)، فيبقى منشغلاً حال النوم بما اشتغل به حال اليقظة من أفكار قد تترجم في النوم إلى رموز، وإن أكثر مراني الناس من قبيل النوع الثالث.

(١) قال حضرة النبي صلى الله عليه وسلم: (من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي). صحيح مسلم، كتاب الرؤيا، باب من قد رآني، ص ١٢٠٣ رقم الحديث (٢٢٦٦).

(٢) نواس الساعة: رقاص الساعة. إن ما أحسى في نومته كأنه شمسها في نومه (نور العيون في معرفة الأحكام الشرعية).

والرؤيا الصادقة فيها مبشرات للناس كافة^(١)، أما أحكام دنياهم وآخرتهم ففي الشرع الشريف الذي ثبت بالنصوص المتواترة من الكتاب والسنة النبوية المطهرة. فمن المرائي ما فيها الرؤيا الواهية، فإذا قالت لك الرؤيا خلاف ما يقول الشرع الشريف فافهم رؤياك فإنها كاذبة وصدّق الشرع فإنه الحق والصدق.

وقال أهل الذوق وأهل الاعتصام بالشرع الإسلامي الحنيف: أصلح نفسك تصدق رؤياك^(٢).

(١) الرؤيا الصالحة التي رآها سيدنا إبراهيم عليه السلام، ورؤيا سيدنا يوسف عليه السلام

وغيرهما ممن ذكر في كتاب الله تعالى وفي سنة المصطفى ﷺ، ينظر فتح الباري: (١)

ج ٢٧، والرحيق المختوم: ص ٥٦.

(٢) ينظر النجم الزاهر: ص ٩٥ للأستاذ نكتل كشمولة رحمه الله تعالى.

المبحث الأول: مبادئ علم التوحيد

إن دين الإسلام هو عالم لقرائن الإلهية ومن أجل ذلك كسرت دعوة علمية وعقيدة للأناس جميعاً، وتكفل ببيان الأصول الاعتقادية والقيادية الخلقية والتشريعات العملية، والتي من شأنها أن تنظم حياة الإنسان في عبادته لله وعلاقته بربه، ومسئله بأمرته وحقوقه وواجباته تجاه المجتمع الذي يعيش فيه، حتى يتم بقائه والازدهار والرفاهية.

والآن من يتفحص ما جاء به الإسلام يجد منه الأساس

الفصل الأول :

أولاً : الأصول الاعتقادية مبادئ علم التوحيد

وأقسامه

والعلمية منها: إثبات الخلق الإلهية بالأدلة القياسية، وإثبات التوحيد المطلق، وإيضاح المحجة لهم، وإلزام المعتكفين بقيمة العجوة عليهم وحفظ ما بعد التوحيد من أركانها شتى المطالبين.

والعلم التوحيد في أصول الاعتقاد هو علم أصول الدين ومن أسسه: الله الخالق؛ معناه بهذا الاسم الإمام الأئمة أو جنود العصاة في قوله: لا اله الا الله في القول الخدين من الله في العلم، لأن الله في الدين أصل والله في العلم فرع، وليس الأصل على الفرع معلوماً^(١)

المبحث الأول: مبادئ علم التوحيد

إن دين الإسلام هو خاتم الرسالات الإلهية ومن أجل ذلك كان دعوة عالمية ودينًا للناس جميعاً، وتكفل ببيان الأصول الاعتقادية والمبادئ الخلقية والتشريعات العملية، والتي من شأنها أن تنظم حياة الإنسان في خاصة نفسه وعلاقته بربه، وصلته بأسرته، وحقوقه وواجباته تجاه المجتمع الذي يعيش فيه، حتى ينعم بالراحة والأمن في حياته ويطمئن على مصيره بعد مماته. وإن من يتفحص ما جاء به الإسلام يجده ثلاثة أقسام:

أولاً: الأصول الاعتقادية

وموضوعها المعلوم من حيث أنه يتعلق به إثبات العقائد الدينية المتعلقة بالله وصفاته وأفعاله، وما يتفرع عنها من مباحث النبوة والمعاد. والغاية منها: إثبات العقائد الدينية بالأدلة اليقينية، وإرشاد المتدينين بإيضاح المحجة لهم، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليهم وحفظ قواعد الدين عن أن تزلزلها شبهات المبطلين.

والعلم الباحث في أصول الاعتقاد هو علم أصول الدين ومن أسمائه:

- أ- الفقه الأكبر: سماه بهذا الاسم الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان رحمه الله وقال: [الفقه في الدين أفضل من الفقه في العلم، لأن الفقه في الدين أصل والفقه في العلم فرع، وفصل الأصل على الفرع معلوم]^(١).

ب- علم النظر والاستدلال: سمي بهذا الاسم لأنه يعتمد منهج النظر الفكري والاستدلال العقلي لإثبات أصول العقيدة التي ثبتت بالنصوص الدينية من الكتاب الكريم والسنة المطهرة. وقال العلماء: العلم هو الاستدلال.

ج- علم التوحيد والصفات: سمي بهذا الاسم لأن أشهر مباحثه وأهمها وأخطرها مبحثا التوحيد والصفات الإلهية.

د- علم العقائد: سمي بهذا الاسم لأنه يتكفل بمبحث العقائد الدينية وإثباتها بالأدلة اليقينية والدفاع عنها ضد العقائد والأفكار المخالفة، وكذلك سمي بعلم العقائد لأن القلب يجب أن يعقد ويجزم يقيناً بمسائله.

هـ- علم الكلام: اشتهر علم أصول الدين بإسم علم الكلام لعدة أسباب:

١. إن أهم مسألة وقع الخلاف فيها واشتد النزاع حولها في القرون الأولى كانت مسألة (كلام الله تعالى) هل هو أزلي قائم بذاته سبحانه أم مخلوق حادث؟ فسمي علم أصول الدين بعلم الكلام لأنه أهم مسألة حدث من أجلها خلاف بين المسلمين.

٢. أو إن علم أصول الدين يتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام بين الجانبيين وغيرها يتحقق بالتأمل والمطالعة.

٣. لأنه أكثر العلوم خلافاً ونزاعاً فيشتد افتقاره إلى الكلام مع المخالفين والرد عليهم وإنه لقوة أدلته صار كأنه دون ما عداه من العلوم كما يقال للأقوى من الكلاميين هذا هو الكلام.

٤. مأخوذ من الكلم وهو الجرح لأنه لا يبتائه على الأدلة القطعية المؤيدة أكثرها بالأدلة السمعية أشد العلوم تأثيرها في القلب وتغلغلاً فيه.

٥. لأن عنوان مباحثه كان قولهم: الكلام في كذا.

٦. لعل أوجه الأسباب أن أصحابه تكلموا فيما كان السلف من الصحابة

والتابعين يسكتون فيه، فالكلام ضد السكوت، والمتكلمون كان يتكلمون حيث ينبغي الصمت اقتداءً بالسلف في المسائل الاعتقادية.

ملاحظة هامة: إن علماء الأمة الإسلامية من الخلف الذين تكلموا في إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية إنما تكلموا لغرض حماية العقيدة الإسلامية الثابتة بأدلة الكتاب والسنة من الفلسفات والعقائد الباطلة تلك التي انتقلت من القوميات والشرائع الأخرى والتي دخلت مع أقوامها في الإسلام. فهذا الجهد المبارك والعمل الصالح فإنه محمود ومطلوب في كل وقت وحين للدفاع عن عقيدة الموحدين.

ثانياً: الأحكام العملية

وموضوعها كل ما يصدر عن الإنسان من أعمال سواء أكانت عبادات أم معاملات كالصلاة والجهاد، والبيع والجنائيات. والغاية منها: تنظيم شؤون المجتمع الإنساني في كل ما تدعو إليه حياة الإنسان في كل زمان ومكان.

والعلم الذي يتكفل ببيان هذه الأحكام والقوانين والتشريعات هو علم الشرائع والأحكام أو علم الفقه.

والمتابع المنصف لأحكام هذه الشريعة الإسلامية الغراء، يجد أن لأحكامها خصائص ومميزات تميزت بها عن سائر الشرائع السابقة التي نسخت ببعثة النبي الأكرم سيدنا محمد ﷺ وهذه الخصائص هي:

أ- الشمول والعموم: فأحكام هذه الشريعة المباركة تستغرق شؤون الإنسان كلها الفردية والجماعية، الدنيوية والأخروية، وتبدأ مع الإنسان منذ جنين في بطن أمه إلى أن يبارح الدنيا وتمتد إلى حياته الأخروية منذ حياته الدنيوية، فهي عامة للناس جميعاً الراعي والرعية، الأمراء والملوك والناس أجمعين، شاملة أحوالهم جمعاء.

ب- التجدد الذاتي: إن أحكام الشريعة الإسلامية لها مدارك أحكام متنوعة ترجع إلى القرآن المجيد والسنة المحمدية المباركة^(١)، وتعمل في هذا الوقت نفسه كمولدات أحكام داخل الشريعة الغراء مشتملة على أسس العقيدة من الإسلام اشتمالها على أحكامه القانونية الفقهية المعتبرة^(٢).

فإن قيل: هل لهذا الأحكام ظاهر؟ ثم هل البواطن كالظواهر مبيّنات في الشريعة الغراء؟

جوابه: نعم، ما ترسمها الشريعة الغراء من الأعمال لها ظاهرٌ ولها باطنٌ، وظواهر الأعمال وبواطنها مبيّنات في الشريعة نصاً عليها أو إرشاداً إليها، ومثاله: الخشوع في الصلاة عمل قلبي باطني مع حركات أدائها الظاهرة.

ومما ينبغي على المكلف إدراكه أن الظاهر والباطن في شريعتنا الإسلامية متطابقان فكل ظاهر أو باطن من الأعمال يتناقض أو يتعارض مع أحكام شريعة الإسلام فهو بحكم التعارض أو التناقض خارج عن الإسلام وليس منه، وتقوم من هذا الجواب الصريح أن ليس في الإسلام باطن هو متناقض أو متعارض مع ظاهر الشريعة الغراء.

ثالثاً: المبادئ الخلقية:

وموضوعها كل ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان من الصفات التي من شأنها أن تنتج عنها صدور الأعمال الخيرية كالوفاء والأمانة والعدل والإحسان والتواضع والتعاون والصفاء والتسامح والتحابب والتآلف وحب الخير للناس أجمعين من المؤمنين الطيبين.

(١) المراد بلفظ السنة المحمدية: كل ما أثر عن حضرة النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية قبل وبعد النبوة، ويرادف هذا المعنى اصطلاحاً الحديث والخبر والأثر، ينظر: المنهل اللطيف: ص ١٠.

(٢) ينظر معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي، ص ١١، للدكتور العلامة عبدالله مصطفى أبوبكر الهرشمي.

والغاية منها: نشر الفضيلة والابتعاد عن الرذيلة، والعمل على إيجاد المجتمع الإنساني المثالي الواقعي الذي ينشر الخير ويهب الحياة معنى الخلافة التي خلق الله تعالى الإنسان لأجلها، قال تعالى: ((إني جاعل في الأرض خليفة)^(١).

والعلم الذي يتكفل ببيان تكلم المبادئ الخلقية: هو علم الأخلاق والفضائل، أو علم التزكية والتربية الروحية، أو علم الإحسان، أو عمل الروح الإسلامي. والإحسان: نهاية الإيمان قال النبي الأكرم ﷺ: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"^(٢).

والإحسان مقام عظيم لا يتسنى لأي كان، أوله مراعاة الأدب في العبادة على اختلاف أنواعها وتباين حدودها.

وشروط الإحسان: المتابعة أي متابعة حضرة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ في الأقوال والأفعال والأحوال والأخلاق قال تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لم كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)^(٣).

وأركان الإحسان: الاعتصام بالشريعة الغراء، وطلب العلم النافع وتدرسه، والجهد في سبيل الله تعالى، والعمل الصالح.

وفروعه: الصبر على الطاعة والتسليم لرب العالمين رب الأرض والسموات والناس أجمعين.

وثمرته: محبة الله تعالى ومحبة رسول الله ﷺ ومحبة آله الكرام وأصحابه العظام ومحبة المسلمين أجمعين.

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٢) متفق عليه واللفظ صحيح مسلم، ج ١، ص ٣٧، كتاب الإيمان باب الإسلام والإيمان والإحسان.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

واعلم - نفع الله تعالى بك - أنه لابد لكل شارع في فن أن يعلم مبادئه العشرة، وإلا كان شروعه من غيرها عبثاً، وقد جمعها بعضهم في قوله:

إن مبادئ كل فن عشرة الحُدُّ والموضوع ثم الثمرة
وفضله ونسبة والواضع والاسم الاستمداد حكم الشارع
مسائل والبعض بالبعض اكتفى ومن درى الجميع حاز الشرفاً^(١)
فالحدُّ: أي تعريف علم التوحيد.

لغة: العلم بأن الشيء واحد^(٢).

وشرعاً: هو أفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته والتصديق بها ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً^(٣).

والتوحيد بمعنى الفن المدون: أ- علم يقتدر به إثبات العقيدة الدينية من أدلتها اليقينية^(٤).

ب- علم يُعرف به ما يجب لله تعالى وما يستحيل وما يجوز، وما يجب في حق رسله وما يستحيل وما يجوز، وأحوال المعاد والممكنات.

ولا شك أن أساس ذلك كله معرفة الواحد الأحد جل جلاله وعم نواله، واليقين بوحديته وسائر صفاته العلية وأسمائه الحُسنى وبتنزهه عما لا يليق بجلاله، وهذه المعرفة هي الغاية القصوى والمنهل الأصفى ويُعبر عنها برسوخ الإيمان في القلب.

وموضوعه: ذات الله تعالى وذات رسله من حيث ما يجب وما يستحيل وما يجوز، والممكنات، حيث أن الممكن من المخلوقات ما يستدل به على

(١) حاشية الباجوري على متن السنوسية لإبراهيم البيجوري: ص ٩.

(٢) مختار الصحاح مادة "و ح د" ص ٧١٢.

(٣) النظام الفريد تحقيق جوهرة التوحيد لمحمد محيي الدين عبد الحميد: ص ١٤.

(٤) ينظر شرح النسفية لنجم الدين عمر النسفي: ص ١٠.

وجود الصانع، والسمعيات من حيث اعتقادها^(١).

وثمرته: معرفة الله سبحانه وتعالى بالبراهين القطعية والفوز بالسعادة الأبدية في الآخرة.

وتفصيل ذلك أن إتقان هذا العلم يفيد أموراً^(٢):

أ- الترقى من حضيض التقليد إلى ذروة الإيمان قال عز من قائل: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير}^(٣).

ب- إرشاد المسترشدين بإيضاح المحجة لهم، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليهم.

ج- حفظ قواعد الدين عن أن تزلزلها شبهات المبطلين.

د- أن يبني عليه العلوم الشرعية فإنه أساسها وقاعدتها المتينة.

هـ- صحة النية والاعتقاد، إذ بهما يرجى قبول العمل.

وفضله: أشرف العلوم لكونه متعلقاً بأشرف معلوم، وهو ذات الله تعالى وذات رسله وما يتبع ذلك، والمتعلق يشرف بشرف المتعلق به، ولهذا العلم الصدارة في ميدان العلوم وعليه المعول، وبنوره اهتدى المؤمنون ومن معينه ارتوى العارفون، وهو علوم التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والتربية الروحية من العلوم الشرعية التي لا يستغن عنها طلاب العلم والعرفان. ومن علمَ القدر الواجب معرفته منها كان على بينة من أمره، وبصيرة في دينه، وكان من الفالحين.

(١) حاشية الباجوري على السنوسية: ص ٩.

(٢) ينظر المواقف اللاهوتي: ص ٨، وشرح النسفية للدكتور عبد الملك السعدي، ص ٨.

(٣) سورة المجادلة، الآية ١١.

ونسبته: أصل العلوم وما سواه فرع، ومن هنا جاءت تسميته بعلم أصول الدين.

واضعه: هو الله جل جلاله وعم نواله بقوله: {فاعلم أنه لا إله إلا الله} (١). وبقوله تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم} (٢)، وقوله سبحانه: {وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون} (٣).

فالتوحيد جاء به أنبياء الله تعالى عليهم أفضل الصلاة والتسليم من عهد سيدنا آدم إلى عهد سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وعليهم أجمعين، وإنما نسب إلى علماء الأمة الإسلامية كأبي الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ) وأبي منصور الماتريدي (٣٣٣هـ) ومن تبعهما من علماء الأمة الإسلامية لأنهم هم الذين دونوا كتبه، وردوا على الفرق كالمعتزلة والقدرية والجبرية والناصبية والحشوية والمجسمة وغيرهم (٤).

واسمه: علم التوحيد لأن مبحث الوجدانية أشرف مباحثه، وهو من باب تسمية الكل باسم جزئه، ويسمى علم أصول الدين لكونه أصل العلوم الشرعية لابتنائها عليه (٥). ويسمى علم الكلام وعلم الفقه الأكبر كما مر في بداية التمهيد.

استمداده: من أدلة الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة والعقل الصحيح، فإن العقل الصحيح لا يخالف النقل الصحيح (٦).

(١) سورة محمد ﷺ: ١٩.

(٢) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٤٥.

(٤) ينظر إتحاف السادة المتقين بالتفصيل، ج ٢، ص ٧.

(٥) فإنه ما لم يثبت وجود صانع عالم قادر مكلف مُرسل للرسول منزل للكتب لم يتصور علم تفسير ولا علم فقه وأصوله، فكلها متوقفة على علم التوحيد مقتبسة منه فالأخذ فيها بدونه

كبان على غير أساس. ينظر كشاف اصطلاحات الفنون: ج ١، ص ٢٣.

(٦) ينظر المعرفة العقلية في المنظور الإسلامي: ص ١٠ للباحث وكذلك التحسين والتقبيح العقلان.

وقد تكلفت ببيان ذلك كله وإثباته بالبراهين القطعية آيات الذكر الحكيم وأحاديث النبي الكريم ﷺ، ومنهما استمدَّ علماء فن التوحيد مباحثه في باب الإلهيات والنبوات والسمعيات، وأفاضوا في ذلك إفاضة تشفي الصدور وتملأ القلوب بالنور وسموه (علم التوحيد) و(علم العقائد) و(علم أصول الدين). وحكم الشارع فيه: الوجوب العيني بالدليل الإجمالي، والوجوب الكفائي بالدليل التفصيلي.

فأما فرض العين: فهو اللازم على كل مكلف بعينه، وإذا قام به البعض لا يسقط عن الباقي: كالصلاة، والزكاة، والصوم.

وأما فرض الكفاية: فهو الذي إذا قام به البعض، سقط عن الباقي: وذلك كردّ السلام، وصلاة الجنازة، وحفظ القرآن عن ظهر قلب، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بشرطه، والقيام بالحرف النافعة المحتاج إليها^(١).

فيجب على كل مكلف التصديق والجزم والإذعان والقبول لما جاء به سيدنا محمد ﷺ فيما علّم مجيئه به ضرورة^(٢) إجمالاً فيما علم إجمالاً، وتفصيلاً فيما علم تفصيلاً.

والإيمان لغة: التصديق، قال جل جلاله حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأتم التسليم: {وما أنت بمؤمن لنا}^(٣) أي مصدق^(٤).

(١) شرح المقاصد النووية: ص ١٥ للإمام يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) شرحها الشيخ نزيل المدينة المنورة محمد الحجار حفظه الله وحماه.

(٢) الضروري: (البدهي): وهو ما يدركه العقل بغير نظر ولا تأمل، والضرورة الإجماعية المولى سبحانه لنفسه لأن تجزم بأمر جزماً مطابقاً بلا تأمل، بحيث لو حاولت أن تنفج عن نفسك ذلك الجزم بتشكيك أو نحوه لم تقدر مثاله أن الواحد نصف الاثنين وأما النظري: فهو الذي يدرك بعد النظر والتأمل كنبوت القدم لله تعالى، فإن العقل لا يدرك إلا بعد النظر والتأمل فيما يترتب على نفيه من المستحيلات. ينظر مفتاح الجنة للسيد أحمد بن مشهور الحداد: ص ٦٤-٦٨.

(٣) سورة يوسف: الآية ١٧.

(٤) ينظر جامع البيان للطبري: ج ١٢ ص ١٦٢، وكتاب العين: ج ٨ ص ٣٨٩، والتمهيد: ص ٣٤٦، الأنصاف: ص ٨٥، واللمع: ص ١٢٣، وتفسير الماوردي: ٢/٢٥١، وابن كثير: ٢/٤٧١، والكشاف: ٣٠٨/٢.

وشرعاً: التصديق والجزم والإذعان والقبول لما جاء به سيدنا محمد ﷺ فيما علم مجيئه به ضرورة من الله تعالى.

وليس المراد به مجرد نسبة الصدق إلى الخبر أو المُخبر، فلا يتحقق التصديق إلا بأمور ثلاثة أحدها: المعرفة، وثانيها: حديث النفس^(١) التابع لها، وثالثها: الاستسلام والانقياد والإذعان لما جاء به رسول الله ﷺ بمعنى قبول الأحكام والرضا بتبعيته ﷺ.

فيجب علينا الإيمان بأن الله تعالى واجب الوجود^(٢)، وأنه موصوف بكل كمال، ومنزه عن كل نقص، ومن ذلك اتصافه بالعظمة والكبرياء والألوهية، فيدخل في اتصافه بالألوهية ما يجب في حقه تعالى وما يستحيل وما يجوز إجمالاً وتفصيلاً.

والإيمان: نور يقذفه الله في قلب عبده، تشرق به زجاجته فيرى ما شاء الله أن يري من مكنونات العلوم والأسرار، كأنه عيان مشاهدة، فينشأ - عن ذلك - التَّبَيُّلُ إلى الله تعالى، والإخلاص له، والطمأنينة بذكره، والخوف منه، والرجاء فيه، والتخلي بالأخلاق الكريمة، والتخلي عن الأخلاق الذميمة، والإقبال على الطاعات، والانكفاف عن المعاصي والسيئات، والفوز بقربه تعالى ورضاه، وتلك هي السعادة العظمى^(٣).

ويجب الإيمان بالملائكة، جملة وتفصيلاً، فالجملة نعتقد أن جميع ما في علم الله من الملائكة حق ثابت، وأنهم أجسام لطاف روحانية، خلقوا من نور، لا يأكلون ولا يشربون ولا يبولون ولا يتغوطون، ولا يلد بعضهم بعضاً، لأنهم لا يوصفون بالذكورة ولا بالأنوثة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما

(١) المقصود بحديث النفوس: الانقياد والخضوع التابعان للمعرفة، مفتاح الجنة: ص ١٩٩.

(٢) معنى واجب الوجود: هو أنه لا يجوز عليه العدم، فلا يقبل العدم أزلاً وأبداً، ينظر الخريدة للرددير: ص ٥٥، والباجوري في شرح الجوهرة: ج ١ ص ٤٠.

(٣) مفتاح الجنة للأمام أحمد مشهور الحداد: ص ٤١.

يؤمنون، ولا يغفلون عن ذكر الله تعالى، معصومون عن جميع المحرمات والمكروهات بأسرهم، ولا يعلم عددهم إلا الله تعالى: {وما يعلم جنود ربك إلا هو} ^(١). هذا على الجملة، وأما على التفصيل فنعرف منهم عشرة: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، ورقيباً، وعتيداً، ومنكراً ونكيراً، ومالكاً، ورضواناً، عليهم السلام.

ويجب الإيمان بالكتب السماوية جملة وتفصيلاً، فالجملة أن نعتقد أن كل ما في علم الله تعالى من الكتب المنزلة من عند الله سبحانه فهو حق ثابت لا شك فيك، وأن جميع ما في هذه الكتب من القصص والأخبار، والوعد والوعيد، والأوامر والنواهي، حق ثابت لا شك فيه، وأن جميع ما في هذه الكتب دال على كلام الله القديم القائم بذاته العلية. هذا على سبيل الجملة، وأما على سبيل التفصيل فنعرف منها أربعة: التوراة التي أنزلت على سيدنا موسى، والزبور على سيدنا داود، والإنجيل على سيدنا عيسى، والفرقان أنزل على سيدنا ^(٢) وحبيب قلوبنا محمد ﷺ وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وآلهم وأصحابهم وسلم.

ويجب الإيمان بالرسول وبسائر الأنبياء، ولا يعلم عددهم إلا الله تعالى، لقوله تبارك وتعالى: {ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك} ^(٣)، وقيل عددهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي، فالرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، وقيل: إنهم ثلاثمائة وأربعة عشر، وقيل ثلاثمائة وخمسة عشر، والأسلم الإمساك عن حصرهم والله تعالى أعلم.

وأما تفصيلاً: فيجب معرفة من علمت أسماؤهم تفصيلاً، بحيث لو سُئل المكلف عن واحد منهم لم يتوقف في الجزم بأنه نبي، وليس معنى وجوب

(١) سورة المدثر: الآية ٣١.

(٢) قال الحبيب المصطفى ﷺ: "أنا سيد الناس يوم القيامة" البخاري: ٢٢٥/٥ (٤٧١٢) ومسلم:

١٢٧/١ (١٩٤).

(٣) سورة النساء: الآية ١٦٤.

الإيمان بهم تفصيلاً أن تحفظ أسماؤهم المباركة. خلافاً لمن زعم ذلك، بل معناه أنه لو عرض على المكلف واحد منهم لم ينكر نبوته ولا رسالته، لأن إنكارها كفر، لكن العامي يُعلم، فإن أنكر بعد تعليمه يكفر^(١). وأن الله تعالى أرسلهم لإرشاد عباده، وهم خمسة وعشرون: سيدنا آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وشعيب، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان، وأيوب، وذو الكفل، ويونس، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وسيدنا محمد ﷺ وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أجمعين.

وأن سيدنا محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء وأفضلهم، وأنه من البشر إلا أنه يوحى إليه،

محمد بشر وليس كالبشر بل هو ياقوتة والناس كالبحر^(٢)

وأنه من العرب، وأنه قرشي من بني هاشم، وأن أباه عبدالله بن عبد المطلب الطاهر المطهر، وأمه السيدة آمنة بنت وهب الطاهرة المطهرة، وأن مولده بمكة المشرفة، وهاجر منها إلى المدينة المنورة ودفن بها ﷺ، وهو صاحب الهجرة النبوية بابي هو وأمي والشفاعة العظمى والإسراء والمعراج ﷺ وآله وصحبه وسلم.

ويجب الإيمان إجمالاً بمن لا نعلم أسماؤهم، ونعتقد عصمة جميعهم، وما ورد مما يوهم خلاف العصمة فمؤول إجمالاً، ويعتقد أنهم عليهم الصلاة والسلام أكرم الخلق عند الله تعالى، ونؤمن بجميعهم، ولا نفرق بين أحد منهم في الإيمان كما فرق اليهود والنصارى.

ويجب الإيمان باليوم الآخر، وسمي اليوم الآخر لأنه آخر أيام الدنيا، وسمي يوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم، أو لقيام الحجة عليهم، أو

(١) ينظر شرح جوهرة التوحيد: ج ١ ص ٢٤١.

(٢) ينظر إتمام النصيحة لمريد العقيدة الصحيحة: ص ٢٧.

لقيامهم بين يدي خالقهم، وسمي يوم النشور لأن الناس ينشرون فيه، وسمي يوم العرض لأن الناس يعرضون فيه، وسمي يوم الموقف لأن الناس يقفون فيه، والموقف يوم الجمعة، في أرض الشام، فالواجب علينا أن نعتقد أن البعث حق، وأن النشر حق وأن الحوض حق، وأن الحشر حق، وأن الحساب حق، وأن الوقوف حق، وأن الوزن حق، وأن إعطاء الكتب حق، وأن الصراط حق، وأن الشفاعة حق، وأن دخول أهل الجنة في الجنة حق، وأن دخول أهل النار في النار حق، وأن رؤية المؤمنين لربهم حق^(١)، وأن حجب الكفار عن ربهم حق، وأن جميع أهوال الآخرة حق، وأن جميع نعيمها حق، وأن كرامات الأولياء حق وأن الإسراء والمعراج حق.

ويجب الإيمان بالقدر خيره وشره، وهو مجموع أمور ثلاثة: قدرة وإرادة وعلم، فالواجب علينا أن نعتقد أن كل ما أصابنا من خير وشر، ونفع وضرر، وحلو ومر، كله من عند الله تعالى، أوقعه علينا الآن بقدرته وإرادته، وسبق في علمه قبل وقوعه^(٢).

ومسائله: قضايا الباحث عن الواجبات والجائزات والمستحيلات.

أ- فالواجب: ما لا يقبل الانتفاء أبداً في ذاته، مثاله كون الجسم يملأ مقداراً من الفراغ.

ب- والجائز: ما يقبل الانتفاء في وقت، والثبوت في وقت آخر، مثاله كون الجسم متحرك في وقت، وساكن في وقت آخر.

ج- والمستحيل: ما لا يقبل الثبوت أبداً، مثاله كون الجسم متحركاً وساكناً في وقت واحد فهذا مستحيل^(٣).

(١) بفضل الله ورحمته واجتماع البصر بالبصيرة كما ذكره ابن عجيبة رحمه الله. ينظر الشفا للقاضي عياض: ص ١٩٥، والاقتصاد في الاعتقاد: ص ١١٤.

(٢) ينظر مفتاح الجنة: ص ٢٣٤-٢٤٢.

(٣) ينظر أصول الدين الإسلامي:

الإله الحق هو الله تعالى وحده

والإله الحق هو الله تعالى الواجب الوجود، الخالق البارئ المصور الرزاق المحيي المميت المدبر الحكيم، الذي أحسن كل شيء خلقه، وأبدع كل شيء صنعه، وأحكم كل أمر ودبره، وقضى كل شيء قدره، فهو وحده الإله الحق الأزلي الأبدي، المستحق للعبادة ظاهراً وباطناً، المنزه عن كل نقص، له الصفات العليا والأسماء الحسنى والعظمة والجلال، لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا إله سواه.

ومن لطائف الإشارة أن كلمة الشهادة والتوحيد حروفها جوفية ليس فيها شيء من الحروف الشفهية، للإشارة إلى الإتيان بها من خالص الجوف، وهو القلب، لا من الشفتين، وأنه ليس فيها حرف معجم، بل مجردة من النقط، إشارة إلى التجرد من كل معبود سوى الله تعالى، وأن (لا إله إلا الله محمد رسول الله) سبع كلمات، وللعبد سبعة أعضاء، وللنار سبعة أبواب، فكل كلمة من هذه السبع تغلق باباً من الأبواب السبعة عن كل عضو من الأعضاء السبعة.

وبعد أن استعرضنا مبادئ علم التوحيد العشرة فلا بد أن نعلم أن عقيدة الإسلام لا تقبل التجزئة والتقسيم، فمن اعتقد بها كلها، صحت عقيدته وكان مسلماً، ومن آمن ببعضها وكفر ببعضها، عاد الجزء الذي كفر به فنقض الجزء الذي آمن به، وقد أشار القرآن الكريم إلى كفر اليهود إذ آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه، قال تعالى: {أَفْتَوْنُون ببيعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون} (١).

كما لا تقبل هذه العقيدة الإسلامية التنازل عن مرتبة العلم اليقيني، والاعتقاد الراسخ في كل جزء من أجزائها الثابتة بيقين، فمن تردد ببعض ما ثبت فيها بيقين، أو اكتفى بغلبة الظن، لم تصح عقيدته^(١).

كما أن رتبة اليقين لا تجدي إذا لم يصحبها الإذعان الخضوع والإقرار، فالمشركون العرب، ومن كفر من أهل الكتاب، كانوا على يقين من صدق حضرة النبي المصطفى ﷺ ولم يمنعهم من الإقرار إلا الكبر، قال تعالى: ﴿وَجَدُوا بِهَا وَاسْتَقْبَلَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾^(١)، وقال عز من قائل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾^(٢). اللهم إنا نعوذ بك من الكبر والكفر والفقر وعذاب القبر يا أرحم الراحمين.

(1) $\frac{d}{dt} \left(\frac{1}{\sqrt{1-v^2/c^2}} \right) = \gamma^3 \frac{v}{c^2} \frac{dv}{dt}$

٧١- سورة النمل (٧)

(١) العقيدة الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة: ص ٧٢.

(٢) سورة النمل: الآية ١٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٦.

المبحث الثاني : الحكم وأقسامه

الحكم لغة: المنع، وأول ذلك الحكم: المنع من الظلم^(١)، وسُميت حكمة الدابة لأنها تمنعها، والحكمة تمنع من الجهل، والمُحكّم هو المجرب المنسوب إلى الحكمة، قال طرفة:

ليت المُحكّم والموعوظ صوتكما تحت التراب إذا ما الباطل انكشفاً^(٢)

الحكم اصطلاحاً: هو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه بواسطة الشرع أو العادة أو العقل^(٣). ذلك أن من أدرك أمراً من الأمور فإما أن يتصور معناه فقط، ولم يحكم بثبوته ولا بنفيه، فهذا الإدراك يسمى في الاصطلاح تصوراً، كإدراكنا معنى الحدوث، الوجود بعد العدم، وإما أن يتصور مع ذلك ثبوت ذلك المعنى لأمر أو نفيه عنه، فهذا يسمى في الاصطلاح تصديقاً ويسمى أيضاً حكماً، كإثبات الحدوث مثلاً بعد تصورنا لمعناه للعالم وهو ما سوى الله تعالى فنقول: العالم حادث، ونفيناه عن من وجب قدمه وهو مولانا تبارك وتعالى فنقول: مولانا وخالقنا جل وعلا ليس بحادث، فإثبات أمرٍ لأمرٍ هو المسمى حكماً^(٤).

أقسام الحكم:

لا يخلو الحكم إما أن يستند أو: لا، وإذا استند لا يخلو إما أن يستند إلى معصوم أو لغير معصوم، فإن استند لمعصوم فهو الشرعي، وإن استند لغير

(١) معجم مقاييس اللغة: ج ٢ ص ٩١-٩٢.

(٢) ديوان طرفة: ص ١٧٢.

(٣) ينظر الباجوري على السنوسية: ص ١٠-١٤، والمعتقد المنتقد: ص ١٣-١٥.

(٤) ينظر أصول الدين الإسلامي: ص ٧٧، وإتمام النصيحة لمريد العقيدة الصحيحة: ص ٩،

ومفتاح الجنة: ص ٣٣-٣٤.

معصوم فهو العادي، وغير المستند بالكلية فهو العقلي إذ لا رابع لها، وإنما يقدم الشرعي على العادي والعقلي لشرفه عليهما، ويقدم العادي على العقلي وإن كان أقوى منه لاشتراكه مع الشرعي في مطلق الإسناد^(١).

فالحكم الشرعي: هو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين بالطلب أو الإباحة أو الوضع لهما^(٢).

وأقسامه عند جمهور الأصوليين خمسة:

أ- **الفرض:** ما يثاب على فعله، ويعاقب على تركه، والفرض والواجب والمتحتم واللازم بمعنى.

ب- **المندوب:** ما يثاب على فعله، ولا يعاقب على تركه، والمندوب والسنة والمستحب والفضيلة والمرغَّب فيه: بمعنى: وذلك عبارة عن أقواله ﷺ وأفعاله إلا ما خصَّ به، وما أقرَّ عليه ورضي به، وما هم به ولم يفعله: كصوم يوم تاسوعاء.

ج- **الحرام:** ما يثاب على تركه، ويعاقب على فعله.

د- **المكروه:** ما يثاب على تركه، ولا يعاقب على فعله.

هـ- **المباح:** ما لا يثاب على فعله، ولا يعاقب على تركه أو ما ليس في فعله ثواب أو عقاب، ولا في تركه ثواب أو عقاب. وهذا ما يتعلق بالطلب والإباحة، وأما الوضع فهو عبارة عن نصب الشارع أمارة على حكم من تلك الأحكام الخمسة^(٣). وتفصيل الكلام فيه في فن أصول الفقه.

(١) ينظر إتمام النصيحة لمريد العقيدة الصحيحة: ص ١٠.

(٢) أصول الفقه لمحمد أبو زهرة: ص ٧، وأصول الفقه لعبد الوهاب خلاف: ص ١٠.

(٣) ينظر شرح المقاصد النووية: ص ١٣.

والحكم العادي: هو إثبات الربط بين أمر وأمر وجوداً وعدمًا، بواسطة التكرار مع صحة التخلف، وعدم تأثير أحدهما في الآخر البتة^(١). وأقسامه أربعة:

- أ- ربط وجود بوجود، كوجود الشبع بوجود الأكل.
 - ب- ربط عدم بعدم، كربط عدم الشبع بعدم الأكل.
 - ج- ربط وجود بعدم، كربط وجود الجوع بعدم الأكل.
 - د- ربط عدم بوجود، كربط عدم الجوع بوجود الأكل.
- وقل مثل ذلك في العلاقة بين النار والإحراق، وبين الشفاء والتداوي، وبين الري وشرب الماء، والستر والوقاية عند لبس الثوب، وغير ذلك. وفيه أربعة مذاهب:

أولاً: مذهب الطبيعيين

يقول هؤلاء: إن الإحراق من طبيعة النار، كما أن الإرواء من طبيعة الماء، والإشباع من طبيعة الطعام، وكذلك سائر العقاقير التي توصف لبعض الأمراض، فإنها تفيد بطبيعتها بدون مؤثر، وإن من يعتقد هذا المذهب كافر بإجماع المسلمين.

ثانياً: مذهب العقلين

يقول أصحاب هذا المذهب: إن المسببات الحاصلة عن أسبابها والآثار الناتجة عن الأشياء، إنما هو بخلق الله وقدرته، ولكن بين النار والإحراق مثلاً، أو بين الماء والإرواء، ملازمة عقلية لا يمكن انفكاكها، ومعتقد هذا فاسق وربما جره اعتقاده إلى الكفر، كأن ينكر معجزات الأنبياء، والأخبار الواردة عن طريق القرآن والشرع، من إرجاع هذا الجسم من ذراته

(١) ينظر أصول الدين الإسلامي: ص ٧٨.

المتفرقة، وطى السموات، وتبدل الأرض ودنو الشمس من رؤوس الخلائق وغير ذلك مما يكون إنكاره كفراً.

ثالثاً: مذهب المعتزلة^(١)

يرى المعتزلة أن الملازمة بين هذه الأسباب ومسبباتها هي ملازمة عادية، وهذه التأثيرات الحاصلة من هذه المؤثرات بقوة جعلها الله بها، ومعتمد هذا المذهب مبتدع، وقد قال صاحب الزيد:

ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفرٌ عند أهل الملة

(وهو قول الفلاسفة)

ومن يقل بقوة مودعة فذاك بدعي فلا تلقى^(٢)

وهذا الاعتقاد معلول حيث إن الأول يعتقد التأثير الذاتي مطلقاً في التفصيل والإجمال، والثاني علته أنه أضاف الإجمال إلى الله تعالى والتفصيل إلى الأسباب فأقام بذلك خالقين وهذا كفر، وسيأتي مزيد تفصيل في هذا.

رابعاً: مذهب أهل السنة والجماعة

يعتقد أهل السنة - حشرنا الله في زمريهم - أن بين هذه الأسباب ومسبباتها ملازمة عادية يخلقها الله - إن شاء - عندها، (أي عند اقتران السبب بالمسبب) لا بها، ويخرق الله هذه العادات متى شاء، كما في معجزات

(١) المعتزلة: هم أتباع واصل بن عطاء (ت ١٣١هـ) كان شيخ المعتزلة ورئيسهم، وهو أول من لقب بالمعتزلي وكان تلميذاً للإمام الحسن البصري فلما خالفه في رأيه في مرتكب الكبيرة اعتزل شيخه البصري إلى سارية من سوارى المسجد في البصرة الذي كان يدرس فيه فلقب حينذاك بالمعتزلي. وأصول الدين عند المعتزلة خمسة أمور هي: التوحيد، والعدل، والوعد، والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ينظر مقالات الإسلاميين: ج ١/ص ٢١٦، والفرق بين الفرق: ص ٧٨، وطبقات المعتزلة: ص ٣٠٢، وشرح الأصول الخمسة: ص ١٢٢، وتاريخ الفرق الإسلامية: ص ٧٣.

(٢) ينظر إتمام النصيحة لمريد العقيدة الصحيحة: ص ١٢.

الأنبياء، أو كرامات الأولياء والصالحين، فالنار ملازمة للإحراق ملازمة عادية، بمعنى أنه يمكن خرق هذه الملازمة فتكون النار برداً وسلاماً كما فعل بسيدنا إبراهيم عليه السلام، وهكذا في كل الأمور وإن من يعتقد هذا المذهب فهو المحقق لإيمانه.

والفرق بين مذهب أهل السنة ومذهب المعتزلة: أن المعتزلة أثبتوا الغنى للحوادث بما أودع فيها من قوى، أما أهل السنة فلم يثبتوا الغنى إلا لله عز وجل، أما شأن الحوادث جميعها فهو دوام الافتقار والحاجة إلى مدد الله عز وجل في كل آن، بل إن وجودها مسلوبٌ عنها حتى يمدّها الله تبارك وتعالى بصفة الوجود، يقول ابن عطاء السكندري رحمه الله تعالى في حكمه: [نعمتان ما خرج عنهما موجود، نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد]^(١).

ثم إن هذا الخطأ قد جرَّ المعتزلة إلى القول بأن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية بقدرة خلقها الله تعالى فيه^(٢)، والصحيح عدم كفرهم بذلك، لأنهم لم يجعلوا خالقية العبد كخالقية الله تعالى حيث جعلوا العبد مفتقراً إلى الأسباب والوسائط بخلافه تعالى^(٣).

والحق الذي يصار إليه أن جريان الأسباب في المسببات بطريق السريان من خلال التجلي والشهود من دورة الأسماء والصفات في مقاماتها التي تستمد منها الخلائق بقانون الإبداء والإعادة وهو يبدي ويعيد وهو الغفور الودود.

من هنا يتبين أن علمنا - عن طريق الحكم العادي - بالنتائج والآثار المترتبة على مقدماتها، نابع من تكرار اقتران أمرين على الحس. وإنما يتلقى العلم بفاعل هذه الآثار المقارنة لهذه الأشياء من دليلي النقل والعقل، وقد أطبق الشرع والعقل على انفراد المولى عز وجل باختراع وخلق جميع

(١) الحكم العطائية والمناجاة الإلهية لتاج الدين ابن عطاء الله السكندري (ت ٧٠٩هـ) صحيحها وعلق عليها حسن السماحي سويدان: ص ٢٩، ط ١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

(٢) ينظر الفرق بين الفرق: ص ٩٤، تهذيب الكلام: ج ٢ ص ١٧٨، والفصل مع الملل والنحل: ج ٣ ص ٣٣، والاقتصاد في الاعتقاد: ص ٣٧.

(٣) ينظر مفتاح الجنة: ص ١٧٥.

الكائنات عموماً^(١).

قال تعالى: {ذالكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدونه}^(٢)، وقوله سبحانه: {قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار}^(٣)، وقوله جل جلاله: {وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين}^(٤).

قال الإمام البيهقي رحمه الله: [نفى الله أن يكون خالق غيره، ونفى أن يكون شيء سواه غير مخلوق، ولو كانت الأفعال غير مخلوقة له سبحانه لكان خالقاً لبعضها لا لكل شيء]^(٥).

وانظر في قول حضرة النبي الأكرم ﷺ: (فكل ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود)^(٦) قال العلامة ابن أبي جمرة رحمه الله: [هنا دليل لمذهب أهل السنة الذين يقولون: إن النار لا تحرق بذاتها، وإنما الحرق خلق من خلق الله تعالى يصيب به من يشاء، إذ لو كانت تحرق بذاتها لاحتترقت مواضع السجود، كما تحرق سائر الجسد، فبان تبعض حرقها أن ذلك ليس بمجرد جوهرها، بل بحسب ما يخلق عندها، وقد جاء في الحديث: (وحرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود). وقوله ﷺ: (حرّم) إخبار عن منع الله الحرق أن يصل إلى تلك الأعضاء بالقدرة، فالذي أذن لها أن تحرقه، تحرقه، وما حرّمه عليها لا تعتدي عليه^(٧). وبعبارة أدق: هو إخبار عن فصل العلاقة المعتادة بين النار والإحراق، تحت سطوة الأمر الإلهي والإرادة الربانية.

(١) ينظر شرح جوهرة التوحيد: ج ١ ص ١٦٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٠٢.

(٣) سورة الرعد: الآية ١٦.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٥٩.

(٥) الاعتقاد للبيهقي: ص ١٤٢.

(٦) صحيح البخاري: رقم الحديث (٧٧٣).

(٧) ينظر بهجة النفوس: ج ٢ ص ٣١.

والحكم العقلي: هو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه من غير توقف على تكراره أو وضع واضح^(١).

وينقسم على ثلاثة أقسام: واجب ومستحيل وجائز. وقدم الواجب لشرفه، وثني بالمستحيل لأنه ضده يفهم منه، وأخر الجائز لأنه مركب منهما، والمركب متأخر عن البسيط. وكل من هذه الثلاثة ينقسم على قسمين: ضروري (بدهي) ونظري.

فالواجب: هو كل أمر - من ذات أو صفة أو نسبة - ثابت لا يقبل الانتقاء في ذاته، أو هو ما لا يتصور في العقل عدمه. وهو قسمان: بدهي: كوجوب الزوجية للعدد (٤). ونظري: كصفاته تعالى.

والمستحيل: هو كل أمر - من ذات أو صفة أو نسبة - لا يقبل الثبوت في ذاته فلا يمكن وجوده، ولا يتصور حدوثه مطلقاً، أو هو الذي لا يتصور في العقل وجوده. وهو قسمان: بدهي: كتقدم الابن على أبيه في الوجود. ونظري: كإثبات الشريك لله.

والممكن: (الجائز) هو كل أمر قابل في حد ذاته للانتقاء والثبوت على التعاقب أي: يمكن وجوده إذا وجد السبب الذي يرجح وجوده، وهو ما يصح في العقل وجوده وعدمه، وهما قسمان: بدهي: كوجودك الآن في هذه الغرفة. ونظري: كوجود الجنة الآن. وكتعذيب المطيع، وإثابة العاصي، لأن الكلام في الإمكان العقلي فلا ينافي أن ذلك ممتنع شرعاً^(٢).

قال إمام الحرمين الجويني: [إن معرفة هذه الأحكام هي العقل]^(٣).

(١) ينظر الباجوري على السنوسية: ص ١٤، والمعتمد المنتقد: ص ١٥.

(٢) ينظر شرح جوهرية التوحيد: ج ١ ص ١٦٧، أصول الدين الإسلامي: ص ٧٨.

(٣) إتمام النصيحة لمريد العقيدة الصحيحة: ص ١٧.

المبحث الثالث: الإيمان والإسلام والإحسان

الإيمان: هو التصديق الجازم، بما عُلِمَ - ضرورة - مجيء الرسول ﷺ به من عند الله تعالى، سواء في ذلك: الإلهيات أو النبويات أو السمعيات. فالإلهيات: ما تعلق بالله تعالى من الواجب والجائز والمستحيل. والنبوات: ما تعلق برسول الله تعالى من الواجب والجائز والمستحيل. أما السمعيات: ما أخبر به النبي المصطفى ﷺ - وهو الصادق المصدوق - عند الله عز وجل^(١).

ومعنى الإسلام لغة: مطلق الامتثال والانقياد.

وشرعاً: الامتثال والانقياد لما جاء به حضرة النبي ﷺ مما علم من الدين بالضرورة، والمراد بالامتثال: الإقرار اللساني بجميع ما جاء به حضرة النبي ﷺ الشامل لثبوت الوجدانية لله تعالى، والرسالة لسيدنا محمد ﷺ، وغير ذلك من الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة^(٢).

فالنطق دليل على الإسلام والإيمان، والعمل كمالهما، قال حجة الإسلام الغزالي: [الحق أن الإيمان عبارة عن التصديق، وأن الإسلام عبارة عن التسليم، والاستسلام بالإذعان والانقياد وترك التمرد والإباء والعناد. وللتصديق محل خاص وهو القلب واللسان ترجمانه، وأما التسليم فإنه عام في القلب واللسان والجوارح، فموجب اللغة يكون الإسلام أعم من الإيمان، ويكون الإيمان عبارة عن أشرف أجزاء الإسلام.

(١) شرح المقاصد النورية: ص ١٨.

(٢) التعريفات للجرجاني: ص ٩٤.

(٣) شرح المقاصد النورية: ص ١٨.

(٤) التعريفات للجرجاني: ص ٩٤.

وأما إطلاق الشرع لهما فالحق أنهما قد وردا:

أولاً: على سبيل الترادف والتوارد بأن جعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعاً، فإن كل ذلك تسليم، كذا الإيمان بعد تعميمه بإدخال الظاهر في معناه، وهو جائز لغة، لأن تسليم الظاهر في القول والعمل ثمرة تصديق الباطن ونتيجته، ودليل هذا الاستعمال قوله تعالى: {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} ^(١). ولم يكن باتفاق إلا بيت واحد، وقال سبحانه: {يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين} ^(٢).

ثانياً: وردا على سبيل الاختلاف بأن جعل الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط، والإسلام عبارة عن التسليم ظاهراً، ودليل هذا الاستعمال الثاني قوله تعالى: {قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا} ^(٣). ومعناه: استسلمنا في الظاهر، فأراد بالإيمان - ههنا - التصديق بالقلب فقط، وبالإسلام: الاستسلام ظاهراً باللسان والجوارح.

ثالثاً: وردا على سبيل التداخل، بأن جعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والعمل جميعاً، والإيمان عبارة عن بعض ما دخل في الإسلام، وهو التصديق بالقلب، وهو الذي عيناه بالتداخل، ودليل هذا الاستعمال: ما روي أنه ﷺ سئل أي الأعمال أفضل؟ فقال ﷺ (الإيمان) ^(٤)، وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل، وهو أوفق الاستعمالات في اللغة لأن الإيمان عمل من الأعمال، وهو أفضلها، والإسلام هو تسليم، إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح، وأفضلها الذي هو في القلب، وهو التصديق الذي يسمى إيماناً.

(١) سورة الذاريات: الآية ٣٥-٣٦.

(٢) سورة يونس: الآية ٨٤.

(٣) سورة الحجرات: الآية ١٤.

(٤) صحيح الإمام مسلم: ج ١ ص ٨٩، رقم الحديث (٨٤) وصحيح الإمام البخاري معلقاً: ج ٦

ص ٢٧٤٦ رقم (٧١١٦).

قال البغوي الشافعي في حديث سؤال جبريل رسول الله ﷺ عن الإيمان والإسلام: جعل النبي ﷺ الإسلام إسمًا لما ظهر من الأعمال، وجعل الإيمان اسمًا لما بطن من الاعتقاد^(١).

وعموماً فقد دل الاستقراء لاستعمال كلمتي الإسلام والإيمان أنهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا^(٢)، ومعنى ذلك: أن الإيمان والإسلام إذا اجتمعا في سياق واحد كان الإيمان سمي الأعمال القلبية والإسلام وظيفة البدن، أما إذا افترقا بأن لم يذكر إلا أحدهما فالإيمان هنا يسمى عمل القلب مع مقدماته وهو الإسلام، فكل مؤمن مسلم وليس العكس.

وعلى هذا فالإسلام والإيمان: متغايران بحسب المفهوم، وأما بحسب المحل: أي الشخص المتصف بهما فهما متحدان من حيث المنطوق.

فكل شخص اتصف بالإيمان، فهو متصف بالإسلام كما دل على ذلك قوله تعالى: {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين* فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين}^(٣). وهذا إنما هو في الإسلام والإيمان الكاملين المتجيين شرعاً. وأما الإيمان والإسلام غير الكاملين، فهما مختلفان محلاً أيضاً، فينفرد كل منهما عن الآخر كما دل على ذلك قوله تعالى: {قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم}^(٤).

ومعنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله، وهي أول ما يدخل به العبد في دين الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا إلى الجنة والنعيم المقيم، كما في حديث: (من كان آخر كلامه في الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة)^(٥). فهي

(١) شرح الإمام النووي على مسلم: ج ١ ص ١٤٥.

(٢) إحياء علوم الدين: ج ١ ص ١١٥.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٣٥، ٣٦.

(٤) سورة الحجرات: الآية ١٤.

(٥) رواه أبو داود في سننه (٢٧٠٩) والإمام أحمد في مسنده (٢١١١٠).

أول واجب وآخر واجب، فمن قالها موقناً بها ومات مصراً عليها سَعد بدخول الجنة كما في الحديث، ومن استكبر عنها جحوداً أو إشراكاً دخل النار وبئس المصير. قال تعالى: {إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} (١).

ولابد لنا أن نعلم أن المكلف إذا أكرمه الباري جل جلاله وعم نواله بنعمة الإيمان فليشهد أن ذلك محض منة وفضل منه سبحانه، ولا ينبغي أن يتوقف عند مجرد الامتثال والانقياد الظاهر لأعمال الإسلام، حتى يقبل على إيقاعها على وجه الحب والصدق والإخلاص والمراقبة لله تعالى، وحينئذ يكون قد جاء بأركان الدين الثلاثة وهي الإسلام والإيمان والإحسان، لحديث سيدنا جبريل عليه السلام، عن سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه قال: [بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. فقال صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه (٢)، فإن لم تكن تراه فإنه يراك (٣). قال:

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٢) أي تتخلق بأخلاق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه متخلق بأخلاق مولاه وهو الصورة الخلقية لمولاه، هذا مقام استجلاء نظرة النبي صلى الله عليه وسلم.

(٣) فإن لم تكن ترى، أي كنت فانياً عن نفسك تكن ممن سبقت لهم العناية. هذا مقام ظهور نظرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم "فاعلموا أن فيكم رسول الله" أي فإن فنت نفسك بسابق العناية فقد حظيت بالرعاية فالنظرة السابقة التي تشرق شمسها فيك يا عبدالله.

فأخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: أن تلد الأمة رببتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان، ثم انطلق فلبثت ملياً، ثم قال: يا عمر، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم^(١).

ومن تأمل هذا الحديث الشريف علم أن جميع العلوم والمعارف ترجع إليه وتدخل تحته، وأن جميع العلماء من فرق هذه الأمة لا تخرج علومهم التي يتكلمون فيها عن هذا الحديث وما دل عليه مجملاً ومفصلاً، فإن الفقهاء إنما يتكلمون في العبادات التي هي من جملة خصال الإسلام، ويضيفون إلى ذلك الكلام في أحكام الأموال والأبضاع والدماء، وكل ذلك من علم الإسلام، ويبقى كثير من علم الإسلام من الآداب والأخلاق وغير ذلك لا يتكلم عليه إلا القليل منهم، ولا يتكلمون على معنى الشهادتين وهما أصل الإسلام كله والذين يتكلمون على أصول الديانات يتكلمون على الشهادتين وعلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر، والذين يتكلمون على علم المعارف والمعاملات يتكلمون على مقام الإحسان وعلى الأعمال الباطنة التي تدخل في الإيمان أيضاً كالخشية والمحبة والتوكل والرضا والصبر ونحو ذلك^(٢).

وبعبارة فقد اصطلح علماء الأمة على تسمية علوم الشريعة بأسماء ستة: التفسير، والحديث، وأصول الدين، وأصول الفقه، والتزكية الروحية، فالمعتنون بالقسم الأول يسمون بالمفسرين، والمعتنون بالقسم الثاني يسمون بالمحدثين، والمعتنون بالقسم الثالث يسمون بالمتكلمين، والمعتنون بالقسم الرابع يسمون بالأصوليين، والمعتنون بالقسم الخامس يسمون بالفقهاء،

(١) متفق عليه، صحيح الإمام مسلم: ج ١ ص ٣٧ كتاب الإيمان رقم (٨) باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان.

(٢) ينظر جامع العلوم والحكم: ص ٣٦، ٣٧.

والمعتنون بالقسم السادس يسمون بأصحاب التزكية الروحية^(١).

والإحسان: أعلى مراتب الإيمان، وهو: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإن يراك، وهو مقام عظيم لا يتسنى لأي كان. فأولاه: مراعاة الأدب في العبادة على اختلاف أنواعها وتباين حدودها.

وآخره: أن تعبد الله كأنك تراه: بأن تضمحل عنك الشهوات المادية، وتنفى عن المرادات، حتى تصير عبداً صرفاً لله تعالى، لا هوى لك ولا إرادة. **وشروط الإحسان:** المتابعة، وأركانه: الاعتصام بالشرعية الغراء وطلب العلم النافع والجهاد في سبيل الله والعمل الصالح^(٢). وفروعه: الصبر على الطاعة، والتسليم لرب العالمين رب السموات والأرضيين.

وثمرته: محبة الله تعالى، ومحبة رسوله ﷺ ومحبة آله وصحبه الكرام، ومحبة خلق الله أجمعين، والتحقق التام بذكره تعالى وعدم الغفلة عنه سبحانه. فالتزكية الروحية والتربية القلبية هي لب الإسلام وروحه وقلبه النابض^(٣)، والعلماء العاملون والمشايخ المربون من المرشدين العارفين هم الذين يأخذون بأيدي الناس إلى بلوغ مقام الإحسان، والارتقاء بهم من حضيض المادية وأدرانها والسمو بهم إلى عالم الصفاء والטהر والمعرفة الحقة.

فالذي يقول بأن أصحاب التزكية الروحية دسيسة يهودية وأمشاج مجوسية جاهل بحقيقة عمل الروح الإسلامي وبحقيقة التربية الروحية بل جاهل بحقيقة الدين، بل هو مخالف الإجماع، لتتقيصه علماء من علوم الشريعة، وجعله دسيسة يهودية وأخلاقاً مجوسية^(٤).

(١) مفتاح الجنة: ص ٢٤٣.

(٢) ينظر معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي: ص ٢٠-٢٥.

(٣) ينظر حقائق من التصوف: ص ١٥٠-١٦٠.

(٤) ينظر مفتاح الجنة: ص ٢٤٤.

هذا مع مراعاة عدم التسليم لكل من ادعى الانتساب إلى طريق القوم، فقد دخل هذا العلم من الأدعياء ما دخل سائر الأعمال والفنون، والضابط في صحة الدعوى إنما هو الاعتصام بكتاب الله تعالى وسنة رسوله المصطفى ﷺ، وفي هذا يقول إمام الحنابلة ومفتي الشافعية في بغداد حضرة الشيخ عبدالقادر الجيلاني الحسني الحسيني رحمه الله ورضي عنه: [كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، طرّ إلى الله عز وجل بجناحي الكتاب والسنة، أدخل عليه ويدك في يد الرسول ﷺ] (١).

ويقول سهل التستري رحمه الله تعالى: [أصولنا سبعة أشياء، التمسك بكتاب الله تعالى والافتداء بسنة رسوله ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق] (٢).

ويقول حضرة الشيخ مصطفى بن أبي بكر الهرشمي ﷺ: [طريقتنا طريقة محمدية، تقوم على الاعتصام بالكتاب والسنة] (٣). وبين ذلك بالتفصيل ولده وتلميذه الأمين الوفي المخلص حضرة الشيخ الدكتور عبدالله مصطفى رحمه الله ورضي عنه في كتابه المبارك معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي حيث أثبت أن التربية الروحية والتزكية القلبية أركانها الاعتصام بالشريعة الغراء، وطلب العلم النافع وتدرسه ونشره، والجهاد في سبيل الله بكل أنواعه وضروبه، والعمل الصالح بأنواعه كافة (٤).

ويقول الإمام النووي رحمه الله: [أصول طريق التزكية خمسة:

تقوى الله في السر والعلانية.

واتباع السنة في الأقوال والأفعال.

(١) الفتح الرباني للشيخ عبدالقادر الكيلاني: ص ٢٩.

(٢) طبقات الصوفية للسلمي: ص ٢١٠، وحقائق عن التصوف للشيخ عبدالقادر عيسى: ص ٤٧٣-٤٩٣.

(٣) الطريقة المحمدية: ص ١٠.

(٤) ينظر معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي: ص ٣٠-٤٠.

والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.

والرضا عن الله تعالى في القليل والكثير.

والرجوع إلى الله تعالى في السراء والضراء.

فتحقيق التقوى: بالورع والاستقامة، وتحقيق إتباع السنة بالتحفظ وحسن الخلق، وتحقيق الإعراض عن الخلق بالصبر والتوكل على الله تعالى، وتحقيق الرضا عن الله تعالى بالقناعة والتفويض، وتحقيق الرجوع إلى الله تعالى: بالشكر له في السراء والالتجاء إليه في الضراء^(١).

وعلم الباطن أو علم التزكية من أجل العلوم قدرأ، وأعظمها محلاً وفخراً، وأسناها شمساً وبدراً. لأن التزكية توصلك إلى مقام الإحسان، قال الإمام الطيبي: [لا ينبغي للعالم، ولو تبحر في العلم حتى صار واحد زمانه، أن يقنع بما علمه، وإنما الواجب عليه أن يسعى بالاجتماع بأهل القلوب، ليدلوه على طريق الاستقامة، حتى يستعد للاقتباس من مشكاة النبوة، ولا يتيسر ذلك إلا بصحبة الصالحين، الذين سبروا هذا الفن ووقفوا على غوره. ليتلقف منهم كيفية علاج أمراض النفوس وتطهيرها من النجاسة المعنوية، التي غرق فيها العالم من أقصاه إلى أقصاه. ليخرج من رعونات نفسه الأمارة بالسوء، ودسائسها الخفية]^(٢).

ولابد لسالك طريق الآخرة من الجمع بين الشريعة والحقيقة، وذلك لأن الشريعة بلا حقيقة عاطلة، وأن الحقيقة بلا شريعة باطلة، قال الإمام مالك رحمه الله: [من تشرع ولم يتحقق، فقد فسق، ومن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق]^(٣).

(١) شرح المقاصد النووية: ص ١٦٥.

(٢) شرح المقاصد النووية: ص ١٦٨.

(٣) حقائق عن التصوف: ص ٧٠.

وعلى الجملة إن الشريعة اتباعك أوامره وهو الإسلام والإيمان، والحقيقة هي إقامتك بأمره كأنك تراه وهو يراك، وهو مقام الإحسان، وإن شئت قلت: الشريعة علم، ومعلومها الطريقة وهي العمل، وثمرتها الوصول إلى الله تعالى. وهو الحقيقة. وليس الوصول بسعي الأقدام ولا بقرب المسافة وبعدها، وإنما سعيك إليه بتوفيقه، وسعيه إليك برحمته، علم ذلك من علمه وجهله من جهله، وتحت هذا علم وفيّ وسر خفيّ، والناس في أضغاث أحلام جاهلون.

ومن أدلة السنة النبوية على أهمية علم يُعرف به أحوال النفس، ودخائلها: محمودها ومذمومها، وكيفية تطهيرها من المذموم، وتحليلتها بالمحمود، وكيفية الوصول إلى ذلك مع الفرار إلى الله تعالى، ومعرفة الرب ذوقاً ووجداناً، والفوز برضائه سبحانه ونيل السعادة الأبدية، وكيفية تهذيب القلب، وصفائه من الأغيار، وامتلائه بالأنوار حديث الصحابي الجليل حارثة الأنصاري رضي الله عنه، حيث أن موقفه من حضرة النبي صلى الله عليه وآله يكشف لنا عن بعض هذه المعاني الجليلة التي أشرنا إليها، عندما قال له النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: كيف أصبحت يا حارثة؟.

قال حارثة: أصبحت مؤمناً بالله حقاً. فقال له عليه الصلاة والسلام: فانظر ما تقول، فإنّ لكل قول حقيقة، فما حقيقة ما تقول؟ فقال حارثة: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أرى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها.

فقال عليه الصلاة والسلام: عرفت فالزم، عبدّ نور الله قلبه، وفي رواية: [من سره أن ينظر إلى من نور الله قلبه، فلينظر إلى حارثة بن مالك]^(١).

(١) أخرجه الطبراني والبخاري وغيرهما. وينظر كتاب سمير المؤمنين للشيخ محمد الحجار مفصلاً واضحاً.

هذه هي الحقيقة التي حملها حارثة بن مالك ﷺ وتذوقها، فهي ثمرة من ثمرات التقوى التي نبعث من معين صاف، ألا وهو القلب السليم، قال تعالى: {يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم} (١).

وكان الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل - رضي الله عنهما - يترددان إلى مجالس أهل القلوب والأرواح الزاكية المزكية ويحضران في مجلس ذكرهم ومذاكرتهم فقبل لهما: مالكما تترددان إلى مثل هؤلاء الجهال؟ فقالا: إن هؤلاء عندهم رأس الأمر كله قال تعالى {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} (٢).

فعمل الروح في الإسلام هو تقوى الله ومحبة ومعرفة. وكان الإمام أحمد بن حنبل ﷺ يقول لولده عبدالله: يا ولدي عليك بالحديث - أي علم الحديث الشريف - وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية، فإنه ربما كان أحدهم جاهلاً بأحكام دينه. فلما صحب أبا حمزة البغدادي، وعرف أحوال القوم، ووقف على حقيقتهم، كان يقول رحمه الله لولده عبدالله: عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم، والمراقبة لله تعالى، والخشية منه، والزهد في الدنيا، وعلو الهمة (٣).

قال الإمام النووي رحمه الله: وأصول ذلك كله: علو الهمة، وحفظ الحرمة، وحسن الخدمة، ونفوذ العزيمة، وتعظيم النعمة. فمن علت همته، ارتفعت رتبته، ومن حفظ حرمة الله، حفظ الله حرمة، ومن حسنت خدمته، وجبت كرامته، ومن نفذت عزمته، دامت هدايته، ومن عظم النعمة، شكرها، ومن شكرها، استوجب المزيد (٤).

(١) سورة الشعراء : الآية ٨٨-٨٩.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١٩. والقصة ذكرها الشيخ محمد الحجار في شرحه للمقاصد النووية: ص ١٦٨.

(٣) ينظر الحب الخالد للشيخ محمد الحجار وقد ذكر آراء العلماء في هذا بالتفصيل ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وجزاءه عن المسلمين خير الجزاء.

(٤) قال تعالى: {وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم}. سورة إبراهيم: الآية ٧.

فالأصل الاعتصام بالشرعية الغراء، فمثل الشرعية كالسفينة في أنها سبب للوصول إلى المقصد، والنجاة من الهلاك. وطريق التزكية: مثل البحر فيه الدرُّ والياقوت في أنها محل المقصود، ولا يوصل لذلك البحر العميق إلا بسفينة النجاة ألا وهي الشرعية المحمدية المطهرة. فالشرعية شجرة والتقوى أغصانها والحقيقة ثمارها.

وقال الإمام الجنيد البغدادي رحمه الله: الصوفي كالأرض، يُطرح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مريح، فهو كالأرض، يطوُّها البرُّ والفاجر، والعاصي والطائع، والمسلم والكافر. ونعتُ الفقير: السكون عند العدم، والبذل والإيثار عند الوجود^(١).

وحكي عن بعض الصالحين أنه قال: نزل عندي أضياف كرام. فقلت لهم: أوصوني بوصية بالغة.

قالوا: نوصيك بستة أشياء:

١. أولها: من كثر نومه، فلا يطمع في رقة قلبه.
 ٢. ثانيها: من كثر أكله، فلا يطمع في قيام الليل.
 ٣. ثالثها: ومن اختار صحبة ظالم، فلا يطمع في استقامة دينه.
 ٤. رابعها: ومن كان الكذب عادته، فلا يطمع في أن يخرج من الدنيا مع الإيمان.
 ٥. خامسها: من كثر اختلاطه بالناس، فلا يطمع في حلوة العبادة.
 ٦. سادسها: من طلب رضا الناس، فلا يطمع في رضا الله تعالى.
- وقال الإمام النووي رحمه الله: وأصول العلامات خمسة: طلب العلم للقيام بالأمر، وصحبة المشايخ والإخوان للتبصر، وترك الرخص والتأويلات

(١) ينظر حقائق عن التصوف: ص ١١٢.

للتحفظ، وضبط الأوقات بالأوراد للحضور، واتهام النفس في كل شيء للخروج من الهوى، والسلامة من العطب.

فطلب العلم: آفته صحبة الأحداث سناً وعقلاً وديناً مما لا يرجع إلى أصل ولا قاعدة. وآفة الصحبة: الاغترار والفضول. وآفة ترك الرخص والتأويلات: الشفقة على النفس. وآفة اتهام النفس: الأئس بحسن أحوالها واستقامتها، وقد قال تعالى: {وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها} ^(١).

وأصول ما تداوى به علل النفس خمسة: تخفيف المعدة بقلّة الطعام والشراب. والالتجاء إلى الله تعالى مما يعرض عند عروضه. والفرار من مواقف ما يخشى الوقوع فيه. ودوام الاستغفار مع الصلاة على النبي ﷺ أثناء الليل وأطراف النهار باجتماع الخاطر. وصحبة من يدلك على الله تعالى حاله ^(٢).

(١) سورة الأنعام: الآية ٧٠.

(٢) ينظر شرح المقاصد النووية: ص ١٦٧.

المبحث الرابع: زيادة الإيمان وتقصانه

اختلف المتكلمون وغيرهم - رحمهم الله تعالى - في قضية زيادة الإيمان ونقصه وعدمها على قولين: الأول هو أن الإيمان يزيد وينقص، وهو مذهب جمهور أهل السنة^(١)، ومنهم الأشاعرة^(٢)، وأهل الحديث^(٣)، ومذهب الحسن البصري^(٤)، والإمام الشافعي^(٥)، والمعتزلة^(٦)، بل هو قول سيدنا عمر^(٧)، وابنه عبدالله رضي الله عنهما^(٨)، وأبي الدرداء وابن مسعود وغيرهم^(٩).

وذكر الحافظ ابن حجر - رحمه الله - أن هذا القول هو مذهب السلف نقلاً عما صرح به عبدالرزاق في مصنفه عن سفيان الثوري ومالك بن أنس

- (١) شرح صحيح مسلم للنووي: ج ١ ص ٢٦١ وما بعدها، وتنوير القلوب في معاملة علام الغيوب للعلامة الأربلي: ص ٨٣.
- (٢) شرح النسفية للفتازاني مع حاشية رمضان أفندي: ص ٢٦٢، وأصول الدين للبغدادى: ص ٢٥٢، والمسابير: ص ٣٥٢، وشرح جوهرة التوحيد: ص ٦٥، والنظام الفريد: ص ٦١، والوسيلة للشيخ عبدالكريم المدرس: ص ٤٨، وينظر شرح المقاصد للفتازاني: ج ٥ ص ٢١٠ و٢١١، والكوكب الأزهر: ص ١٢٤.
- (٣) جوهرة التوحيد: ص ٦٥، والنظام الفريد للعلامة محمد محي الدين عبدالحميد: ص ٦١.
- (٤) الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة للحافظ البيهقي: ص ١٠٠.
- (٥) الاعتقاد للبيهقي: ص ٩٥، وفتح الباري لابن حجر: ج ١ ص ٤٧، وحلية الأولياء: ج ٩ ص ١١٥، والنظام الفريد: ص ٦١.
- (٦) أصول الدين للبغدادى: ص ٢٥٢، والنظام الفريد: ص ٦٢، والوسيلة في شرح الفضيلة: ص ٤٨.
- (٧) شرح العقيدة الطحاوية للقاضي علي بن أبي العز الدمشقي: ج ٢ ص ٤٨١.
- (٨) تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب: ص ٨٣.
- (٩) شرح العقيدة الطحاوية: ج ٢ ص ٤٨٠، وفتح الباري: ج ١ ص ٤٨، وشرح النووي على صحيح مسلم: ج ١ ص ٢٦١.

والأوزاعي وابن جريج ومعر وغيرهم، وهؤلاء هم فقهاء الأمصار في عصرهم. وذكر أيضاً أن أبا القاسم اللالكائي نقل في كتاب السنة هذا القول عن الشافعي وأحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه وأبي عبيد وغيرهم من الأئمة، وروى بسنده الصحيح عن البخاري أنه قال: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص. وحكاه فضيل بن عياض ووکیع عن أهل السنة والجماعة، وقال الإمام الشافعي: [الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص] ^(١).

قال د. تائر الشمري ^(٢): وقد ذكر الأصفهاني في حلية الأولياء عن الربيع بن سليمان قول الشافعي - رحمه الله - : الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية ^(٣). وذكر أيضاً نحو هذا عن مسعد ابن كدام رحمته الله حيث كان يقول: الإيمان يزيد وينقص ^(٤).

وأما القول الثاني: فهو عكس القول الأول، أي: الإيمان لا يزيد ولا ينقص وهو مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان - رحمه الله - وأصحابه ^(٥). وكثير من العلماء ^(٦). واختار إمام الحرمين الجويني ^(٧). والحنفية يعنون بقولهم هذا أصل التصديق. أما الإيمان من جهات أخرى كالعمل الصالح واليقين مثلاً، فإن الحنفية ومعهم إمام الحرمين الجويني لا

(١) فتح الباري: ج ١ ص ٤٧، وينظر شرح سنن ابن ماجه للإمام السندي: ج ١ ص ٣٨.

(٢) ينظر الوسطية في العقيدة الإسلامية للدكتور تائر إبراهيم الشمري: ص ١٠٢.

(٣) حلية الأولياء: ج ٩ ص ١١٥.

(٤) المصدر نفسه: ج ٧ ص ٢١٨.

(٥) الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة: ص ٢٣، وأصول الدين: ص ٢٥٢، وشرح النسفية بحاشية رمضان: ص ٢٦٢، والمسيرة: ص ٣٢٥، والنظام الفريد: ص ٦٢، وشرح جوهرة التوحيد: ص ٦٦، شرح الفقه الأكبر للقاري: ص ٧٠، والوسيلة في شرح الفضيلة: ص ٤٨، والقول الموفي: ص ٨٠.

(٦) النظام الفريد: ص ٦٢، وينظر شرح النسفية للدكتور السعدي: ص ١٦٧، وما بعدها.

(٧) كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد للجويني: ص ٣٩٩، والنظام الفريد:

ص ٦٢، وشرح الفقه الأكبر: ص ٧٠.

يمنعون من الزيادة والنقصان فيه، بل هو عندئذ يتفاوت بتفاوت المؤمن به، لا بسبب تفاوت ذات التصديق^(١).

وقد ظهر موقف آخر للإمام الشافعي - رحمه الله - يجعل الإيمان فيه على قسمين: أصل وهو القسم الذي لا يقبل الزيادة والنقصان، وفرع تحصل فيه الزيادة والنقصان^(٢).

س: ما هو سبب تمسك الفريق الأول بقولهم:

ج: إن تمسك الفريق الأول بقولهم الإيمان يزيد وينقص راجع إلى أسباب عدة منها:

١. لتفاوت مراتب الإيمان. فإيمان المقلد غير إيمان الإمام، وكذا الإيمان الاستدلالي الذي ينقسم إلى درجات عديدة بحسب تركب البراهين من الأوليات أو البديهيات أو المقدمات اليقينية النظرية. وهناك الإيمان الشهودي الوهبي الذي أكرم الله به أنبيائه الكرام - عليهم السلام - وهناك الإيمان الكشفي الكسبي الذي خص الله تعالى به أوليائه الصالحين، وهو على درجات بحسب نصيب كل واحد منهم من الفيض القدسي^(٣).

٢. ولاتفاق الجميع على تفاوت علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين^(٤).

٣. ولأن طاعة بعض الناس أزيد من طاعات بعض، ومتى كانت الطاعة حقيقية الإيمان لزم البتة أن نصير إلى أنه يزيد وينقص^(٥). والحقيقة هذا

(١) المسابرة: ص ٣٢٧، وشرح الفقه الأكبر للقاري: ص ١١٤.

(٢) الفقه الأكبر للإمام الشافعي مع شرح الكوكب الأزهر: ص ١٢٣.

(٣) الوسيلة في شرح الفضيلة: ص ٤٨.

(٤) الوسيلة: ص ٤٨.

واليقين: هو طمأنينة القلب على حقيقة الشيء، وقيل: هو رؤية العيان، وقيل هو تحقيق التصديق بالغيب بإزالة كل شك وريب، وقيل: هو رؤية العيان بنور الإيمان، وقيل: هو العلم الحاصل بعد الشك وقيل غير ذلك، ينظر التعريفات للجرجاني: ص ٢٥٩.

(٥) النظام الفريد: ص ٦٥.

عند المعتزلة فقط لأنهم يجعلون العمل بالجوارح جزءاً من أركان الإيمان وحقيقته، في حين أن الطاعات كلها هي من كمال الإيمان لا من أصله، وهذا أمر متفق عليه بين الأشاعرة والحنفية، لأن الكل يذهب إلى أن حقيقة الإيمان هي التصديق بالقلب.

٤. ولقول بعض المحققين كالقاضي عضد الدين - رحمه الله - [بأننا لا نسلم أن حقيقة التصديق لا تقبل الزيادة والنقصان، بل تتفاوت قوة وضعفاً، للقطع بأن تصديق آحاد الأمة ليس كتصديق النبي ﷺ - ولذا قال سيدنا إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام -: {ولكن ليطمئن قلبي} (١)] (٢). أي ليزداد قلبي طمأنينة، وإلا فأصل الطمأنينة كان حاصلًا، وعليه يظهر أن لا إيمان كإيمان النبي ﷺ وإن إيمان أبي بكر الصديق أقوى من إيمان غيره من الأمة (٣).

ومن الجدير بالذكر أن معنى زيادة الإيمان ونقصانه عند الفريق الأول وهم جمهور أهل السنة هو أن بعض أجزاء الإيمان وشعبه يكون أقوى من بعض في الجزم، كما أن الجزم بكون الواحد نصف الاثنين أقوى منه بكون العالم حادثاً (٤).

وسبب تمسك الفريق الثاني بنفي الزيادة والنقصان عن الإيمان هو:

١- لأن التصديق إذا لم يكن على وجه التحقيق يكون في مرتبة الظن والترديد، والظن لا يفيد الاعتقاد عند أرباب التأييد، لقوله تعالى: {وإن

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

(٢) شرح الفقه الأكبر للقاري: ص ١٣.

(٣) تنوير القلوب: ص ٨٣. فإيمان آحاد الأمة ليس كإيمان حضرة النبي ﷺ، ولا كإيمان الصديق أو علي المرتضى عليه السلام، والتصديق بطلوع الشمس ليس بقوة التصديق بحدوث العالم - أي إيجاداه بعد العدم.

(٤) تنوير القلوب: ص ٨٣.

الظن لا يغني من الحق شيئاً^(١). فإذا نقص شيء من التصديق صار كفراً وخرج صاحبه من دين الإسلام.

٢- ولأنه لا يتصور زيادة الإيمان إلا بنقصان الكفر، ولا يتصور نقصان الإيمان إلا بزيادة الكفر، فكيف يجوز أن يكون الشخص الواحد في حالة واحدة مؤمناً وكافراً^(٢). والله تعالى يقول: {ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه}^(٣).

أدلة الفريق الأول بجواز زيادة الإيمان ونقصانه:

اعتمد جمهور أهل السنة على أدلة عديدة من آي القرآن الكريم والسنة المباركة والآثار منها:

١- قال تعالى: {وإذا تلى عليهم آياته زادتهم إيماناً}^(٤)، وقال عز وجل: {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى}^(٥). وقوله سبحانه: {ويزداد الذين آمنوا إيماناً}^(٦). فالآيات الكريمات واضحة في دلالتها على زيادة الإيمان، وبثبوت الزيادة يثبت المقابل، فإن كل قابل للزيادة قابل للنقصان ضرورة - أي بداهة^(٧).

(١) سورة النجم: الآية ٢٨.

(٢) شرح الفقه الأكبر للقاري: ص ٧٠-٧١، وأرى هذا الكلام ضعيفاً جداً إذ لا يلزم من زيادة الإيمان وجود نقص في ضده وهو الكفر، لعدم اجتماعهما في محل واحد أصلاً. ومن كانت عنده شعبة واحدة من الكفر، كأن لا يؤمن بالبعث و الشفاعة أو الحساب مثلاً فإنه يعد كافراً لا مؤمناً حتى ولو ادعى الزيادة في إيمانه. كما لا يلزم من نقصان الإيمان وجود زيادة في الكفر كما ذكرنا، وكلامنا فيمن آمن ولم يحمل شيئاً من الكفر وشعر بزيادة إيمانه أو نقصانه.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٤.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٢.

(٥) سورة مريم: الآية ٧٦.

(٦) سورة المدثر: الآية ٣١.

(٧) فتح الباري: ج ١ ص ٤٧.

وقد اعترض السادة الأحناف - رحمهم الله تعالى - فقالوا: ليس المراد هنا في الآيات الكريكات هو ذات التصديق أو حقيقة، وإنما المعنى أن الإيمان يكتر من جهة النور والضياء^(١). أو معناه ازدادوا يقيناً^(٢). وأن الزيادة هنا باعتبار زيادة المؤمن - اسم مفعول - به. أي أن الصحابة الكرام ؓ كانوا قد آمنوا بالجملة، فكلما أتاها فرض جديد آمنوا به فازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم السابق وبذلك تأول الزيادة^(٣). أو المراد بالزيادة هو الثبات على الصراط^(٤).

مناقشة الاعتراضات: بعد التأمل العلمي والمتابعة المنصفة في هذه الاعتراضات ظهر لنا أن وجوه الاعتراضات هذه كلها ضعيفة وكما يأتي:

أ- لو كان معنى الزيادة كما ذكرتم هو زيادة نور وضياء وإشراق^(٥). فنحن نسأل: كيف يزداد الإيمان ضياء ونوراً من غير زيادة في أصله وتغير في حقيقته، لأننا نعلم يقيناً أن النور كلما كثر دل على كثرة مصدره والعكس بالعكس. فإن قيل: لا، هو مثل النار، تأخذ منها شعب عديدة وأجزاء كثيرة، فيزداد النور مع بقاء الأصل على حاله. قلنا: هذا قياس مع الفارق لأن مصدر النور الثاني ليس هو الأول، وإنما هو الجزء الثاني، مع أن جهة النار قد تعددت بينما الإيمان ثابت في محله ومكانه.

ب- ولو كان معنى الزيادة هو زيادة في يقينهم مع قولهم بتفاوت مراتب اليقين^(٦)، لقلنا: اليقين بزيادته ونقصه يتحرك في داخل دائرة الإيمان، فكلما ازداد اليقين وارتقى من علم اليقين إلى عين اليقين - مثلاً -

(١) شرح الفقه الأكبر للماتريدي: ص ١٠، وينظر المسامرة: ص ٣٢٩.

(٢) شرح الفقه الأكبر للقاري: ص ٧٠، وينظر المسامرة: ص ٣٢٩ وما بعدها.

(٣) شرح الفقه الأكبر للقاري: ص ١١٢-١١٣، وشرح الطحاوية: ج ٢ ص ٤٧٩.

(٤) تأويلات أهل السنة للماتريدي: ص ٢٧.

(٥) المسامرة: ص ٣٢٩، والنظام الفريد: ص ٦٤.

(٦) شرح الفقه الأكبر للقاري: ص ٧٠.

امتدت دائرة الإيمان واتسعت، وكلما قل اليقين ونقص تقلصت دائرة الإيمان وقلَّت، وهذا دليل ظاهر على زيادة الإيمان ونقصه، إذ من غير الممكن أن يزداد اليقين من غير أن تتسع دائرة الإيمان وتبقى على حدودها، كما لا يمكن أن يضعف اليقين مع بقاء الإيمان على امتداده السابق.

ج- ولو كان المراد بالزيادة هو الزيادة باعتبار المؤمن به. قلنا: هذا ضعيف جداً من وجهين أولهما: حتى لو كان هذا الكلام صحيحاً فهو لا يمنع حصول الزيادة فإن الزيادة بالفرض أو التشريع الجديد دلت على زيادة جديدة في الإيمان. ومن قال أن هذه الزيادة مقصورة على جيل دون جيل، أو محدودة في زمن معين دون آخر، باعتبار أن الأصل هو إمكانية وقوع الزيادة. وثانيهما: هل في قوله تعالى: {الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً} ^(١). زيادة أمر شرعي جديد حتى يزدادوا إيماناً. وهل في قوله سبحانه: {هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم} ^(٢). زيادة فرض جديد أو أمر مشروع جديد.

د- وأما تأويلهم الزيادة بالثبات على الصراط، فهو من أبعد الأشياء التي قد يتصورها خيال الإنسان، ولا يخفى على الباحث ما في هذا التأويل من تعسف كبير.

٢- وعن جندب بن عبدالله قال كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن فازددا به - أي بسببه - إيماناً ^(٣).

٣- وعن أبي هريرة وابن عباس - رضي الله عنهما - قالوا: الإيمان يزيد

(١) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

(٢) سورة الفتح: الآية ٤.

(٣) رواه ابن ماجه في باب الإيمان عن أبي عمران الجوني: ج ١ ص ٣١.

وينقص^(١). وعن أبي الدرداء قال: الإيمان يزداد وينقص^(٢).

٤- واعتمدوا أيضاً على وصف النبي ﷺ النساء بنقصان العقل والدين. حيث قال: (.... وما رأيت ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن)^(٣). ولكني أرى الاستدلال بهذا الحديث الشريف على زيادة الإيمان ونقصانه ضعيفاً^(٤). لأن الإيمان ليس هو مجموع الدين، إنما الدين ثلاثة أجزاء: الإيمان جزء، والأعمال جزآن، لأنها فرائض ونوافل^(٥).

٥- وعن معاذ بن جبل ؓ قال، قال رسول الله ﷺ: (الإيمان يزيد وينقص)^(٦). والحديث لا يحتاج إلى شرح فهو صريح الدلالة على زيادة الإيمان ونقصانه.

٦- قال الحبيب المصطفى ﷺ: (يُخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من إيمان، ويُخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من إيمان - والبرة هي القمحة - ، دون وزن الشعيرة، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من إيمان)^(٧)، والذرة هي الهباء الذي يظهر في شعاع الشمس مثل رؤوس الإبر^(٨). ويكاد يكون هذا الحديث أقوى أدلة القائلين بجواز زيادة الإيمان ونقصانه.

(١) رواه ابن ماجه في سننه، باب الإيمان: ج ١ ص ٣٨.

(٢) رواه ابن ماجه عن مجاهد في باب الإيمان: ج ١ ص ٣٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه: ج ١ ص ٤٠٥ برقم (٣٠٤)، ومسلم: برقم (٧٩) و(٨٠).

(٤) ينظر الوسطية في العقيدة الإسلامية: ص ١٠٧.

(٥) فتح الباري: ج ١ ص ١٠٣.

(٦) رواه الديلمي في الفردوس: ج ١ ص ١١١ برقم (٣٧٧).

(٧) رواه البخاري رحمه الله عن سيدنا أنس ؓ في باب زيادة الإيمان ونقصانه: ج ١ ص ١٠٣ برقم (١٠٣) وجعل البخاري هذا الباب باسم [زيادة الإيمان ونقصانه] دلالة على زيادة الإيمان ونقصانه.

(٨) الذرة: هي أقل الأشياء، وقيل هي النملة الصغيرة وقيل غير ذلك، ينظر فتح الباري: ج ١ ص ١٠٤ وللعلم الحديث تعريفاته.

قال الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد: [وهذا الحديث يكاد يكون صريح الدلالة على زيادة الإيمان وإلا لما كرر الطوائف التي تخرج من النار، ألا ترى أنه ﷺ قد جعل في قلب بعض الناس وزن ذرة، وجعل في قلب بعض آخر وزن برة من إيمان، ووزن البرة أزيد من وزن الذرة، وجعل في قلب بعض آخر وزن شعيرة من إيمان، ووزن الشعيرة أزيد في بعض البلدان من وزن البرة، فدل ذلك على تفاوت الناس في إيمانهم الذي في قلوبهم وهو التصديق] (١).

٧- وعن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قلنا: يا رسول الله الإيمان هل يزيد وينقص؟ قال: (نعم، يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخل صاحبه النار) (٢).

٨- ولو كان الإيمان لا يزيد ولا ينقص لكان إيمان آحاد الناس، مساوياً لإيمان الأنبياء، بل لكان إيمان المنهمك في الفسوق والمعصية مساوياً لإيمان الملائكة والصديقين والصالحين وهذا مما لا ينبغي أن يذهب إليه أحد (٣).

أدلة النافين لزيادة الإيمان ونقصانه:

اعتمد الحنفية ومن وافقهم على عدم زيادة الإيمان ونقصانه على ما يأتي:

١- قالوا: إن الإيمان كان يزيد في عهد الصحابة الكرام رضي الله عنهم بزيادة ما يجب الإيمان به، لا بزيادة الأعمال، فالقوم كانوا قد آمنوا في الجملة ثم يأتي فرض فكانوا يؤمنون بكل فرض خاص. وهذا هو معنى الزيادة في قوله

(١) النظام الفريد: ص ٦٣.

(٢) رواه أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره عن مالك عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، المسابرة: ص ٣٢٦.

(٣) النظام الفريد: ص ٦٢، وينظر بقية أدلتهم الكثيرة في شرح النسفية مع حاشية رمضان:

ص ٢٦٣ وما بعدها، وشرح العقيدة الطحاوية: ج ٢ ص ٤٧٩ وما بعدها، والوسيلة: ص ٤٨،

وشرح الجوهرة: ص ٦٥، وتنوير القلوب: ص ٨٣، والمسابرة: ص ٣٢٥، والكوكب الأزهر:

ص ١٢٤، وأصول الدين للبغدادي: ص ٢٥٢.

تعالى: {زادتهم إيماناً} وفي غيره. وهذه الزيادة في الإيمان لا يمكن أن تتصور في غير عصر النبي ﷺ^(١).

وللمناقشة نقول: لقد تقدم الاعتراض على هذا قبل قليل. ويضاف إليه اعتراض آخر: وهو أن الاطلاع على تفاصيل الفرائض ممكن أيضاً في غير عصر النبي ﷺ ولا خفاء في أن الإيمان التفصيلي أزيد من الإيمان الإجمالي، بل أكمل منه، والزيادة كما يمكن أن تتصور في ذلك الزمان ممكن أن تتصور في هذا الزمان أيضاً.

وتقدير النظر في هذا الدليل أنا لا نسلم أن زيادة الإيمان لا تكون إلا بزيادة ما يجب الإتيان به كما ذكرتم. ولم لا تكون زيادته بحسب كونه إجمالياً وتفصيلياً. والجواب على هذا الاعتراض: هو أننا لا نسلم أن الإيمان التفصيلي أكمل من الإيمان الإجمالي وأزيد منه، بل الإجمالي والتفصيلي على السواء، ولو كان التفصيلي أزيد لكان الإيمان ناقصاً ولم يكن إيماناً أصلاً، ولأن نقصان ذات الشيء يستلزم تغييره وتبدله^(٢).

والذي يبدو لي أن الجواب على هذا الاعتراض ضعيف جداً، لأنه يناقض قولهم في أن المراد بزيادة الإيمان في الآيات هو زيادة الإيمان في تفصيل ما أجمل الإيمان به من الفرائض. وما الدليل على أن الإيمان الناقص كفر؟

ثم ماذا تقولون في رجل مؤمن بلغ مقام الإحسان - أعلى درجات الإيمان - ثم شاء القدر وانخفض من مقامه واستمر في نزوله إلى أن وقف على وجه قوي من التحقيق والجزم. ويؤيد هذا الإمام الجنيد^(٣) ﷺ سئل ذات

(١) ينظر شرح النسفية للتفتازاني وحاشية رمضان أفندي: ص ٢٦٣.

(٢) حاشية رمضان أفندي على شرح النسفية: ص ٢٦٣.

(٣) الإمام أبو القاسم الجنيد، كان أبوه يبيع الزجاج، فكان يقال له: القواريري، نشأ بالعراق وصحب المحاسبي وسري السقطي، وسماه ابن تيمية بـ[سيد الطائفة] ولقب بتاج العارفين توفي ٢٩٧هـ، ينظر الرسالة القشيرة: ص ٢٠.

مرة: أيزني العارف؟ فقال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً^(١).

٢- وقالوا: أخبر الله تعالى لا يتصور فيه الزيادة والنقصان، لأن ما لا يتناهى لا يتزايد في ذاته فتصديقه أيضاً لا يتزايد في ذاته ولا يتناقص^(٢).

أقول: هذا الدليل ضعيف أيضاً لأنه قياس مع الفارق. إذ لا يصلح قياس الإيمان - عمل المخلوق المحدث - على كلام الله تعالى الأزلي القديم، ولا سيما وأن مشايخ الحنفية من أهل سمرقند ذهبوا إلى أن الإيمان مخلوق، على الرغم من اتفاقهم مع البخاريين على أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى. وما إيمان العبد إلا فعل قلبي من أفعاله، والله تعالى أعلم.

رأي العلامة الشعراني:

لقد حاول الإمام الشيخ عبدالوهاب الشعراني - رحمه الله - أن يجمع بين قول الجمهور في أن الإيمان يزيد وينقص وبين قول السادة الحنفية في أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص فقال: [الوجه الجامع بينهما - هو - أن يحمل قول من قال أنه لا يزيد ولا ينقص على إيمان الفطرة، ويحمل قول من قال أنه يزيد على ما بين الفطرة إلى طلوع الروح، فإن كل إنسان لا يموت إلا على ما فطر عليه]^(٣).

وهذا القول وإن كان مقبولاً من بعض الوجود، بيد أن الحنفية لا يعنون بعدم زيادة الإيمان ونقصانه غير إيمان المكلف المدرك فهم لم يفرقوا بين الفطرة وغيرها، لذا فإيمان الفطرة خارج عن محل النزاع.

(١) ينظر الوسطية في العقيدة الإسلامية: ص ١٠٩.

(٢) حاشية زين الدين قاسم الحنفي على كتاب المسامرة: ص ٣٢٦، وينظر المسامرة: ص ٣٢٧، وشرح الفقه الأكبر للماتريدي: ص ١٠، وشرح الفقه الأكبر للقياري: ص ٧٠-٧١، وشرح النسفية للسعدي: ص ١٦٨، والقول الموفي شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة للشيخ محمد ياسين عبدالله: ص ٨٠-٨١.

(٣) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر: ج ٢ ص ١٠٨.

رأي صاحب الوسطية في العقيدة الإسلامية:

بعد هذا الاطلاع العلمي المفصل على رأي الجمهور ورأي الحنفية وأدلة كل منهما، علينا قبل أن نحاول إيجاد حد وسط بين الفريقين أن نقف وقفة سريعة على معنى الإيمان عند الأشعرية وعند الحنفية. فأقول معنى الإيمان عندهما جميعاً هو التصديق القلبي فقط، وهذا ما أجمع عليه أهل اللغة كما قال الشيخ الأشعري^(١). والباقلاني^(٢)، وغيرهما^(٣). استدلالاً بقول الله تعالى إخباراً عن كلام أخوة يوسف -عليه السلام- لأبيه: إوما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادقين^(٤). والباء لاعتبار معنى الاعتراف^(٥)^(٦).

والإيمان عند المحدثين والفقهاء والمعتزلة واحد: تصديق بالجنان، وإقرار باللسان وعمل بالأركان^(٧).

تحديد سبب الخلاف:

وعندئذ يمكننا بسهولة أن نحدد سبب الاختلاف بين الجمهور والحنفية من جهة، والأشعرية والحنفية من جهة أخرى.

فأما الأول فإن من قال الأعمال جزء من حقيقة الإيمان فعنده هو الإيمان قابل للزيادة بزيادة الأعمال، وقابل للنقصان بنقصان الأعمال، لأن زيادة

(١) اللمع: ص ١٢٣.

(٢) التمهيد: ص ٣٤٦، والإنصاف: ص ٨٥.

(٣) كالخليل بن أحمد الفراهيدي في كتاب العين: ج ٨ ص ٣٨٩.

(٤) سورة يوسف: الآية ١٧.

(٥) ينظر جامع البيان للطبري: ج ١٢ ص ١٦٢، وتفسير الماوردي: ج ٢ ص ٢٥١، واللمع للأشعري: ص ١٢٣. والإنصاف: ص ٨٥، والتمهيد: ص ٣٤٦، وأصول السدين للبغدادى: ص ٢٤٧، والإرشاد للجويني: ص ٣٩٧، والكشاف: ج ٢ ص ٣٠٨، والنسفي: ج ٢ ص ٢١٤، وابن كثير: ج ٢ ص ٤٧١، وشرح العقيدة الطحاوية: ج ٢ ص ٤٧١.

(٦) ينظر الوسطية في العقيدة الإسلامية: ص ١١٠، والكبيرة والآثار المترتبة عليها عند المتكلمين: ص ١٧٤.

(٧) ينظر الكبيرة وآثارها المترتبة عليها عند المتكلمين: ص ١٦٩.

الجزء تستلزم زيادة على الكل، ونقصانه يستلزم نقصان الكل. ومن قال الإيمان هو مجرد التصديق القلبي وليست الأعمال جزءاً منه، قال الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

أما سبب الخلاف بين السادة الحنفية والسادة الأشعرية فيتضح لي في قبول التصديق الزيادة والنقصان وإمكانية ذلك. فالحنفية لا يعتقدون بأن التصديق يقبل الزيادة أو النقصان، لأنهم إن قالوا بقبوله الزيادة، قالوا بقبوله النقصان بالضرورة - البدهية - لأن كل من قبل الزيادة قبل النقصان بالمقابل لا محالة. والتصديق عند الحنفية لا يقبل النقصان لأنه لا يمكن أن يتصور قبول النقصان إلا ويصير كفرًا. لكن ممكن أن يتفاوت التصديق عند الحنفية قوة وضعفاً، لا زيادة ونقصاناً إلا في مراتبه اليقينية.

ولذا فإننا نلمس بشكل واضح حرج الحنفية وخوفهم من إطلاق اسم الزيادة أو اسم النقصان على التصديق. ولكن من أجل أن لا يصطدموا مع أدلة الزيادة الكثيرة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة، جوزوا إطلاق لفظ القوة والضعف على التصديق. فقالوا التصديق لا يزيد ولا ينقص ولكن ممكن أن يتفاوت في القوة والضعف.

والغريب أن بعض الحنفية يفسر الزيادة بالقوة، والنقصان بالضعف ولا يفرق بينهما - على عكس ما صنع أول الأمر - ومع ذلك فهو لا يقول بزيادة الإيمان ونقصانه. بدليل أن بعضهم فسر قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: [لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً]. بأن المراد بالزيادة والنقصان هنا هو القوة والضعف^(١).

وهنا نسأل: إذا كان لا فرق بين الزيادة والقوة، والنقصان والضعف فلماذا لا يقبل التصديق عند السادة الحنفية لفظ الزيادة مثل ما قبل لفظ القوة، ولماذا لا يقبل لفظ النقصان مثل ما قبل لفظ الضعف.

(١) شرح الفقه الأكبر للقاري: ص ٧٠، ٧١، ١١٢ وما بعدها.

وعلى نفس قولهم في أن التصديق لا يقبل النقصان لأنه يصير كفراً، فمن قال: يقبل التصديق الضعف ولا يصير كفراً، مع أنه لا دليل على صحة الأول. على فرضية صحة عدم قبول التصديق النقصان.

والغريب الآخر أن بعض الحنفية - جزاهم الله خيراً - تارة يفرق بين مراتب اليقين ودرجاته، علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين^(١). وتارة أخرى يجوز حصول التفاوت في مراتب الإيمان دون مناقب الإيقان إلا باختلاف علم اليقين وعين اليقين^(٢).

وهنا نسأل: إذا جاز حصول التفاوت في مراتب الإيمان، والإيمان هو التصديق، فلماذا لا تجزوه في التصديق، فيقال: إيمان هذا أزيد من هذا، وإيمان هذا أنقص من هذا؟

وإذا نظرنا إلى اليقين بالنسبة إلى التصديق وجدنا أن الأصل هو التصديق. فكيف يجوز دخول الزيادة على الفرع دون الأصل، فيكتمل الفرع بما يفتقر إليه الأصل. ولا يمانع بعض الحنفية من زيادة اليقين ونقصانه على الرغم من جعله اليقين مضمون التصديق، فيتفاوت اليقين قوة في نفسه من أجلى البديهيات إلى أخفى النظريات القطعية. وهو مع هذا كله لا يجوز دخول الزيادة والنقصان في التصديق، محل اليقين وموطنه.

أما الأشاعرة - رحمهم الله - على وجه الخصوص، والجمهور عموماً، فإنهم لم يروا بأساً من دخول الزيادة والنقصان على التصديق، لأن التصديق في نظرهم على مراتب عديدة ودرجات كثيرة، فليس حصول كل نقص في التصديق يؤدي بصاحبه إلى الكفر والعياذ بالله تعالى، وإنما التصديق على درجات عديدة ومنازل متفاوتة فهم لا يمنعون زيادته، ولا حتى نقصانه، مهما بلغ هذا النقصان مادام يحمل فيه صاحبه حد الجزم والإذعان والمطاوعة.

(١) المصدر نفسه: ص ٧١.

(٢) المصدر نفسه: ص ١١٣.

فإذا نقص التصديق حينئذٍ وفقد الجزم، أو ضعف وحل محله الشيء المفقود من التصديق الشك أو الريب، صار عندئذٍ كفرًا وانعدم الإيمان. ومع هذا كله وعلى فرضية عدم قبول الأحناف ما قدمناه، ومن أجل أن نوافق ونجمع بين القولين، بين الجمهور والحنفية بحد وسط، أقول في هذا الموضوع: كلما قوي التصديق واشتد ازداد الإيمان قوة، ونقص ضعفًا، وكلما ضعف التصديق وخوي نقص الإيمان قوة، وازداد ضعفًا.

واعتقد أننا بهذا الحد الوسط حققنا الجمع والتوفيق بين الفريقين أما الأحناف فإنهم يقولون بقوة التصديق وضعفه ولا يمنعون ذلك، وأما الجمهور فإنهم يقولون بزيادة الإيمان ونقصانه كما تقدم. والحقيقة أن الخلاف بين الأشاعرة والماتريدية خلاف لفظي إذ كلاهما يتفق أن حقيقة الإيمان لا تزيد ولا تنقص ولكن الذي يزيد وينقص هي مظاهر الإيمان لا في حقيقتها ولكن في ورودها فمتى استعد القلب لها قوي إيمانه ومتى ضعف القلب عنها ضعف إيمانه.

ولنا أن نمثل العقيدة الراسخة في أنفسنا بالمولود الجديد، الذي يكبر جسمه على مر الأيام بسبب التغذية ويصبح قادراً على الحركة والعمل والإنتاج، كما يكبر فكره بالتربية والتعليم، مع أنه لم يزد بكبره عيناً ولا يداً، أو أي عضو من الأعضاء. وكذلك عقيدة الإيمان بالله تعالى تولد في قلوبنا نامة الأعضاء، ثم بمرور الزمن وتوارد الشواهد في حياتنا، وبتتابع التغذية بصالح الأعمال، والمراقبة لله تعالى، تنمو هذه العقيدة وتكبر في نفوسنا، حتى تصل بنا إلى مراتب الشهود، حتى لو كشف الغطاء لم يزد يقيناً، وكلما كبرت عقيدتنا ونمت في نفوسنا زاد تأثيرها في سلوكنا، وزاد إنتاجها في حياتنا، وزاد إسعادها لنا. وبالمقابل: إذا حرمانها من التغذية والطاعة وغشينا عليها بالمعصية، تضاعلت حتى تعود كيوم ولدت، عقيدة صحيحة مقبولة، ولكنها غير فعالة ولا منتجة، وقد يأتيها عارض من عوارض الشكوك الوهمية، والأمراض الشهوانية فيميتها.

ودليل الزيادة والنقصان قوله تعالى: {ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم} ^(١).
 ودليل القوة والضعف: قول حضرة النبي ﷺ: {المؤمن القوي خير وأحب
 إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير} ^(٢). وقوله ﷺ: {من رأى منكم
 منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف
 الإيمان} ^(٣).

لاحظ أيها الأخ الحبيب كيف استخدم حضرة النبي الأكرم ﷺ لفظتي:
 [القوة والضعف] مع الإيمان، ومما تقدم رأيت كيف استخدم القرآن الكريم
 لفظة: [الزيادة] التي تقابلها: [النقصان] مع الإيمان كما ذهب إلى ذلك
 الجمهور.

ولأن القرآن الكريم لم يصرح بنقصان الإيمان كما صرح بزيادته قال
 البعض: يزيد التصديق ولا ينقص - والله تعالى أعلم.

(١) سورة الفتح: الآية ٤.

(٢) صحيح الإمام مسلم: كتاب القدر، باب ٨، ج ١٦ ص ٤٥٥ برقم (٢٢٦٦٤) بهامش شرح
 النووي.

(٣) صحيح الإمام مسلم: كتاب الإيمان باب ٢٠، ج ٢ ص ٣٨١ برقم (٧٨).

المبحث الخامس : تأثير عقيدة التوحيد في الحياة

قال الشيخ عبدالله الهرشمي رحمه الله: معرفة الشيء بذكر آثاره أدق من معرفة الشيء بذكر أعراضه العامة^(١). وعلى هذا فإن لعقيدة التوحيد آثار عظيمة على حياة المسلم. تنتقله من الظلمات إلى النور، وتميز حياته عن حياة الملحد والمشرک، وتتجلى فيما يأتي:

١- الإيمان بالله تعالى، وبأنه واحد يمكن المرء من العلم: بأن السماوات والأرض لها رب يكلؤها برعايته، ويرعى من فيها بعنايته، فيرزقهم ويربيهم. ويعلمه بأن ليس في هذا الكون شيء يقوم بنفسه. أما الشرك والملحد فلا يقول بمثل هذا، بل هما في ضياع وإباحية وشر كبير.

٢- الإيمان بالتوحيد ينشئ في الإنسان العزة والأنفة. فالله هو القوي، ولا ضار ولا نافع ولا محيي ولا مميت إلا هو، فلا يطأطئ رأسه لأحد من خلقه، ولا يتضرع إليه ولا يرتعب من كبريائه كائن من يكون. أما المشرک والملحد فيرى غيره قادراً على نفعه وضره بذاته، فيتضرع إليه ويرتعب منه.

٣- الإيمان بالتوحيد ينشئ في المرء التواضع. فلا تراه يفخر بماله وجاهه وعزته وكفائه، وإنما يقول: هي هبة من الله تعالى. ويعبر على الدوام عن شكره والإخلاص في عبادته. بخلاف الملحد الذي يبطر إذا حدثت له نعمة عاجلة، ويشمخ بأنفعه كبراً وعجباً على غيره من خلق الله تعالى.

٤- المؤمن يرى أن النجاة والفلاح لا تكون إلا بتزكية النفس، والاعتصام بالكتاب والسنة، وطلب العلم النافع، والعمل الصالح، والبر، والتقوى، ومصاحبة الصالحين، أما المشرك فيقول: إن ابن الله يسوع - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - قد أصبح كفارة عن ذنوبنا، أو نحن أبناء الله وأحباءه، فلن يعذبنا بذنوبنا، أو نستشفع بكبرائنا وأتقيائنا، أو بتقديم الذنور والقرايين للآلهة والأوثان. والملحد يقول: لا نسأل عن أعمالنا، فالشهوات النفسية هي غاية مقصدهم ومبتغاهم في الحياة الدنيا ولن يؤمنوا بالدار الآخرة، وما فيها من حساب وجزاء.

٥- المؤمن واثق من ربه ولا يتسرب إليه اليأس والقنوط، بل هو مطمئن مملوء سكينة وأملاً، دائم الذكر والشكر لخالقه، ولو أهين، أو أودى. أما المشرك والملحد فلا يقوى قلبه على الوقوف أثناء المحن، وقد يفضي اليأس بهم إلى الانتحار، وهذه نسب الانتحار في حضارة الغرب، حضارة الشرك والإباحية والظلم والفجور قد تجاوزت ٣٠% في العام الواحد من نسب الوفيات.

٦- المؤمن الموحد على قوة عظيمة من العزم والإقدام، والصبر والثبات، والتوكل، فإذا كان حاكماً لا يبتغي إلا مرضاة الله عز وجل، ولا يهمله إلا إقامة العدل، لأن وراءه قوة علوية، تكلؤه وترعاه، وتأخذ بيده. أما المشرك والملحد فلا ينتظر مثل هذه القوة، فلا يملك عندئذٍ من العزم والتوكل ما يملكه المؤمن.

٧- المؤمن على قدر كبير من الشجاعة والجرأة في سبيل الحق، لأن الذي يُجبن الإنسان، ويوهن عزيمته وعزمه أمران هما:

أ- حبه للنفس والمال والأهل وهو مراد قول حضرة النبي ﷺ: (ولكن أصابكم الوهن).

ب- اعتقاده بأن هناك أحداً يميت غير الله تعالى، وأنه قادر على أن يدرأ عن نفسه الموت بحيلة من الحيل.

أما المؤمن فإنه يؤمن بأن مالك النفس والمال والأهل هو الله تعالى، وأن المميت هو الله وحده بالأجل المحتوم المخصص، فلا يخشى عندئذ رجلاً أو حرباً أو عدواً طاعياً، فلا يكون أجراً ولا أشجع من المؤمن الحق بخلاف الملحد والمشرک الجبان، الذي يخشى زحف الجيوش وقوة العدو.

٨- الإيمان يرفع قدر الإنسان، وينشئ فيه: الترفع والقناعة والاستغناء، ويظهر قلبه من الطمع واللؤم، والعواطف الساقطة، والصفات القبيحة الأخرى، فالرزق ليس إلا بيد الله تعالى وحده، فلا نجاح ولا خسران إلا بيده تعالى.

أما المشرک والملحد فهو عبد الطمع والشره، همه الوحيد ومقصده الفريد الكسب بالسبل المشروعة وغير المشروعة، فلا يمنعه مانع عن تحقيق أطماعه ورغباته ولو بهتك الأعراض، وانتهاك المحرمات، وسفك الدماء، وقتل الأبرياء، واحتلال الأوطان، وتشريد الأمنيين، ونهب الثروات، وأهانة المقدسات، ونشر الرذيلة والنفاق في المجتمعات كما يحدث في العراق وفلسطين.

٩- الإيمان يجعل الإنسان متقيداً بقانون الله تعالى، ومحافظةً عليه. فهو إن خلا بنفسه ليلاً أو نهاراً، يعلم أن عليه رقيباً، يحاسبه على كل صغيرة وكبيرة، فتراه يسارع إلى الخيرات، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فوازعه يحضه على الخير، وينهاه عن كل رذيلة، أما الملحد والمشرک فلا يرى شيئاً من هذا^(١).

١٠- المؤمن الموحد جعل الدنيا جسراً للآخرة، وهو فيها كعابر سبيل، جنته في صدره وهو حاضر في قلبه مع ربه لا يغفل عنه ولا ينساه، يتوكل

(١) مبادئ الإسلام: ص ٧١ وأصول الدين الإسلامي: ص ١٤٠.

عليه ويدعوه آناء الليل وأطراف النهار، ويستعد في كل لحظة إلى لقاء ربه البر الرحيم، يطمع بالفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ويريد شربة من حوض نبيه ﷺ لا يظماً بعدها أبداً.

أما المشرك الملحد فهو ابن الدنيا يموت فيها موة البهائم ويحشر ليكون حطباً في جهنم. قال تعالى: {وما ظلمناهم ولكن أنفسهم كانوا يظلمون}.

وأبدع المؤمن في وصف آثار التوحيد في بيان وحكمة^(١) فقال:

قلبي برحمتك اللهم ذو أنس	بفيض نور من التوحيد ملتمس
وجهت وجهي إليه عائداً دنفاً	في السر والجهر والإصباح والغلس
وما تقلبت من نومي وفي سننني	ولا نشدت جهاراً أو على همس
وما تنفس صبحاً من مشاركته	إلا وذكرك بين النفس والنفس
لقد مننت على قلبي بمعرفة	هدت لحب من العلياء مقتبس
حتى تجليت فالأكوان شاهدة	بأنك الله ذو الآلاء والقدس
وقد أتيت ذنوباً أنت تعلمها	أتيه جهلاً وأتيه على هوس
وأنت في العفو لم تقنط أخا سرف	ولم تكن فاضحي فيها بفعل مُسي
فامن عليّ بذكر الصالحين ولا	تقدر عطائي على مقدار ملتمس
وشفع المصطفى يوم الجزاء ولا	تجعل عليّ إذا في الدين من لبس
وكن معي طول دنيائي وآخرتي	وغافص القلب واختم بالرضا نفسي
وراعني يوم ترحالي إلى أبدي	ويوم حشري بما أنزلت في عبس
وأعمر فؤادي تيمناً لا يقومه	إلا الوداد الذي ترضى لمؤتس
وصل ربي على الهادي وعترته	وصحبه الصَّحْبُ في البأساء والعرس

هذه أبيات من قصيدة طويلة في مدح النبي وآله وصحبه أجمعين، وهي من تأليف الشاعر الفاضل الشيخ محمد باقر المجلسي، وقد وردت في كتابه "مناقب آل أبي طالب" ج ١، ص ١٠٠.

(١) نفحات الحياة، لحضرة الشيخ الدكتور عبدالله مصطفى الهرشمي: ص ٧٢.

الفصل الثاني:

شرح منظومة عقيدة العوام

المبحث الأول: الإلهيات

المبحث الثاني: النبوات

المبحث الثالث: الملائكة

المبحث الرابع: الكتب السماوية

المبحث الخامس: اليوم الآخر

المبحث السادس: نبينا محمد ﷺ

خاتمة

المبحث الأول: الإلهيات

قال الناظم رحمه الله:

أبدأ باسم الله والرحمن وبالرحيم دائم الإحسان

المفردات:

الله : علم على ذاته تعالى الأقدس، الواجب الوجود المستحق لجميع الكمالات، المتصف بجميع صفات الكمال والجلال، المنزه عن جميع سمات الحدوث، وعن الشريك والنظير والمثال، وعما لا يليق بمجده وعظمته من الصفات والأحوال، فهو الإله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، لا إله إلا هو سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وهو خاص به سبحانه وتعالى، إذ لا يسمّى به غيره سبحانه، فهو أخص الأسماء، وهو أعرف المعارف وأعظم الأسماء، لأنه دال على الذات الموصوف بصفات الإلهية كلّها، فهو اسم جامع لمعاني الأسماء الحسنى كلها، وما سواه خاصّ بمعنى، فلهذا يضاف إليه جميع الأسماء ولا يضاف هو إلى شيء، وكل أسمائه تعالى للتخلق إلا هذا الاسم، فإنه للتعلق فحسب، وحظ العبد منه التوّلّ، وهو استغراق القلب والهمّة به تعالى، فلا يرى غيره، ولا يلتفت لسواه، وهو عربي عند الأكثر وهو الحق. واختلف فيه: هل هو مرتجل، أو مشق، والأول هو المشهور والمختار^(١).

(١) كتاب منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول ﷺ: ج ١ ص ٤٨-٤٩.

الرحمن: المنعم بجلال النعم - أي أصولها - كالإيمان والعافية والرزق والسمع والبصر وغير ذلك.

الرحيم: المنعم بدقائق النعم - أي فروعها - كزيادة الإيمان ووفور النعمة، وسعة الرزق ودقة العمل، وحدة السمع والبصر وغير ذلك. وهو الراحم [فعل] بمعنى فاعل. والرحمن الرحيم: صيغتان للمبالغة من الرحمة. وقيل الرحمن المرید لرزق كل حي في الدنيا، والرحيم المرید لإكرام المؤمنين بالجنة في العقبى فيرجع معناهما إلى صفة الإرادة التي هي صفة قائمة بذاته تعالى، فالرحمن أبلغ من الرحيم لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى^(١).

دائم الإحسان: متتابع الإعطاء والإنعام من غير انقطاع. والدائم: هو الموجود لم يزل ولا يزال ويرجع معناه إلى صفة البقاء.

الشرح:

أبدأ في تأليف هذه المنظومة [عقيدة العوام] بالبسملة مستعيناً بالله عز وجل الذي وسعت رحمته كل شيء، وتتابع إعطاؤه وإنعامه من غير انقطاع ولا انصرام، وافتتاح كتب العلم بها جرى عمل الأئمة المصنفين واستقر أمرهم، حسبما قاله الحافظ ابن حجر - رحمه الله - قال: وكذا معظم كتب الرسائل، والقصد:

١- الاقتداء بالكتاب العزيز، فإن العلماء متفقون على استحباب البسملة في أوله في غير الصلاة، والإجماع منعقد على تقديمها في خط المصحف، وإن كانت ليست آية منه عند الإمام مالك - رحمه الله -.

(١) ينظر الاعتقاد على مذهب السلف: ص ١٤-١٥، ونيل المرام شرح عقيدة العوام لأسد حمزة الزبيدي: ص ٣.

٢- والعمل بقول النبي ﷺ : (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فهو أبتَر) ^(١)، وفي رواية: (أقطع)، وفي رواية (أجزم) بالجيم والذال المعجمة، وهو من التشبيه البليغ في العيب المنفر، ومعنى الجميع: أنه ناقص البركة غير تام في المعنى، وإن تمَّ في الحس. ومعنى "ذي بال" أي: حال يُهْتَم به. ومعنى الابتداء بالبسملة: الاستعانة بالله عز وجل، على زيادة لفظ (اسم)، أو أنه هنا واقع على المسمَّى. أو معناه: التبرك باسمه سبحانه. فالإياء للاستعانة، أو للملابسة، أو المصاحبة، بقصد الترك، والاسم مشتق من السمو، وهو العلو، وقيل: من السَّمة، وهي العلامة ^(٢).

٣- تأسيساً بفعل حضرة النبي الأكرم ﷺ، فإنه يفتتح كتبه ورسائله بالبسملة كما جاء في كتابه ﷺ إلى هرقل وغيره:

أروى الإمام البخاري ضمن حديث طويل نص الكتاب الذي كتبه حضرة النبي ﷺ إلى ملك الروم هرقل وهو هذا: "بسم الله الرحمن الرحيم" من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم، أسلم يؤتكَ الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين....." ^(٣).

(١) رواه الخطيب البغدادي بهذا اللفظ في كتاب الجامع عن أبي هريرة ؓ مرفوعاً: ص ٤٨.

(٢) كتاب منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول ﷺ : ص ٤٨.

(٣) صحيح الإمام البخاري : ج ١ ص ٤ رقم (٥) وينظر الرحيق المختوم: ص ٣٢٥.

قال الناظم:

فالحمد لله القديم الأول الآخر الباقي بلا تحول

المفردات:

الحمد: لغة الثناء باللسان على الجميل الاختياري مع جهة التعظيم سواء كان في مقابلة نعمة أم لا؟ وشرعاً فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعماً على الحامد ولو على غير الحامد، وسواء كان الفعل ذكراً باللسان أو محبة بالجنان أو عملاً بالأركان^(١).

القديم: الموجود الذي ليس لوجوده ابتداء، والموجود الذي لم يزل ولن يُزال، وضده الحديث وهو محال في حقه تعالى.

الأول: الذي لا ابتداء ولا افتتاح لوجوده، وهو قبل كل شيء بلا بداية.

الآخر: الذي لا انتهاء ولا اختتام لوجوده، وهو بعد كل شيء بلا نهاية، وهما صفتان يستحقهما تعالى بذاته.

الباقي: الذي دام وجوده ولا يلحقه الفناء، والدائم الذي لا يزول، والبقاء له صفة قائمة بذاته، وفي معناه الوارث.

بلا تحول: بلا تغير، وهو تفسير للباقي الدائم وهو الموجود لم يزل ولا يزال^(٢).

الشرح:

وأبداً أيضاً إضافياً في تأليف هذه المنظومة بالحمد له تعالى والثناء على الله القديم الأول الآخر الباقي باللسان، مع تعظيمه واعتقاد أن كل ثناء ثابت

(١) ينظر نيل المرام شرح عقيدة العوام: ص ٣، وجلاء الافهام بشرح عقيدة العوام: ص ٥.

(٢) الاعتقاد على مذهب السلف للبيهقي: ص ١٥-٢٢.

له. وأتى المؤلف ﷺ بالحمدلة بعد البسملة لأسباب كريمة ولمعاني عظيمة منها:

١- قضاء لبعض ما يجب من حمد الله تعالى والثناء عليه، بذكر أوصاف كماله، وشكر نعمه وآلائه، التي أعظمها الهداية للإيمان والإسلام وبعثة المصطفى العدنان سيدنا محمد ﷺ ومن جملتها تأليف هذا الكتاب والمنظومة.

٢- اقتداء بالقرآن الكريم في آياته الكريمة، وبحضرة النبي ﷺ في ابتدائه بالحمد في جميع خطبه^(١).

٣- وعملاً بجميع روايات الحديث السابق، ففي رواية (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بـ "الحمد لله" فهو أقطع)^(٢)، وفي رواية: "بحمد الله"، وفي رواية: (كل كلام لا يبدأ فيه "بالحمد لله" فهو أجزم)، وفي رواية: (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بـ "بسم الله الرحمن الرحيم" فهو أقطع)، وفي رواية: (كل أمر ذي بال لا يفتتح بذكر الله فهو أبتَر) أو قال: (أقطع) على التردد. فرواية البسملة صريحة فيها، ورواية: "الحمد لله" بالرفع صريحة فيه، ورواية "بالحمد لله" بالخفض أو: "بحمد الله" يحتمل المراد الابتداء بلفظ: "الحمد لله" بهذه الصيغة، ويحتمل أن يكون المراد الابتداء بمادة الحمد، وإن لم يكن بهذه الصيغة. حتى لو قال: "حمدت الله" أو "أحمده" لأجزأه، ويحتمل أن يكون المراد الثناء. ولو لم يكن بهذه المادة، حتى لو أتى بالبسملة لاكتفي بها. وعلى هذا المعنى رواية: "بذكر الله".

(١) ينظر لهذه الروايات صحيح البخاري: ج ١ ص ٢٢، ٢٤٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ج ٢: ص ٦١٥، ٦١٧. وصحيح مسلم: ج ١ ص ٤٣٧، ٤٣٨، وسيرة ابن هشام: ج ٢ ص ٤١٥، ٤١٦، وأبو داود في سننه: ج ١ ص ٢٧٦.

(٢) رواه أبو داود في سننه - وغيره من المحدثين وأصحاب السنن وحسنه ابن الصلاح.

ولما تعارضت رواية البسملة ورواية الحمدلة ظاهراً - إذ الابتداء بأحد الأمرين يفوت الابتداء بالآخر، وكان الجمع بينهما ممكناً، بأن يُقدّم أحدهما على الآخر فيقع الابتداء به حقيقة، وبالأخر بإضافته إلى ما سواه - أتى بهما معاً. وقدم البسملة لأنها أولى بالتقديم، لأن حديثها أقوى، وعملاً بكتاب الله الوارد بتقديمها.

والحمد: هو الثناء على المحمود بجميل صفاته على جهة التعظيم، وكل من صفاته تعالى جميل فهو ثناء على الله تعالى بجميع صفاته.

الله قل وذر الوجود وما حوى	إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
فالكل دون الله إن حَقَّقْتَه	عدمً على التفصيل والإجمال
واعلم بأنك والعوالم كلها	لولاة في محو وفي اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته	فوجوده لولاة عين محال
فالعارفون فتوا ولما يشهدوا	شيئاً سوى المتكبر المتعال
ورأوا سواه على الحقيقة هالكاً	في الحال والماضي والاستقبال ^(١)

قال الناظم رحمه الله:

ثُمَّ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَرْمَدًا	على النَّبِيِّ خَيْرٌ مِّنْ قَدْ وَحْدًا
وآلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبِعَ	سَبِيلَ رَيْنِ الْحَقِّ غَيْرَ مُبْتَدِعَ

المفردات:

الصلاة: لغة الدعاء بخير، فإذا أضيفت إليه تعالى كان معناها: زيادة الإنعام المقرون بالتعظيم والتبجيل، والصلاة من الله الرحمة المقرونة بالتعظيم، ولفظها مختص بالمعصوم من نبي وملك، تعظيماً لهم، وتمييزاً

لمراتبهم عن غيرهم. وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الصلاة من الله رحمة، ومن العبد دعاء، ومن الملائكة استغفار^(١).

السلام: التحية اللائقة بسيدنا محمد ﷺ، والسلام هو تسليمه وأمانه من كل آفة ونقص.

سرمدًا: دائماً مستمراً أبداً.

النبي: النبي في أصل اللغة وردت مهموزة وغير مهموزة:

١- فإذا كانت اللفظة بالهمز (النَّبِيءُ فهي:

أ. إما مشتقة من النبأ، وهو الخبر، فالنبيء هو المخبر (المُنْبِئ) عن الله تعالى.

ب. أو أن تكون من (النَّبِيء)، الذي هو الطريق الواضح، لأن الأنبياء هم الطرق الموصلة إلى الله تعالى.

٢- وإن كانت بلا همز (النبي) فهي:

أ. إما أن تكون همزتها خفيفة.

ب. وإما أن تكون مشتقة من النبوة أو النباوة، أي: الارتفاع. لأن النبي مرتفع الرتبة على غيره^(٢).

والنبي هنا: أي المعهود عند الإطلاق، وهو سيدنا محمد ﷺ، ومن خصائصه أن الله تعالى خاطبه بالنبوة والرسالة في القرآن، دون سائر أنبيائه، والنبي: رجل اختصه الله بسماع وحيه بملك، أو دونه. وقيل: هو

(١) الأنكار للإمام النووي: ص ٢٧.

(٢) لسان العرب مادة (نبا) وكتاب سيبويه: ج ٢ ص ١٧٠، واشتقاق أسماء الله الحسنى للزجاجي: ص ٥٠٤، والبيان في غريب القرآن: ج ١ ص ٨٧-٨٨، والمسامرة: ص ٢٣٢، وغالب كتب علم الكلام تتحدث عن اشتقاق كلمة (النبي) في موضع الكلام عن المعنى الاصطلاحي.

رجل أوحى إليه بالعمل بشرع معين. وقال القرافي: إن النبوة ليست مجرد الوحي كما يعتقد كثير، لحصوله لمن ليس بنبي كريم، وليست بنبيّة على الصحيح، بل النبوة عند المحققين إحياء الله تعالى الرجل بحكم إنشائي.

ثم اختلف فيما يفترق به النبي والرسول، وما يزيد الرسول على النبي، فقيل: إن الرسول هو النبي المأمور بتبليغ ما أوحى إليه، فهو أخص من مطلق النبي، لزيادته عليه بالأمر بالتبليغ. وقيل: إن حكم التبليغ والإرسال يعمّهما، وإنما يفترقان في أمر آخر من كون الرسول يأتي بشرع جديد، أو نسخ لبعض شرع من قبل، أو له كتاب مخصوص، والنبي إنما يأتي مؤكّداً لشرع غيره، كيوشع بن نون، فإنه بعث مؤكّداً لشرعية موسى عليهما الصلاة والسلام^(١). ولنا تفصيل في ذلك عند الحديث في مبحث النبوات إن شاء الله تعالى. ثم النبي والرسول إذا أطلقا في القرآن والسنة، فإنما المراد بهما نبينا محمد ﷺ، وهو الرسول المطلق لكافة الخلق من الأولين والآخرين. فرسالته عامة، ودعوته تامة، ورحمته شاملة، وإمداداته في الخلق عامة، وكل من تقدم من الأنبياء والرسل قبله، فعلى حسب النياية عنه، فهو الرسول على الإطلاق.

وهو سيد الخلق ﷺ وقد ورد إطلاق "السيد" عليه ﷺ في أحاديث كثيرة صحيحة، كما في حديث الترمذي: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة)^(٢)... الحديث، وفي حديث الشفاعة: (انطلقوا إلى سيّد ولد آدم)^(٣).. وفي حديث الصحيحين: (أنا سيّد الناس يوم القيامة)^(٤).

(١) منتهى السؤل عن وسائل الوصول إلى شمائل الرسول ﷺ: ص ٥٥.

(٢) صحيح الإمام مسلم: ج ٧ ص ٥٩ برقم (٢٢٧٨)، وأبو داود في سننه: ج ٤ ص ٢١٨ برقم (٤٦٧٣).

(٣) صحيح البخاري: ج ٥ ص ٢٢٥ برقم (٤٧١٢)، وصحيح مسلم: ج ١ ص ١٢٧ ص ١٩٤.

(٤) مسند الإمام أحمد: ج ٢ ص ٤٣٥ برقم (٩٣٤٠) وصحيح البخاري: ج ٥ ص ٢٢٥ برقم (٤٧١٢).

وسيادته ﷺ أعلى وأظهر وأوضح من أن يستدل عليها، فهو سيد العالم بأسره من غير تقييد، ولا تخصيص، وفي الدنيا والآخرة. وإنما قال في الحديث: (أنا سيد الناس يوم القيامة) لظهور انفراده بالسؤدد والشفاعة فيه من غيره حين يلجأ إليه الناس في ذلك، فلا يجدون سواه، وجميع الخلائق مجتمعون، أولهم وآخرهم، وأنسهم وجنهم وفيهم الأنبياء والمرسلون، وتلك الدار دار الدوام والبقاء، فهي المعبرة. وقد كان حضرة النبي الأكرم ﷺ معلوماً بالسيادة نسباً وطبعاً، وخلقاً وأدباً، إلى غير ذلك من المكارم قبل ظهوره بالنبوة، يعرف ذلك من اعتنى بالسيرة، وتعرف أحواله من الصغر إلى الكبر، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه^(١).

خير من قد وحدا: أفضل جميع الموحدين^(٢)، والألف في قوله: "وحدا" للإطلاق، ولما كان لسيدنا محمد ﷺ كمال الرسالة وجب أن يكون له كمال العبودية، فكان حضرة النبي الأكرم ﷺ أكمل الكمال على الإطلاق، وعبوديته أكمل كل كمال.

ولما كانت العبودية عين الكمال، وكان لحضرته ﷺ كمال العبودية، أثنى الله باسم العبد الموحّد وسماه به في أشرف مقاماته، فقال تعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده}^(٣)، وقال: {فأوحى إلى عبده ما أوحى}^(٤)، وقال تعالى: {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب}^(٥).

وآله: آل نبينا عند الإمام الشافعي: مؤمنو بني هاشم والمطلب، وعند الإمام مالك رحمه الله فهم بني هاشم فقط، وهذا بالنسبة للزكاة^(*)، أما المراد

(١) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم: ج ١ ص ١٢٧.

(٢) قال الإمام البوصيري: [إفاق النبيين في خلق وفي خلق] ** ولم يدانوه في علم ولا كرم]. البردة: ص ٢٥.

(٣) سورة الإسراء: الآية ١.

(٤) سورة النجم: الآية ١٠.

(٥) سورة الكهف: الآية ١.

(*) وزاد صاحب مواهب الصمد في حل ألفاظ الزيد "وبنو عبد مناف": ص ٤.

بهم في مقام الدعاء كما هنا كل مؤمن تقي، لما جاء في الحديث: عن أنس ابن مالك قال: سئل رسول الله ﷺ: من آل محمد؟ فقال: (آل محمد كل تقي)^(١)، ومن ثم اختار الأزهرى وغيره من المحققين أنهم هنا "كل مؤمن تقي" لحديث فيه. ويطلق على آله: [الأطهار] وهي جمع طَهِير وطَهر، كما في القاموس: أي المطهرين في عناصرهم، وهو مقتبس من قوله تعالى: {ويطهركم تطهيراً}^(٢)، وفي وصف الآل بالأطهار تصريح بأنهم مستحقون للصلاة عليهم تبعاً له ﷺ كما علمناه في حديث: كيف نصلي عليك؟ قال: "قالوا اللهم"^(٣)، صل على محمد وعلى آل محمد" ولم يقل: "آل محمد الاتقياء" أو السالمين من المعاصي والتبغات.. أو نحو ذلك، فدل على أن ذلك حق لهم كيفما كانوا. والله در الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - حيث يقول:

يا أهل بيت رسول الله حُبُّكُمْ فرضٌ من الله في القرآن أنزَلَهُ
يكفيكم من عظيم القدر أنْكُمْ من لم يصل عليكم لا صلاة له

فظهر بهذا أن تارك الصلاة على الآل تارك لفضيحة عظيمة وسنة جسيمة^(٤).

وصحبه: اسم جمع لـ "صاحب" بمعنى الصحابي، وهو: مَنْ اجتمع مؤمناً بالنبي ﷺ بعد نبوته في حال حياته ومات على ذلك، ولو أعمى، أو غير مميز، أو ملكاً، أو جنياً على الأصح كما شملته: [مَنْ]. وهم أفضل من آل لا

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٣) اللهم: هو توجه للمطلوب، وطلب لحصول المرغوب، بالتوسل بالاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى. ولفظ به بصيغة خُذِفَ فيها "ياء" النداء المتضمنة لوجود البيئونة النفسانية إذ حذفها يقتضي زوال ذلك. وتعويض الميم من حرف النداء في لفظ الجلالة، يقتضي قوة الهمة في الطلب والجزم. وإنما جعل هذا الاسم العظيم في أوائل الأدعية غالباً، لأنه جامع لجميع معاني الأسماء الكريمة، وهو أصلها. ينظر منتهى السؤل: ص ٥٧.

(٤) ديوان الإمام الشافعي: ص ٢٨.

صحبة لهم، وإنما قدّم الآل الأطهار، لأن الصلاة وردت عليهم بالنص، وأما الصلاة على الصحب، فبالقياس. ويطلق على الصحابة [بالأخيار] وفيه إشارة إلى أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كلهم عدول، وأن طعن الطاعن في بعضهم غير مرضي ولا مقبول. وبين آل والصحب عموم وخصوص من وجه، لاجتماع الآل والصحب فيمن كان من أقاربه ﷺ واجتمع به، كسيدنا علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة البتول عليهما السلام، وانفراد الآل فيمن كان من أقاربه ولم يجتمع به، كأشراف الناس في زماننا هذا، وانفراد الصحب فيمن اجتمع به ولم يكن من أقاربه، كسيدنا أبي هريرة ؓ وحليمة السعدية رضي الله عنها.

الشرح:

ثم أصلي وأسلم على سيدنا محمد ﷺ أفضل جميع الموحدين وقائد الغر المحجلين الذين بعثه الله تعالى رحمة للعالمين: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} (١)، وعلى آله الأطهار، وفصل بينه وبين آله بـ"على" رداً على المتطرفين المغالين فإنهم يمنعون ذلك، وينقلون فيه حديثاً موضوعاً لفظه: "من فرق بيني وبين آلي بـ(على) لم تتله شفاعتي" (٢)، والصحيح جواز إضافة آل إلى الضمير. وصحبه الأخيار الذين ضحوا بالغالي والنفيس حباً له ﷺ ومن أجله ومن أجل إعلاء راية التوحيد على أرجاء المعمورة، ومن تبعهم في سبيل دين الحق سالمين من الابتداع بإحسان إلى يوم القيامة، عملاً بما روي عنه ﷺ أنه قال: (كل أمر ذي بال لا يبدأ بحمد الله والصلاة على فهو أقطع أبتر محقوق من كل بركة) (٣). وقال الإمام الشافعي رحمه الله:

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

(٢) معجم المناهي اللفظية لبكر أبو زيد: ص ١٠.

(٣) رواه عبد القادر الرهاوي في الأربعين، قال الهيثمي: سنده ضعيف لكنه في الفضائل، وهي يعمل فيها بالضعيف بشروطه كما بين علماء الحديث رحمهم الله تعالى. ينظر المنهل اللطيف: ص ٢٥.

[أحب أن يقدم المرء بين يدي خطبته وكل أمر طلبه، حمداً لله تعالى والثناء عليه سبحانه وتعالى والصلاة على رسول الله ﷺ^(١)]. وقد تواتر هذا الفعل المبارك في الأمة الإسلامية في كل الدهور والعصور وهو دأب العلماء في دروسهم، والخطباء على منابرهم، مستعنيين بمسمى اسم الله المنعم بجلائل النعم والمنعم بدقائقها ومفيض الإحسان على وجه الاستمرار، كما أنهم يثنون على القديم الأول والباقي على الدوام، طالبين منه سبحانه وتعالى الرحمة المقرونة بالتعظيم والتحية اللاتقة بجناب المصطفى ﷺ، دائماً وأبداً على سيد العالمين وأفضل الموحدين مع آله الطيبين الطاهرين وصحابته الغر المحجلين الراشدين وعلى كل من تبع طريقهم سالماً من البدع والخرافات، وكل الآل والصحابة والتابعين كذلك.

أما كيفية الصلاة على النبي ﷺ قال الإمام النووي رحمه الله: وأفضل صيغ الصلاة على النبي ﷺ: "اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد" وتسمى الصلاة الكاملة^(٢).

ورواية أبي حميد الساعدي أنهم قالوا يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال: قولوا "اللهم صل على محمد، وأزواجه، وذريته كما صليت على إبراهيم...." الحديث^(٣).

وحكم الصلاة على النبي ﷺ فرض على الجملة، غير محدّد بوقت لأمر الله بالصلاة، وحمل الأئمة والعلماء له على الوجوب وأجمعوا عليه. والواجب منه الذي يسقط به الحرج، ومأثم ترك الفرض مرة كالشهادة له بالنبوة، وما عدا ذلك فمندوب مرغّب فيه من سنن الإسلام وشعار أهله. وأن من صلى

(١) جلاء الافهام: ص ١٨، ونيل المرام في شرح عقيدة العوام: ص ٤.

(٢) شرح المقاصد النووية: ص ١٤.

(٣) وقد ذكر في هذا روايات عديدة ينظر كتاب الأذكار للنووي: ص ٩٨.

عليه مرة واحدة من عمره سقط الفرضُ عنه^(١). وقيل في كل مجلس وقيل: كل ما ذكر الحبيب المصطفى ﷺ.

وقال أصحاب الشافعي رحمه الله: الفرض منها الذي أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ هو في الصلاة. وقال الإمام الشافعي: من لم يصل على النبي ﷺ من بعد التشهد الأخير قبل السلام، فصلاته فاسدة، خلافاً لباقي الأئمة^(٢).

والصحيح الإتيان بلفظ [سيدنا أو مولانا] ونحوهما مما يقتضي التشريف والتوقير والتعظيم في الصلاة على سيدنا محمد ﷺ وإيثار ذلك على تركه، ويقال في الصلاة وغيرها. وقال صاحب مفتاح الفلاح: وإياك أن تترك لفظ السيادة، ففيه سرٌّ يظهر لمن لازم هذه العبادة^(٣).

(١) شرح المقاصد النووية للشيخ محمد الحجار حفظه الله: ص ٦٢.

(٢) الصحوة القريبة للشيخ محمد الحجار: ج ٢ ص ٤٧٨؛ تحت عنوان "ورد الأبرار في الصلاة على النبي المختار" وقد فتح هذا الموضوع فتحاً جيداً، اللهم افتح عليه فتوح العارفين وانفع به أمة خاتم الأنبياء والمرسلين وسائر العلماء العاملين والمشايخ الكاملين.

(٣) منتهى السؤل : ص ٥٧.

في صفات الله تعالى

تمهيد:

الإيمان بالله سبحانه وتعالى ووحدانيته، الركن الأول من أركان الإسلام وأساس مسائل العقيدة جميعاً. لذلك فإننا سنبحث هنا مسألة وجود الله تعالى وصفاته، وما يترتب عليها من أمور الاعتقاد، وسنقتصر في شرحنا لعقيدة العوام على ما يجب أن يعلمه الدارس من حقائق مهمة، متخذين طريقين لا ثالث لهما ينتهيان بالباحث إلى اليقين الذي لا مرأى فيه:

أولهما: النقل من القرآن الكريم الذي ثبت وصوله إلينا من الله تعالى عن طريق الوحي إلى حضرة الرسول ﷺ. والأدلة القاطعة في ذلك مثبتة في الكلام عن الوحي وإعجاز القرآن الكريم في كتب العقيدة الإسلامية. والنقل من السنة النبوية المتواترة عن الرسول ﷺ، معرضين عن الأحاديث التي فيها جرح أو ضعف.

وثانيهما: النظر العقلي السليم، إذ هو أساس بناء صرح العقيدة الإسلامية. وبذلك تتركز العقيدة الإسلامية في النفس على بناء متين مقام ببراهين يقينية لا تقبل الجدل. فيجب علينا الإيمان بأن الله تعالى واجب الوجود، وأنه موصوف بكل كمال، ومنزه عن كل نقص، ومن ذلك اتصافه بالعظمة والكبرياء والألوهية، فيدخل في اتصافه بالألوهية ما يجب في حقه تعالى وما يستحيل وما يجوز إجمالاً وتفصيلاً.

أولاً: الواجب في حقه تعالى

قال الناظم رحمه الله:

وَبَعْدُ فاعْلَمْ بِوَجُوبِ المَعْرِفَةِ مِنْ وَاجِبِ اللهِ عِشْرِينَ صِفَةً
 فَاللهُ مُوجُودٌ قَدِيمٌ بَاقٍ مُخَالَفٌ لِلخَلْقِ بِالْإِطْلَاقِ
 وَقَائِمٌ غَنِيٌّ وَوَاحِدٌ وَحْيٌ قَادِرٌ مُرِيدٌ عَالَمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ
 سَمِيعٌ الْبَصِيرُ وَالْمَتَكَلِّمُ لَهُ صِفَاتٌ سَبْعَةٌ تَنْتَظِمُ
 فَقُدْرَةُ إِرَادَةٍ سَمْعٌ بَصَرٌ حَيَاةُ الْعِلْمِ كَلَامٌ اسْتَمَرُّ

المفردات:

وَبَعْدُ: كلمة يُوْتَى بها للانتقال من أسلوب إلى آخر. وأتى بها تأسيساً بحضرة النبي ﷺ، فإنه كان يأتي بها من خطبه ونحوها كما صح عنه (١)، بل رواها عنه إثنان وثلاثون صحابياً، كما قاله بن علان. وقال الزرقاني: روى ذلك أربعون صحابياً، كما أفاده الرهاوي في "أربعينه" المتباينة الأسانيد. وأول من قالها داود عليه السلام - كما قيل - فهي (فصل الخطاب) الذي أُوتِيَهُ. لأنها تفصل بين المقدمات والمقاصد، والخطب والمواعظ، قال العلقمي في "حاشية الجامع الصغير" وبهذا قال كثير من المفسرين.

وقيل أول من قالها: قس بن ساعدة الأيادي، وقيل: كعب بن لؤي، وقيل يعرب بن قحطان، وقيل: [سحبان وائل] بالإضافة إلى الذي كان في الجاهلية، لا سحبان بن وائل الذي كان في زمان الدولة الأموية، خلافاً لمن وهم فيه،

(١) ينظر لهذه الروايات صحيح البخاري: ج ١ ص ٢٢، ٢١٦، ٢٤٧. وصحيح مسلم: ج ١ ص ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩.

نبه عليه البلغيثي عن التلمساني في حاشية الشفاء، قال: ولا يدل قول سحبان ابن وائل:

[لقد علم الحي اليمانون أنني * * إذا قلت "أما بعد" أني خطيبها] على أنه أول من قاله. وعلى هذه الأقوال فـ"فصل الخطاب" الذي أتيه داود عليه الصلاة والسلام هو: "البينة على من أدعى، واليمين على من أنكر"^(١). وقال المحققون: فصل الخطاب الفصل بين الحق والباطل.

وبعد: ظرف زمان كثيراً كـ: "جاء زيد بعد عمر"، وظرف مكان قليلاً كـ: "دارُ زيد بعد دار عمرو" وهي هنا صالحة للزمان باعتبار اللفظ وللمكان باعتبار الرَّم، ولكون "أما" نابت مناب اسم شرط "أما بعد" الذي هو "مهما" أجيب بالفاء، إذ التقدير: مهما يكن من شيء بعد ما تقدم من البسمة والحمد والشهادتين والصلاة والسلام على النبي ﷺ.

فاعلم: فعل أمر يخاطب به من يتأتى منه العلم ويكون ما بعده ذا شأن عظيم كقوله تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله}^(٢).

بوجوب المعرفة: أجمع أهل الحق قاطبة على أن أول الواجبات العلم بالله تعالى، واتفقوا على عدم صحة العبادة لمن لا يعرف معبوده^(٣). والمعرفة مصدر ميمي (عرف يعرف معرفة) مرادف للعلم على التحقيق، وقيل مباین، فالعلم أعم والمعرفة أخص، ذلك أن العلم يتعلق بالكليّات والجزئيات، والمعرفة تختص بالجزئيات، فلذا لا يقال في حق الله تعالى عارف^(٤). والمعرفة: هي الحكم الذهني المطابق للواقع عن دليل، كحكمنا بوجود الله

(١) منتهى السؤل: ص ١٧.

(٢) سورة محمد: الآية ١٩، وينظر نيل المرام في شرح عقيدة العوام: ص ٥.

(٣) الاقتصاد للغزالي: ص ١٢٠-١٢١، والمسامرة: ص ١٨٨-١٩١، مفتاح الجنة: ص ١٦، والنظام الفريد: ص ٤٣.

(٤) ينظر نيل المرام في شرح عقيدة العوام: ص ٥.

سبحانه، ووحدانيته، إلى آخر العقائد.... فيجب على كل مكلف شرعاً أن يعرف عقائد التوحيد، وكل عقيدة يجب عليه شرعاً أن يعرف لها دليلاً إجمالياً أو تفصيلياً، لأن المطلوب من المكلف مطلق الدليل، وأقل ما يتحقق ذلك في الدليل الجملي: وهو المعجوز عن تقريره وحل شبهه وردّها، كما إذا قيل له: أعتقد أن الله موجود؟ فيقول: نعم، فيقول له: وما دليلك على ذلك؟ فيقول: هذه المخلوقات. ويعجز عن جهة دلالتها هل هي حدوثها أو إمكانها أو هما معاً؟ فإن قدر على التفصيل ورد الشبه كان من أهل التفصيل.

واعلم أنهم اختلفوا في كيفية الاستدلال بالعالم - ما سوى الله - على أربعة أقوال:

الأول: من جهة الإمكان: أي استواء الوجود والعدم، ونظم الدليل عليه أن تقول: العالم ممكن وكل ممكن له صانع، فالعلم له صانع.

الثاني: من جهة الحدوث: أي الوجود بعد العدم، ونظمه أن تقول: العالم حادث وكل حادث له صانع.

الثالث: من جهتهما معاً، ونظمه أن تقول: العالم ممكن حادث وكل ما كان كذلك فله صانع.

الرابع: من جهة الإمكان بشرط الحدوث ونظمه كالذي قبله، وإنما الفرق بينهما أن الحدوث أخذ جزءاً من الأول وشرطاً من الثاني^(١).

وعلى هذا يمكن القول: إن لم يجزم بأن شكاً أو ظناً بأن الله موجود، أو غير ذلك، فهو كافر بإجماع المسلمين. ومن اعتقد اعتقاداً غير مطابق للواقع كاعتقاد النصاري بالتثليث، والوثنية بالتجسيم، وغير ذلك من المعتقدات الباطلة، فهو كافر بإجماع المسلمين.

ومن اعتقد عقيدة صحيحة، جازماً بها، مطابقة للواقع، من غير دليل، فقد اختلف في إيمانه، قيل: إنه كافر وهذا رأي المعتزلة لأنهم يروا أن من لم يعرف أقسام التوحيد فهو كافر ولا يصح الإيمان إلا بمعرفتها^(١). وهذا باطل غاية البطلان، والصحيح أنه مؤمن عاص لتركه الدليل الذي أمر الله تعالى به في كتابه العزيز في مواطن كثيرة، كقوله تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله}^(٢)، وقوله سبحانه: {قل سيروا في الأرض فانظروا}^(٣).

قال الإمام أبو منصور الماتريدي: أجمع أصحابنا على أن العوام مؤمنون عارفون بربهم، وأنهم حشو الجنة كما جاءت به الأخبار، وانهقد به الإجماع، فإن فطرتهم جبلت على توحيد الصانع وقدمه، وحدث ما سواه، وإن عجزوا عن التعبير عنه باصطلاح المتكلمين^(٤).

والخلاف إنما هو في المقلد الجازم جزماً قوياً، بحيث لو رجع المتبوع لم يرجع التابع، فيكفيه ذلك في الإيمان، ففي الأحكام الدنيوية يناكح ويؤم، وتؤكل ذبيحته، ويرثه المسلمون ويرثهم، ويسهم له، ويدفن في مقابر المسلمين، وفي الأحكام الأخروية أيضاً، فلا يخلد في النار إن دخلها، ومآله إلى النجاة والجنة. وقال ابن الهمام: وقل أن يرى مقلد في الإيمان بالله تعالى، إذ كلام العوام في الأسواق محشو بالاستدلال بالحوادث عليه وعلى صفاته^(٥).

قال العلامة أسد حمزة الزبيدي - رحمه الله -: [اعلم أيها المكلف عشرين صفة واجبة لله تعالى وإياك والتقليد حتى يكون إيمانك مختلفاً فيه والخلاف في صحة إيمان المقلد وعدمه مذكور في كتب العلماء بالتفصيل، والخلاصة في ذلك إن من عرف الله عن طريق معرفة العالم العلوي والسفلي

(١) الفرق بين الفرق: ص ٣٠٣، وشرح جوهرة التوحيد: ج ١ ص ١٧٣.

(٢) سورة محمد ﷺ: الآية ١٩.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٢٠.

(٤) ينظر المعرفة: ص ٢٦، والفرق بين الفرق: ص ٣٠٤، وشرح جوهرة التوحيد: ج ١ ص ١٧٤.

(٥) المسامرة شرح المسامرة: ص ٣٦٠.

وعن طريق تدبره بنفسه فقد خرج عن التقليد أو عن رتبة التقليد، قال تعالى: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} (١) [٢].

وإن هذه المعرفة واجبة شرعاً لا عقلاً، خلافاً للمعتزلة وبعض الماتريدية، القائلين بوجوبها عقلاً. ويبنى على هذا الخلاف أن أهل الفترة عندهم مكلفون بالعقيدة الصحيحة وإن لم يرد شرع، ولم يأت نبي ولم ينزل كتاب.

وأما مذهب الجمهور من أهل السنة والجماعة على أن أهل الفترة ناجون وإن بدّلوا وغيرّوا وعبدوا الأوثان لقوله تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} (٣)، وهذا الخلاف مبني على مسألة هي: [هل التحسين والتقبيح شرعيان أم عقليان] (٤)، أما المعتزلة فالحسن عندهم ما حسنه العقل، والقبح ما قبحه العقل، فإن أدرك أن هذا الفعل حسن بحيث يذم على تركه ويمدح على فعله حكم بوجوبه، وهكذا. وأما عند أهل السنة فالحسن ما حسنه الشرع، والقبح ما قبحه الشرع، فمعرفة الله وجبت عندهم بالشرع، وكذلك سائر الأحكام، إذ لا حكم قبل الشرع لا أصلياً ولا فرعياً (٥).

وشروط التكليف لتكون المعرفة واجبة على المكلف: البلوغ، العقل، بلوغ الدعوة، وسلامة الحواس، هذا في الأنس، أما في الجن فهم مكلفون في أصل الخلقة فلا يتوقف تكليفهم على البلوغ والله أعلم (٦). فالصبي غير مكلف بشيء، وإنما المكلف وليّه بتعليمه الفرائض، والعقائد، والسنن، وبيان المحرمات ليتجنبها، والمجنون غير مكلف أيضاً، ومن فقد السمع والبصر

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٢) نيل المرام في شرح عقيدة العوام: ص ٥.

(٣) سورة الإسراء: الآية ١٥.

(٤) ينظر بحثنا [التحسين والتقبيح العقليان] المنشور في مجلة جامعة إب - اليمن السعيد، ٢٠٠٥م.

(٥) المسامرة شرح المسامرة: ص ١٧٥.

(٦) شرح جوهرة التوحيد: ص ٤٣.

معاً غير مكلف أيضاً، بخلاف السمع وحده، أو البصر وحده، فإنه مكلف بها، ومن لم تبلغه الدعوة غير مكلف أيضاً لجهله بها وعدم معرفته بأصولها^(١).

مسألة: فإن قيل كيف لا يعذب أهل الفترة مع أن النبي ﷺ أخبر بأن جماعة من أهل الفترة في النار كأمريئ القيس وحاتم الطائي وبعض آباء الصحابة؟ فإن بعض الصحابة سألوه ﷺ وهو يخطب فقال أين أبي فقال: في النار؟

جوابه: بأن أحاديثهم آحاد وهي لا تعارض الأدلة القطعية كقوله تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} وكذلك تخصيص حضرة الرسول ﷺ لأشخاص بأعينهم يدل على علم بحالهم استوجب ذلك لا نعلمه نحن والأمر لله. وعلى كل مكلف أن يتأدب مع حضرات الأنبياء بشكل عام ومع نبينا المصطفى ﷺ بوجه خاص.

فالمكلف عليه أن يعتقد باختصار وجوب الوجود والقدم والبقاء ومخالفته تعالى للحوادث وقيامه تعالى بنفسه والوحدانية والقدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام وكونه تعالى مريداً قادراً عالماً حياً وسميعاً وبصيراً ومتمكلاً.

واستحالة العدم والحدوث والمماثلة للحوادث بأن يكون جرمًا أي تأخذ ذاته العلية سبحانه قدراً من الفراغ أو يكون عرضاً يقوم بالجرم أو يكون في جهة الجرم أو له جهة أو يتقيد بمكان أو زمان أو تتصف ذاته العلية بالحوادث أو يتصف بالصغر أو بالكبر أو يتصف بالأغراض في الأفعال والأحكام وكذا يستحيل عليه تعالى أن لا يكون قائماً بنفسه وكذا يستحيل عليه تعالى الجهل وما في معناه بمعلوم ما، والموت الصمم والعمى والبكم وأضداد القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام.

ويجوز له تعالى أن يفعل كل ممكن أو تركه، وأن يرى يوم القيامة من قبل المؤمنين من غير إحاطة ولا تكيف.

بالإطلاق: أي من غير تقييد ببعض الوجوه، بمعنى أن تعالى مخالف للخلق في جميع الوجوه فليس الله سبحانه مخالفاً للخلق في وجه ومائلاً في وجه آخر تنزه الله تعالى عن ذلك. "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير"^(١).

الشرح:

يجب على كل مكلف أن يعرف ويجزم جزماً موافقاً للواقع عن دليل بجميع ما يجب لذات الله سبحانه وتعالى من الصفات الكمالية وهي مالا يتصور من العقل عدمها، وما يستحيل عليه سبحانه من النقائص وهي مالا يتصور في العقل وجودها، وما يجوز أن يثبت لذاته تعالى وهو ما يصح في العقل وجوده وعدمه، لكن المولى جل جلاله وعم نواله رافة منه ورحمة لم يكلفنا باعتقاد جميع ذلك لأنها لا تحصي بل ما نصت الأدلة النقلية والعقلية على اعتقاد شيء بخصوصه كالصفات العشرين الآتية والتي بدأ الناظم في هذه الأبيات يذكر ما يجب في حقه تعالى وهي عشرون صفة مفصلة، كلفنا تعالى باعتقادها مفصلة، وما لم تنص الأدلة على اعتقاده بخصوصه بل نصت على اتصافه بكمالات من غير تعيين لم يكلفنا بمعرفتها مفصلة، بل تعرفها كما هي من غير تعيين وتدليل، فيجب علينا اعتقاد أنه تعالى متصف بكمالات لا نهاية لها، وإن لم نعرف خصوص كل واحد منها، وكلما نصت الأدلة على تنزهه تعالى عن صفات بخصوصها كالعشرين صفة أضداد العشرين الأولى كلفنا باعتقاد تنزهه عنها مفصلة، وكلما نصت الأدلة على تنزهه عنها في غير تعيين كلفنا باعتقادها كذلك، فيجب اعتقاد أن هنالك نقائص لا نهاية لها يجب تنزه الباري عنها^(٢). ومثل ما تقدم جميعه يقال في

(١) سورة الشورى: الآية ١١.

(٢) العقائد الدرية للشيخ محمد الهاشمي: ص ٦.

حق الرسل والأنبياء - عليهم الصلاة وأتم التسليم، مما يجب في حقهم وما يجوز وما يستحيل.

وللتفصيل: يجب لله تعالى عشرون صفة، وتقسم على أقسام:

واحدة نفسية: وهي الوجود.

وخمسة سلبية: وهي القدم، والبقاء، المخالفة للحوادث، القيام بالنفس، الوجدانية.

وسبعة معاني: وهي القدرة، الإرادة، العلم، الحياة، السمع، البصر، الكلام.

وسبعة معنوية: وهي كونه قادراً، مريداً، عالماً، حياً، سمياً، بصيراً، متكلاً^(١).

وإنما ذكرنا هنا عشرين صفة، لأنها كالأصول لما عداها، فغيرها من العقائد راجع إليها كرجوع الفرع إلى أصله، وإلا فكمالات الله تعالى لا نهاية لها كما قال المحققون، لكن العجز عن معرفة ما لم ينصب عليه دليل نقلي ولا عقلي لا نؤاخذ عليه بفضل الله تعالى.

والمراد بالصفة ما ليس ذاتاً، والمراد بالنفسية: أي الذاتية، فالنفسية هي التي لا تعقل الذات بدونها، أي هي نفس الذات، وإنما نسبت للنفس أي الذات لملازمتها لها فقط، بخلاف المعنوية فإنها ملازمة للمعاني، فلذلك نسبت لها، وأيضاً فالصفة النفسية هي التي إذا رُفعت عن الموصوف بها ارتفع الموصوف بها ولم تبق له عين في الوجود العيني ولا في الوجود العقلي، بخلاف الصفات المعنوية.

(١) ينظر مفتاح الجنة: ص ٧٥، والمعرفة: ص ٣٣.

والمراد بالسلبية: من السلب وهو لغة الأخذ والاختلاس^(١)، والمراد به هنا العدم. فلهذا فسر القدم بعدم الأولية لوجوده تعالى، وسميت هذه سلبية لأنها تُعرّف وتفسر بالسلب والنفي والعدم، فمعنى كل واحدة منها عدم أمر لا يليق بمولانا جل جلاله وعم نواله، وليس معناه صفة موجودة في نفسها كالعلم والقدرة ونحوهما من سائر صفات المعاني. ثم أن السلب له احتمالان متنافيان، فإن كان موضوع صفات الحق تبارك وتعالى فالمراد بالسلبية أن معناها سلب كذا، لأنه مسلوبة عنه تعالى، إذ هي ثابتة له تعالى.

وإن كان موضوع البحث فيما يرجع إلينا من إصلاح عقيدتنا وتطهيرها وتنزيهها عما طرأ عليها من الأوهام والخرافات والبدع، فلأنه بمعرفتها انسلب عن عقولنا أمور وهمية كنا نعتقدنا في حق الله تعالى مما لا يليق بألوهيته عز وجل.

وأما المراد بالمعاني والمعنوية: فالمعاني لغة عبارة عما ليس بذات وجودياً كان أو سلبياً أو غيرهما.

واصطلاحاً: فالمعاني جمع معنى وهي كل صفة موجودة قائمة بموجود أوجبت له حكماً^(٢).

فقوله: موجودة احتراز عن السلبية، ومعنى قيامها بموجود: اتصافه بها، أو تحقق وجودها به، إذ لا توجد إلا في الذات ولا تكون قائمة بنفسها. ومعنى إيجابها الحكم: أنه يلزم من قيامها بالذات ثبوت أحكامها وهي المعنوية. فقوله: أو تحقق وجودها: أي فليس لوجودها ثبوت وتحقق إلا به، فليس وجودها بالاستقلال، لأن ذلك من خواص الذات.

فكون القدرة صفة قائمة بالذات يستلزم كون المحل أي الذات قادراً، وكون العلم صفة قائمة بالذات يستلزم كون المحل أي الذات عليمًا، وكون

(١) السلب ما يسلب به، العين للفراهيدي: ص ٤٣٧ حرف السين.

(٢) مفتاح الجنة: ص ٩٠-٩٢.

السمع صفة قائمة بالذات يستلزم كون المحل أي الذات سميعاً، وكذلك باقي الصفات المعنوية^(١) السبع.

وبالتالي فإن المعاني صفات وجودية، والمعنوية ثبوتية بمعنى: أنها عبارة عن قيام المعاني بالذات وهو أمر اعتباري، فصفات المعاني كالأصل للصفات المعنوية، لأن الاتصاف بالمعنوية كالفرع للاتصاف بالمعاني، أي باعتبار التعقل، لا باعتبار التأخر في الزمان، فاتصاف ذات من الذوات بكونه قادراً مثلاً فرع قيام القدرة به. وكذا بقية الصفات المعنوية.

ووجه حصر الصفات بالنفسية، والسلبية، والمعاني، والمعنوية، أن الصفة إما أن يكون مدلولها عدماً أو: لا.

الأول: السلبية، والثاني: إما موجودة أو: لا.

الأول: المعاني، والثاني: إما أن يدل على الوصف بها على نفس الذات دون معنى زائد عليها أو: لا.

الأول: النفسية، والثاني: المعنوية^(٢).

الوجود: فهو ثبوت الشيء، وتحقيقه بحيث يصح أن يُرى، والوجود واجبٌ لله تعالى لذاته أزلاً وأبداً لا لعلّة، أي أن غيره لم يؤثر في وجوده تعالى، أما الوجود غير الذاتي كوجودنا فهو بفعله تعالى، والدليل على ذلك وجود هذه المخلوقات، ولو لم يكن سبحانه وتعالى ما كان شيء من الخلق. وأنه سبحانه ليس بجوهر ولا عرض^(٣). وأنه سبحانه ليس بجهة^(٤). ولا

(١) مفتاح الجنة: ص ٩٢ وما سميناه صفات معنوية أطلق عليه المعتزلة اسم الأحوال، والمحققون من أهل السنة على رفض التسمية لإشعار الحال بالتحول.

(٢) الصاوي على الخريدة: ص ٥٣.

(٣) الجوهر: هو الذي يقوم بنفسه مثل الحجر، والعرض: هو الذي يقوم بغيره مثل اللون. ينظر: أصول الدين الإسلامي: ص ٥٠.

(٤) ورفع الأيدي إلى السماء في الدعاء لأنها قبله له، كالكعبة قبله الصلاة، وتعظيماً لله تعالى وهي مسألة خلافية بين العلماء، والأفضل الوقوف وعدم الخوض فيها.

مستقرا في مكان. وأنه تعالى واحد في ذاته، واحداً في أفعاله، وواحداً في صفاته. فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل، وأدار نظره في عجائب خلق الله تعالى في الأرض وفي السماء، وبدائع فطرة الحيوان والنبات، مع أمرها العجيب، وترتيبها المحكم السديد: لا يستغني عن صانع يديره وفاعل يحكمه ويقدره، قال تعالى: {أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون} (١). وقوله سبحانه: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله} (٢).

أدلة وجود الله تعالى:

شغلت مسألة وجود الله تعالى الفكر الإنساني قديماً وحديثاً، فتمخض عن ذلك إيمان جمهور الناس بوجود الله سبحانه، بعد أن حكّموا عقولهم، وجنبوها الهوى والشطط، فنظروا في الكون ودقائقه وأسراره. وأنكره الضالون المضلون، مدعين حرية العقل، لأن الحواس لم تدركه، والغيب لا يعول عليه في إثبات وجوده. لذلك انبرى العلماء للمنكرين، فردوا عليهم، وجاءوا بأدلة وافية عقلية وعقلية صريحة وكثيرة، تثبت للعاقل المدرك وجود الله تعالى، وأنه علة الكون.

وحكي عن بعض الدهرية، أنه سأل الإمام الشافعي رحمه الله: ما الدليل يا ترى على وجود الصانع؟ فأجابه في الحال: [ورقة الفرصاد] أي: ورقة شجر التوت. ثم شرع يفصل له ويشرح: فهذه الورقة - التي هي من صنع الله - طعمها واحد، ولونها واحد، وريحها واحد، وطبعها عندكم واحد؟ فهذا أمر متفق عليه. قالوا: نعم.

(١) سورة الروم: الآية ٨.

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٥.

قال الإمام الشافعي: هذه الورقة تأكلها دودة القز، فيخرج منها الإبريسم، أي الحرير الطبيعي. ويأكلها النحل، فيخرج منها العسل الذي فيه شفاء للناس. وتأكلها الشاة، فيخرج منها اللبن والبر.

وتأكلها الطيبة، فينعد في نوافجها المسك^(١)، فمن ذا الذي جعلها كذلك مع أن الطبع واحد؟ فاستحسنوا هذا الاستنباط، ووقفوا مبهورين، وكان سبب إيمانهم^(٢).

وسئل أعرابي عن الدليل فقال: البعرة تدل على البعير، والروث على الحمير، وأثار الأقدام على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج، أما تدل على الصانع الحكيم القدير العليم؟ وهذه الأدلة نذكر أهمها فيما يأتي:

الدليل الأول: دليل العناية والاختراع

وهذا الدليل هو أجلى الأدلة على وجود الله تعالى وأوضحها. وهو الذي ذكره ابن رشد في مناهج الأدلة باسم العناية والاختراع^(٣)، وذكر أنه يمكن أن يتخذ:

أ. الجمهور طريقاً لإثبات وجود الله تعالى، فيقتصرون منه على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على الحس.

ب. والعلماء، فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس ما يدرك بالبرهان. وهذا الدليل هو الذي نبه عليه القرآن الكريم، واعتمده الصحابة الكرام ﷺ وبيانه فيما يأتي:

الأول: دليل العناية: وهذا يظهر في العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله ويبني على أصليين:

(١) النوافج: وعاء المسك.

(٢) شرح المقاصد النووية: ص ١٩.

(٣) أصول الدين الإسلامي للدكتور رشدي عليان وقحطان الدوري: ص ٨٤.

١. أن جميع الموجودات التي ههنا موافقة لوجود الإنسان.

٢. أن هذه الموافقة هي (ضرورة) من قبل فاعل قاصد لذلك مريد، إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق. والموافقة تحصل باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان، وكذلك موافقة الزمان والمكان الذي هو فيه أيضاً، والحيوان والنبات والجماد والأمطار والأنهار والبحار والنار والهواء والغذاء، وكذلك أيضاً تظهر العناية في أعضاء الإنسان وأجهزة جسمه وأعضاء الحيوان: أي كونها موافقة لحياته ووجوده.

ومن آيات القرآن الكريم التي بينت هذا الدليل:

أ. قوله تعالى: {ألم نجعل الأرض مهاداً* والجبال أوتاداً* وخلقناكم أزواجاً* وجعلنا نومكم سباتاً* وجعلنا الليل لباساً* وجعلنا النهار معاشاً* وبنينا فوقكم سبْعاً شداداً* وجعلنا سراجاً وهاجاً* وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً* لنخرج به حباً ونباتاً* وجنات ألفافاً*} (١).

ب. قوله تعالى: {فلينظر الإنسان إلى طعامه* أنا صببنا الماء صباً* ثم شققنا الأرض شقاً* فأنبتنا فيها حباً* وعناباً وقضبا* وزيتوناً ونخلاً* وحدائق غلباً* وفاكهة وأبا* متاعاً لكم ولأنعامكم*} (٢).

الثاني: دليل الاختراع، وهو ما يظهر في اختراع جواهر الأشياء الموجودات، كاختراع الحياة في الجماد، والإدراكات الحسية، والعقل، والتوجهات القلبية. ويدخل فيه: وجود الحيوان كله، ووجود النبات، ووجود السماوات. وهذا الدليل يبني على أصليين موجودين بالقوة في جميع فطر الناس هما:

١. أن هذه الموجودات مخترعة، فإننا نرى أجساماً جمادية، ثم تحدث فيها

(١) سورة النبأ: الآيات ٦-١٦.

(٢) سورة عبس: الآيات ٢٤-٣٢.

الحياة، فنعلم قطعاً أن ههنا موجداً للحياة ومنعماً بها، وهو الله تبارك وتعالى. وأما السماوات، فنعلم من قبل حركتها التي لا تقتصر. إنها مأمورة بالعناية بها ههنا ومسخرة لنا، والمسخر المأمور مُخترع من قبل غيره ضرورة. قال تعالى: {إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له} (١).

٢. أن كل مخترع فله مخترع، فعلى من أراد معرفة الله حق معرفته، أن يعرف جواهر الأشياء، ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع. قال تعالى: {أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء} (٢)، وقال سبحانه: {فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق} (٣)، وقال سبحانه: {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت} (٤).

وأما الآيات القرآنية التي تجمع بين هذين الدليلين فمنها: قوله تعالى: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون} * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون} (٥). فقوله: خلقكم والذين من قبلكم، تنبيه على دلالة الاختراع. وقوله: الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً، تنبيه على دلالة العناية (٦).

والدليل العلمي هو الذي أكد عليه العلماء في العصر الحاضر خاصة بعد أن اتسع نطاق العلم، وظهرت المخترعات الحديثة التي كانت سبباً في استكشاف آفاق الفضاء، والوقوف على أسرار الطبيعة، ومعرفة خفاياها،

(١) سورة الحج: الآية ٧٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٨٥.

(٣) سورة الطارق: الآيتان ٥-٦.

(٤) سورة الغاشية: الآية ١٧.

(٥) سورة البقرة: الآيتان ٢١-٢٢، وينظر لنفس المعنى سورة آل عمران: الآية ١٩١.

(٦) مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد: ص ١٦٥-١٦٩.

والتوغل في أعماق الالكترونات والذرات والاتصالات، مما دعا رجال العلم في مختلف ميادينه، أن يتحدثوا بقدرة الله تعالى وإبداعه وعظمته وحيرة العقل الإنساني أمام تلك الأسرار في كل مخلوق. وما نذكره هنا من نظرات في بعض ميادين العلم، ووقوف العلماء على بعض أسرار الكون، ما هي إلا مفاتيح للذهن وطاقاة الفكر، تدفعه للتفكير في أمر هذا الكون المترامي الأطراف، ولا ريب فإن كل جزئية فيه ناطقة بربوبية (خالقية) الله تعالى ووحدانيته.

ومن هذه الأمثلة:

١- النجوم عبارة عن كتل ملتهبة بعيدة عن الأرض، فأقرب نجم إلينا يساوي أربع سنوات وربع من السنين الضوئية^(١). وألمع نجم نراه في السماء هو نجم الشعرى اليمانية، والذي عبده فريق من العرب قبل الإسلام. يبعد عنا ثماني سنوات ونصف من السنين الضوئية^(٢). وأعلن الفلكيون مؤخراً عن رصد نجم يبعد عنا اثني عشر ونصف بليون (والبليون يساوي ألف مليار) سنة ضوئية^(٣). ودرجة حرارة سطح نجم الشعرى اليمانية تبلغ أحد عشر ألف درجة مئوية. أما حجمها، فمنها ما يقدر بحجم الشمس، ومنها ما ينقص عنها أو يزيد عليها بعشرات أو مئات بل آلاف وملايين المرات.

٢- يتمدد الفضاء بشكل عظيم. وقدروه - كما يقول الدكتور جيمس جينز - بنحو مائة وخمسة أميال في الثانية الواحدة، لكل بُعد قدره مليون سنة ضوئية^(٤). وجميع الكواكب السيارة في مجموعتنا الشمسية، تجري

(١) السنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء خلال سنة واحدة، وذلك نحو ٦ مليار ميل، علماً أن سرعة الضوء ١٨٦ ألف ميل في الثانية الواحدة.

(٢) ينظر التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن للأستاذ حنفي أحمد: ص ٥٦-٥٩-٦٢.

(٣) النشرة الفلكية من مديرية الرعاية العلمية - بغداد دار السلام.

(٤) التفسير العلمي للآيات الكونية: ص ٥٦-٦٩.

بفلك معين لا يحيد عن مداره، فإن حاد قليلاً، اختل التوازن، فارتطم الكوكب بالآخر وزالت الحياة. ومجموعتنا الشمسية واحدة من ملايين المجاميع الشمسية التي لا تحصر، والمنتشرة في هذا الكون الواسع الفسيح.

٣- القمر تابع للأرض، يبعد عنها ٢٨٦ ألف ميل، فلو بُعد عنها ٥٠ ألف ميل، لغطى الماء في المد الأرض كلها، ويكون عمقه بمعدل ميل ونصف، والمد في الهواء يحدث الأعاصير كل يوم، لأن جاذبية القمر حالياً تجذب مياه المحيط إلى ٦٠ قدماً في بعض الأماكن.

٤- تدور الأرض حول الشمس بسرعة ١٨,٥ ميل في الثانية تقريباً، في فلك طوله ٦٠٠ مليون ميل، وتدور الأرض حول نفسها بسرعة قدرها (١٠٠٠) ميل بالساعة (أي مرة كل ٢٤ ساعة)، فلو فرضنا أنها تدور حول نفسها بمعدل (١٠٠) ميل بالساعة، فعندئذ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هو عليه الآن عشر مرات، فتحرق الشمس النباتات نهائياً وتتجمد ليلاً. ولو فرضنا أنها تدور حول الشمس بسرعة ٦ أميال في الثانية أو ٤٠ ميلاً، لكان قربنا وبعدها عن الشمس يجعل حياتنا مستحيلة^(١).

٥- ولو كانت قشرة الأرض أسمك عشرة أقدام، لنفد الأوكسجين، وانعدمت الحياة، ولو كانت البحار أعرق بضعة أقدام مما هي عليه الآن، لانجذب الأوكسجين وثنائي أوكسيد الكربون فاستحالت الحياة. ولو كان جو الأرض أرق مما هو عليه، لتهافت النيازك فأحرقت الأرض. لأن النيازك تتهاوى بسرعة أربعين ميلاً في الثانية في كل يوم بالملايين في الفضاء الخارجي^(٢).

(١) التفسير العلمي للآيات الكونية: ص ٦٧، والعلم يدعو للإيمان: ص ٥٥.

(٢) الإسلام يتحدى: ص ٥٩، والعلم يدعو للإيمان: ص ٦٥.

٦- الماء الذي يكون $\frac{5}{4}$ من الكرة الأرضية، يتكون من غاز: ذرتين هيدروجين وذرة أوكسجين H_2O ، والهواء يتكون من عناصر بنسب معينة عظيمة الأهمية للحياة، إذا اختلت لم تستقم الحياة. وملح الطعام الذي تستحيل حياة الإنسان بدونه، يتكون من أخطر عنصرين، هما: الصوديوم الذي يدخل في تركيب المتفجرات، والكلور الغاز الخانق القاتل. وإذا نظرت في المجهر إلى قطرة من المياه الراكدة، تجد عالماً من الأحياء فيه العجائب والغرائب^(١).

٧- يطير الخفاش ليلاً ببصره الضعيف، ولا يصطدم بحاجز، لأنه يرسل اهتزازات ترجع إليه إذا اصطدمت بجسم أمامه، فيحس به دون أن يراه، وهذا شبيه بالرادار، ولو أن ذبابتين توالدتا، ولم يأت الموت عليهما وعلى أولادهما، فإنه بعد خمس سنوات، تشكل طبقة من الذباب حول الكرة الأرضية، ارتفاعها ٥ سم. وهذا جنس واحد، فكيف بالمخلوقات جميعاً، إذا لم يأت عليها الموت^(٢).

٨- الإنسان ذلك اللغز المحير للعقل في جسمه ترليون^(٣) خلية، ويستهلك حوالي ١٢٥ مليون خلية في الثانية الواحدة، وعدد خلايا الجملة العصبية ١٤ مليار خلية عصبية تسيطر على نشاط البدن وفعاليته، ويكمن فيها النشاط الفكري والشخصية الإنسانية^(٤).

(١) ينظر كتب ومقررات علم الكيمياء في الجامعات كافة.

(٢) الله، للشيخ سعيد حوى رحمه الله: ص ٧٦-٩٢-٩٨، والعلم يدعو للإيمان: ص ١١٩.

(٣) الطب محراب للإيمان: ص ٥٩، والعلم يدعو للإيمان: ص ١١٩-١٢٠. والترليون ألف مليون مليون. ومحاضرات ودروس السيد العلامة عمر بن حامد الكيلاني في مكة المكرمة حماتها الله حيث أكد على ضرورة الاعتماد على الأدلة العلمية الحديثة في ثبوت وجود الله تعالى.

(٤) الطب محراب الإيمان: ص ٤-٤٢-٩٤ وما بعدها.

وبعد هذا نقول: هذه أمثلة يسيرة^(١)، مما ذكره العلماء من نظرات في أرجاء هذا الكون الفسيح، الذي يقف أمامها الإنسان مشدوهاً حائراً، نتساءل فيه: من دبره؟ ومن كونه؟ ومن يسره على هذا الشكل البديع المتناسق، الذي يكشف العلم يوماً بعد آخر عجائب هذا النظام الذي يجري عليه هذا الكون! أهذا من صنع الإنسان الذي يعجز عن أن يدفع عنه المكروه، ويعجز عن أن يغير ما في الطبيعة من ظروف قاهرة كالزلازل والأمطار و[تسنامي] والفيضانات والأعاصير المدمرة... الخ.

إن العاقل ليدرك أن تآلف هذه الجزيئات على هذا النحو الذي تتجلى فيه صورة الحياة، واستمرار هذا التآلف والحياة مدى الأزمان، ولا يتخلف ولا يترث، لم يكن من صنع الطبيعة الصماء العمياء. إن التفسير الحقيقي لهذا النظام، هو أن نؤمن بقدرة خارقة، وقوة جبارة، وعظمة إلهية، بسطت يديها، فسيرت الكون على النحو العجيب الذي نراه. فمن تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية، واختلاف أشكالها وألوانها، وطباعها، ومنافعها، ووضعها في مواضع النفع، علم أن لها صانعاً قديراً حكيماً علياً، وعلم إتقانه وعظيم سلطانه.

وعن الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان رحمه الله أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري سبحانه، فقال لهم: دعوني فإنني مفكر في أمر قد أخبرتُ عنه!! ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر، وليس بها أحد يحرسها، ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء، وتسير بنفسها، وتخرق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها، من غير أن يسوقها أحد.. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل!! فقال رحمه الله: ويحكم، هذه

(١) ينظر الكتب الآتية: كتاب الله يتجلى في عصر العلم - لجماعة من العلماء، ومع الله في السماء - د. أحمد زكي، والإنسان ذلك المجهول - د. الكسيس كارل، وكتب الأستاذ عبدالرزاق نوفل، ومجمع الأشتات لحضرة الشيخ د. عبدالله مصطفى الهرشمي، وقصة الإيمان للشيخ نديم الجسر، والطريق إلى النجوم - لمان درويش، والنجوم في مسالكها - د. جبير.

الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع؟! فبهت القوم، ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه^(١).

ودليل العناية والاختراع هو الذي ذكره بعض فلاسفة الغرب باسم: [الدليل الغائي] أو: [برهان الغاية] الذي يتخذ من المخلوقات دليلاً على وجود الخالق تبارك وتعالى. وهذه المخلوقات تدل على قصد في تكوينها، وحكمة في تسييرها وتبديرها، فالنظام والقصد والانسجام والحكمة الظاهرة في الطبيعة ومظاهرها المختلفة المتنوعة، طريق لإثبات وجود الله تعالى^(٢).

الدليل الثاني: دليل الحدوث

بنى العلماء هذا الدليل على المقدمتين الآتيتين:

المقدمة الأولى: العالم حادث^(٣). (والعالم هو كل ما عدا الله سبحانه وتعالى).

المقدمة الثانية: كل حادث لابد له من مُحدث.

النتيجة: العالم لابد له من مُحدث يُحدثه. أي: يرجح وجوده على عدمه، وهو الله جل جلاله. ولكي تظهر لنا صحة هذه النتيجة، علينا أن نقيم الدليل على صحة كل من المقدمتين السابقتين.

الدليل على أن العالم حادث:

يمكن صياغة دليل حدوث العالم بالدليلين الآتيين:

أولهما: العالم متغير، وكل متغير حادث، فالعالم حادث.

(١) تفسير الإمام ابن كثير: ج ١ ص ٥٩.

(٢) الله - للعقاد: ص ١٩٦-١٩٧، ودراسات في الفرق والعقائد الإسلامية: ص ١٧٩.

(٣) العالم سمي حادثاً لأنه حدث وظهر بعد أن لم يكن لعله أوجدته، أو هو ما كان معدوماً ثم وجد. ينظر المسامرة: ص ١٧.

ثانيهما: العالم مركب من جواهر وأعراض^(١)، وكل من الجواهر والأعراض متغير، فالعالم متغير.

والأعراض حادثة بدليل: مشاهدة تغيرها من وجود إلى عدم، ومن عدم إلى وجود، ومن سكون إلى حركة، ومن حركة إلى سكون والتغير علامة الحدوث. واحتياجها إلى مُخصَّص بوقت حدوثها، دون ما قبله وما بعده، فلا بد من مرجح لوقوعها في ذلك الوقت، لأن الترجيح من دون مرجح محال. وكذلك افتقارها إلى جسم يقوم بها.

والجواهر حادثة أيضاً: لأنها ملازمة للأعراض لا تنفصل عنها، فهي لا تخلو عن الحركة والسكون والألوان، والأعراض حادثة كما تقدم، وملازم الحادث حادث. فإذا ثبت أن الجواهر والأعراض حادثة، لزم أن يكون العالم المكون منها حادثاً، وبذلك تسلم لنا المقدمة الأولى وهي: [العالم حادث].

الدليل على أن كل حادث لابد له من محدث:

هو: أنه لو حدث حادث بلا محدث، لزم أن يترجح وجوده على عدمه بلا مرجح، وهو مستحيل بالبداهة^(٢).

ومعنى الرجحان بدون مرجح هو: أن يكون الشيء جارياً على نسق معين، ثم يتغير عن نسقه، ويتحول عنه بدون وجود أي مغير. وهذا أوضح البطلان، لأن جميع العقلاء يعلمون أن لابد لتحويل الشيء عن حاله السابقة من محوّل ومؤثر، يفرض عليه هذا الوضع الجديد، وينسخ حاله القديمة. فإنك لو تركت كفتي ميزان متساويتين لا تفل في أحدهما، وزعمت أن

(١) الجوهر هو ما قام بنفسه، والعرض ما قام بغيره كالألوان والحركة والسكون، فالحجر جوهر وعرض فمادته جوهر، وألوانه أو حركته أو سكونه عرض. ينظر أصول الدين الإسلامي: ص ٧٥.

(٢) ينظر المواقف وحاشية الجرجاني عليه: ص ٤٦٦، والمسامرة على المسامرة: ص ١٧-٢١، وشرح الدردير على الخريدة: ص ٤٦.

أحدهما قد ترجحت، دون مؤثر خارجي، كنفخة هواء أو حجر، لضحك منك الناس وأشفقوا عليك. وعلى ذلك نقول: كان العدم منبسط محل العالم قبل وجوده، فالعدم أرجح من الوجود لسبقه، ولكن حين خلق هذا العالم ترجح وجوده على العدم، فالوجود والعدم أمران متساويان، وترجيح أحد الأمرين المتساويين على الآخر بلا مرجح مستحيل وباطل بالبدهاة.

فالقول بأن العدم قد تحول إلى وجود العالم دون مسبب لهذا الوجود باطل ومستحيل استحالة دعوى صاحب الميزان^(١). وبذلك تسلم لنا المقدمة الثانية وهي: [أن كل حادث لابد له من محدث].

الدليل الثالث: دليل الوجوب

موجد هذا الكون وخالقه إما أن يكون: واجباً أو مستحيلاً أو ممكناً. لأن كل أمر لابد أن يتصف بواحد من الأمور الثلاثة السابقة ولا رابع لها، لأنها أقسام الحكم العقلي^(٢).

١- فلا يجوز أن يكون موجد العالم مستحيلاً، لأن المستحيل لا يتصور وجوده مطلقاً، فهو عدم محض، فلا يمكن أن يوجد غيره، إذ أن فاقده الشيء لا يعطيه، فكيف يكون المستحيل مصدراً للوجود؟

٢- كما لا يجوز أن يكون موجد العالم ممكناً، لأن الممكن لا يوجد إلا إذا وجد سبب وجوده، وهذا السبب إن كان ممكناً فعندئذٍ يحتاج إلى سبب آخر.... الخ وهكذا. وهذا يلزم منه الدور أو التسلسل، وكلاهما باطل كما سيأتي بيانه بعد قليل، فما أدى إليهما فهو باطل، فلزم ألا يكون موجد الكون وخالقه ممكناً.

(١) كبرى اليقينات الكونية: ص ٨١-٨٣.

(٢) ينظر المبحث الثاني من الفصل الأول حيث بينا الحكم وأقسامه، وفصلنا القول في أقسام الحكم العقلي.

٣- ولما ثبت أن موجد العالم ليس بمستحيل ولا بممكن، وجب أن يكون موجد العالم واجب الوجود^(١). فلا يحتاج وجوده إلى سبب، بل هو علة العلل وسبب وجود العالم^(٢).

معنى الدور وما هي مراتبه ودليل بطلانه:

الدور: هو أن يكون شيان كل منهما علة للآخر^(٣). كقولك: زيد أوجد عمراً، وعمرو أوجد زيد. فكل من زيد وعمرو، يتوقف وجود أحدهما على الآخر. وهو الدور الباطل، وكل منهما يظل معدوماً حتى يأتي مؤثر خارجي. والدور على مراتب: من مرتبة واحدة ويسمى: [الدور المصريح] كما يتوقف س على ص وبالعكس.

أو من مراتب متعددة ويسمى: [الدور المضمّر] كما يتوقف "س" على "ص" و"ص" على "ع" و"ع" على "س". وكل هذه المراتب باطلة^(٤). وسبب بطلان الدور: هو أن يستلزم أن يكون كل واحد منهما، سابقاً صاحبه، متأخراً عنه، في وقت واحد. وهذا يعني استلزام تقدم الشيء على نفسه وهو تناقض^(٥).

فعمرو يتوقف على زيد، وزيد يتوقف على عمرو. وهذا يعني أن عمراً متوقف على عمرو، بعد حذف الحد الأوسط (زيد). وهذا يستلزم تقدم الشيء على نفسه، أي: يستلزم أن يتقدم عمرو على عمرو، لأنه خالق ومخلوق أو سابق ومسبق، فيلزم أن يكون عمرو موجوداً قبل أن يوجد وهذا باطل.

(١) واجب الوجود: أنه لا يجوز عليه العدم، فلا يقبل العدم أزلاً وأبداً، ينظر شرح الجوهرة: ج ١ ص ٤٠.

(٢) المواقف وشرحه للرجاني: ص ٤٦٦، والرازي مفسراً: ص ٢٨٢، شرح الجوهرة: ج ١ ص ٤٨.

(٣) المواقف: ص ١٧٧.

(٤) التعريفات للرجاني: ص ٩٤، مقاصد الطالبين وشرحه للفتازاني: ج ١ ص ١٦٤.

(٥) المواقف: ص ١٧٧، والمقاصد: ج ١ ص ١٦٤، والسردير على الخريدة: ص ٦١، شرح الجوهرة: ج ١ ص ٤٨.

فإذا قيل: أن سبب حدوث العالم: هو التفاعل الذاتي المجرد في الموجودات، بتأثير الضغط والحرارة والبرودة بمرور الزمان.

أجيب: أن هذا هو الدّور الباطل، لأنه يعني: أن وجود العالم متوقف على بعضه (الضغط والحرارة والبرودة...) وبعضه متوقف في وجوده على العالم، وهذا يعني: تقدم الشيء على نفسه، وهو باطل كما تقدم^(١). وينتهي الدّور بوجود مؤثر خارجي واجب الوجود يوجد الأشياء بقدرته وإرادته ووفق علمه.

معنى التسلسل ودليل بطلانه:

التسلسل: هو أن يستند الممكن في وجوده إلى علة مؤثرة فيه، وتستند تلك العلة المؤثرة إلى علة أخرى مؤثرة فيها، وهلم جرا إلى مالا نهاية^(٢).

فالتسلسل يعني: أن المخلوقات متوالدة عن بعضها، إلى مالا نهاية، بحيث يكون كل واحد منها معلولاً لما قبله، وعلة لما بعده، دون أن تتبع هذه السلسلة من علة واجبة الوجود^(٣).

دليل بطلان التسلسل:

١- أنه يؤدي إلى وجود آلهة لا نهاية لها، كلّ منها متّصف بالحدوث والافتقار والعجز، وهو باطل، لأنه مناف لمقام الألوهية من القدرة والغنى المطلق، إذ العاجز الفقير لا يصح أن يكون خالقاً للعالم البديع الإتيان^(٤).

٢- التسلسل منقوض بالحس والمشاهدة، ذلك لأن هناك مخلوقات انقرضت.

(١) كبرى اليقينيّات الكونية: ص ٨٤.

(٢) المواقف: ص ١٧٩.

(٣) كبرى اليقينيّات الكونية: ص ٨٤.

(٤) الدردير على الخريدة: ص ٦١.

فلو صح أن الموجودات تتسلسل إلى مالا نهاية - بأن تكون كل حلقة فيها معلولاً لما قبلها، وعلّة تامة لما بعده - لما انقرضت هذه الموجودات، لأن الحلقة الأخيرة فيها معلولة فقط، وليست بعلّة كسابقتها^(١).

مثال بطلان التسلسل:

أ- إذا رأيت رقماً حسابياً طويلاً، يترأصف إلى جانبه عدد كبير من الأصفار، فإنك تسرع لتتظر قبل كل شيء إلى الرقم العددي الأول، ومالم تقع عينك على ذلك الرقم، فإنك لا تعطي قيمة للأصفار الكثيرة، مالم تستند إلى رقم ذاتي قبلها، لأن الرقم الذي يملك قيمة ذاتية في داخله، هو الذي يضيف الحياة والقيمة على الأصفار المتسلسلة التي عن يمينه، فسلسلة الأصفار التي لم تنته إلى رقم عددي هي خالية عن أية قيمة، وافترض التسلسل اللانهائي فيها لا يخلق لها أية قيمة.

ب- لو أديعتُ أمامك حقيقة علمية، وحين تسألني عن الدليل أجبتك ببرهان يتوقف على برهان آخر، وحين سألتني عن برهان أجبتك ببرهان يتوقف على برهان آخر.... وهكذا، فإنك تكذبني في دعواي، بل تكذب وجودها أصلاً. فكل من هذه البراهين المتسلسلة، التي فرضنا أنه لا نهاية لها، ليست إلا ظلالاً تنتظر أصلها الأول. فإن لم يوجد ذلك أصلاً، فهذه الظلال نفسها غير موجودة، ومن ثم فإن الحقيقة المدعاة أيضاً تكون غير موجودة.

وإذا بطل الدور والتسلسل، بطل ما أدى إليهما، وهو كونُ موجد العالم ممكناً، وعندئذٍ وجب أن يكون الموجد واجب الوجود. ولا يخرج عن هذين الدليلين الدليل الذي ذكره فلاسفة الغرب وهو أقوى الأدلة وأبسطها لديهم،

(١) كبرى اليقينيّات الكونية: ص ٨٤ وما بعدها، وينظر العقل والعلم والعالم من رب العالمين: ج ٢

المسمى ببرهان الخلق، أو الدليل الكوني^(١).

وذكر العلماء أدلة أخرى منها دليل [الفطرة والبداهة] وهو في وضوحه وسهولته وجلالته متمكن من النفوس بحيث لو حاول الإنسان الانفكاك عنه لما استطاع إلى ذلك سبيلا، فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون آيات الله تعالى، وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسموات، وبدائع فطرة الحيوان والنبات أن هذا الأمر العجيب، والترتيب المحكم لا يستغني عن صانع يدبره، وفاعل يحكمه ويقدره، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخير ومصرفة بمقتضى تدبيره، ولذلك قال تعالى: {أفي الله شك فاطر السماوات والأرض} (٢)، ولهذا بُعث الأنبياء عليهم السلام لدعوة الخلق إلى التوحيد الحق ليقولوا: [لا إله إلا الله] فيعرفوا الخلق على العبادة الحقّة والطريقة المستقيمة وما أمروا أن يقولوا: لنا إله وللعالم إله، فإن ذلك كان مجبولا في فطرة عقولهم، من مبدأ نشؤهم وفي عنفوان شبابهم، ولذلك قال الحق سبحانه: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله} (٣)، وقال تعالى: {فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم} (٤).

أما إذا شوّهت الفطرة لسبب من الأسباب وهي كثيرة من أهمها الوقوع في معصية الله جل جلاله وكذلك التعليم المبني على غرس الكفر والإلحاد أو

(١) وملخص هذا الدليل: هو أن الموجودات لا بد لها من موجد، لأننا نرى كل موجود منها يتوقف على غيره، ويرى غيره يتوقف على موجود آخر، دون أن نعرف ضرورة وجوده لذاته. ينظر كتاب الله للعقاد: ص ١٩٢. وينظر كذلك دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية: ص ١٧٤ وما بعدها.

(٢) وينظر أيضا الدليل الوجودي أو برهان الاستعلاء والاستكمال أو برهان المثل الأعلى والدليل الأخلاقي لعلماء الغرب، تلك الأدلة العقلية والوجدانية التي أثبتوا بها وجود الخالق تعالى، ينظر أصول الدين الإسلامي: ص ٩٥-١٠٠، وكتاب الله للعقاد: ص ١٩٦، ودراسات في الفرق: ص ١٧٩.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ١٠.

(٤) سورة لقمان: الآية ٢٥.

الغلو والتطرف المقيت، فهيهات أن تتقاد بنفس السهولة، وإنما أبرز علمائنا أنواعاً أخرى من الأدلة العقلية. لا ليثبتوا في أنفسهم العلم بالله، بل ردعاً للخصوم والمجادلين الذين جحدوا الإله رب العالمين، وكانوا كافرين بالقرآن مكذبين به جاحدين له، فطلب علماء التوحيد إقامة الأدلة عليهم على الطريقة التي زعموا أنها أدلتهم إلى إبطال ما ادعينا صحته خاصة، حتى لا يشوشوا على العوام عقائدهم.

فمهما برز في ميدان المجادلة رجل بدعي أو امرأة برز له علماء أهل السنة والجماعة على تنوع مدارسهم ومشاربهم أو من كان من أصحاب علم النظر، ولم يقتصروا على السيف رغبة منهم وحرصاً على أن يردوا واحداً إلى الإيمان، والانتظام في سلك أمة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ بالبرهان، إذ الذي كان يأتي بالأمر المعجز على صدق دعواه قد التحق بالرفيق الأعلى ﷺ، فالبرهان عندهم قائم مقام تلك المعجزة في حق من عرف، فإن الراجع بالبرهان أصح إسلاماً من الراجع بالسيف، فإن الخوف يمكن أن يحمله على النفاق، وصاحب البرهان ليس كذلك. فهذا ﷺ وضعوا علم الجواهر، والعرض لا غير، ويكفي في المصير منه واحد^(١).

فإذا كان الإنسان مؤمناً بالقرآن أنه كلام الله قاطعاً به فليأخذ عقيدته منه، ففي القرآن الكريم للعاقل غنية كبيرة، ولصاحب الداء العضال دواء وشفاء، قال تعالى: {وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين}^(٢).

والحق أن في فطرة الإنسان الصالح وشواهد القرآن ما يغني عن إقامة البرهان، لكن النفوس المريضة والعقول المريضة تحتاج إلى برهان قوي، فنحن على سبيل الاستظهار واقتداء بالعلماء النظار أقمنا الأدلة واضحة جلية والله الحمد والمنة^(٣).

(١) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

(٣) ينظر الفتوحات المكية: ج ١ ص ٣٤ وإحياء علوم الدين: ج ١ ص ١٠٥، والمسامرة: ص ٣٠-٣٣.

وبعد كل هذا التفصيل والدقة في أدلة وجود الخالق العظيم الذي لو لم يكن سبحانه وتعالى موجوداً ما كان شيء من الخلق، فإن القول بالتفاعل والصدفة يمجّء العقل السليم وترده الفهوم والعلوم حيث أنه لا بد من التفريق في مسألة المصادفة بين أمرين:

أولهما: خلق الشيء، وفكرة المصادفة تستبعد منه، لأنه يؤدي إلى الدور الباطل كما تقدم.

وثانيهما: ترتيب الشيء وتركيبه، وقد أثبت العلماء في الشرق والغرب من خلال بحثهم ونظرهم في فكرة المصادفة أن هذا الترتيب الإلهي العجيب، وهذا الاتفاق البديع في المخلوقات يجعل أمر المصادفة ضرباً من ضروب المستحيل^(١).

قال الدكتور وأين أولت: هل تم اختراع جهاز الراديو نتيجة للمصادفة، أم عن طريق التصميم والاختراع^(٢). هذا وأن الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان رحمته الله قد هدى الزنادقة قبل قرون بعيدة بدليل السفينة الذي ذكرناه آنفاً، وأنت أخي الحبيب قد قرأت عن الوطواط أو الخفاش قبل ورقات دقة الصانع الحكيم^(٣). فأين المصادفة والإنكار.

فلا محل للإلحاد في ذهن المتفتح، وسوف أنقل إلى حضراتكم عبارات قالها بعض علماء الغرب الذين اقتحموا مجال العلم من أوسع أبوابه:

قال لورد كلفلي: [إذا فكرت تفكيراً عميقاً، فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد في وجود الله، ولا بد أن أعلن عن موافقتي كل الموافقة على هذه العبارة]^(٤).

(١) العلم يدعو للإيمان: ص ٥١، والطب محراب الإيمان: ص ١٥.

(٢) الله يتجلى في عصر العلم: ص ١٣٢، والطب محراب الإيمان: ص ١٤-٢٥.

(٣) ينظر كبرى اليقينيّات: ص ١٣١.

(٤) الله يتجلى في عصر العلم: ص ٢١.

وقال باسكال: [صنفان من الناس يجوز أن نسميهم عقلاء: الذين يعرفون الله، والذين يجدون في البحث عنه، لأنهم لا يعرفونه]. وقال آدمون هربرت: [العلم لا يمكن أن يؤدي إلى الكفر، ولا إلى المادية ولا إلى التشكيك].

وقال إنشتاين: [إن الإيمان هو أقوى نتائج البحوث العلمية، وأن الإيمان بلا علم، ليمشي مشية الأعرج، وأن العلم بلا إيمان ليتلمس تلمس الأعمى]^(١). هذا هو الصواب، لأن الحق لا ينطلي على العلماء المتتورين، الذين يدركون الأدلة التي ذكرناها آنفاً. والتي تثبت وجود الله سبحانه وتعالى، أما الذين ينكرون وجوده تعالى، بحجة أنهم لم يدركوه بحواسهم، فهو لاء يتصورون بأن الحواس هي طريق المعرفة^(٢). إن واقعهم يكذبهم فهم يؤمنون بالجابزية والمغناطيسية والكهربائية، وبوجود الإلكترون والبروتون والنيوترون وبالعقل، ولم يروا شيئاً منها، بل رأوا آثارها فقط.

فمن أنكر وجود الله تعالى بحجة أنه لم يره، وآمن بما ذكرت، فما هو إلا مخادع لنفسه ومضل لغيره، لأن العقل هو الذي أدرك هذه الأمور وغيرها وليس الحواس، لأنها خداعة أحياناً، وما الحواس إلا آلات أعطت العقل أدوات الحكم ليصدر حكمه^(٣).

إذن الاعتقاد بوجود الله تعالى هو اعتقاد الفطرة، أما الإلحاد فهو طارئ على الفطرة وقد حدد القرآن الكريم أسبابه ومنها الكبر، قال تعالى: {وقال الذين لا يرجون لقاءنا، لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً}^(٤)، فالكبر وحده هو الذي دفعهم إلى تصور

(١) روح الدين الإسلامي لطبارة: ص ٦١، والطب محراب الإيمان: ص ٢٥٧.

(٢) نداء الروح للدكتور فاضل السامرائي: ص ٢٣. حيث أثبت علمياً خداع الحواس كالبيصر والسمع والذوق واللمس.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٧.

(٤) سورة الفرقان: الآيتان ٢١-٢٢.

الحياة هي كل شيء وليس وراءها إلا العدم. وكذلك الانحراف عن الطريق السوي الذي يعرف به الله سبحانه، قال تعالى: {وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات فاطلع إلى آله موسى وإنني لأظنه كاذباً} (١). والظلم دفع الكفار إلى اتهام المؤمنين بالله بأنهم: متوهمون وكاذبون... الخ، وهذا ما نراه اليوم من اتهاماتهم بأنهم: غير علميين وغير صادقين ومشوشون ومخدوعون، قال تعالى: {فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم} (٢). والطامة الكبرى والسبب الأعظم للإلحاد هو الجهل ذلك هو منطق الكافرين دائماً، وهو صورة ناطقة عن فقدان نور العلم وسلوك طريق الجاهلين المغالين، قال تعالى: {وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون} (٣).

وخلاصة القول: أن العلم لم يدع في يوم إلى الكفر والإلحاد، لأنه يتبع المنهج السليم في الوصول إلى حقائق الوجود ومظاهر الكون، ولم يقل في يوم أن هذا النظام الذي يجري عليه العالم قد نشأ صدفة، لأن الصدفة فوضى، والعلم أثبت بالدليل العقلي والعلمي الذي لا يقبل الريب، أن الله تعالى واجب الوجود وأنه علة الكون وأوجد المخلوقات ودبر أمرها ورتب حياتها ومماتها، قال تعالى: {قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد} (٤).

القدم: هو عدم الأولوية لوجوده تعالى، أي لا أول لوجوده تعالى. بمعنى: عدم افتتاح الوجود، فالباري سبحانه لا أول لوجوده، ومحال في حقه تعالى

(١) سورة المؤمنون: الآيتان ٣٦-٣٧.

(٢) سورة النساء: الآية ١٥٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ١١٨.

(٤) سورة الإخلاص: الآيات ١-٤.

الحدوث وهو ضد القدم، والدليل على قدمه تعالى من النقل الشريف:

قوله تعالى: {هو الأول} ^(١)، وقوله تعالى: {لم يلد ولم يولد} ^(٢). ومن السنة المطهرة ورود بعض الأخبار المتعلقة بالأسماء الحسنى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة، فساقها.... وذكر فيها: القديم الوتر الفاطر الرزاق) ^(٣).

ويطلق القديم في حق المخلوقات، ويراد به (القدم الزمني) الذي ينشئه طول المدة، إذ القديم من المخلوقات ما توالى على وجوده الأزمنة، قال تعالى في شأن القمر: {حتى عاد كالعرجون القديم} ^(٤)، والعرجون هو العنق اليابس، ويقال أيضاً: بناء قديم، وقلعة قديمة وكتاب قديم، وحقيقة قديمة كما في دوران الأرض مثلاً، فالقدم - في حق الحادث - طول مدة الوجود، والقدم بهذا المعنى محال في حق الله تعالى، لأن وجوده سبحانه ليس وجوداً زمانياً، ولا للزمان نسبة إلى وجوده البتة. والله تعالى منزّه عن الزمان والمكان والزمان. لأن الوجود الزماني من صفات المحدث. وقد تبين أنه حيث أطلق القدم على الله تعالى، وعلى المخلوقات، أريد بكل إطلاق معنى يليق بالمطلق عليه، فهو في حقه تعالى بمعنى مغاير لما هو في حق خلقه، ولا يقع الاشتباه بالاشتراك في الوصف المشترك ^(٥).

وقال الزبيدي ^(٦) رحمه الله: القديم صفة ذات، وقد اجتمعت الأمة على وصفه تعالى به، ولم يرد في القرآن لفظ صريح، ولا أثر صحيح، لكنه دل عليه القرآن بقول تعالى: {وما نحن بمسوقين} ^(٧).

(١) سورة الحديد: الآية ٣.

(٢) سورة الآية ٣.

(٣) المستدرک علی الصحيحین: ج ١ ص ٦٣، والاعتقاد للبيهقي: ج ١ ص ٥١.

(٤) سورة يس: الآية —

(٥) شرح جوهره التوحيد: ج ١ ص ٢٨٣-٢٨٤.

(٦) إتحاف السادة المتقين: ج ٢ ص ٩٥.

(٧) سورة الواقعة: الآية ٦٠.

وقد استدل لصفة القدم بدليل عقلي هو: أنه سبحانه لو لم يكن قديماً لكان حادثاً، لأن الوجود منحصر عقلاً في هذين القسمين، ولو كان حادثاً لافتقر إلى محدث، وهكذا محدثه يفتقر إلى محدث، لانعقاد المماثلة بينهما، حتى ينتهي الأمر إلى الدُّور أو التسلسل، وكلاهما باطل، ويلزم أن القول بحدوثه سبحانه باطل كذلك، وإذا ثبت بطلان الحدوث ثبت القدم، إذ لا واسطة بينهما. ولو كان حادثاً سبحانه لاستحال وجود المخلوقات كلها^(١).

ثم لثبوت معنى (القدم، والأولية) في حق الله تعالى، لا يصح أن يسأل عنه سبحانه بمتى؟ لأن كل من يتناوله السؤال بمتى كان؟ يكون وجوده مخصوصاً بزمان مطلوب تحديده من الإجابة، وبالتالي فإن وجوده المخصوص مسبوق بعدم لا محالة، فيكون العدم سابقاً على وجوده، وهذا محال في حقه تعالى، كيف لا وهو واجب الوجود؟ ليس له أول، بل هو الأول لكل شيء، وليس له آخر، بل هو آخر كل شيء، وكان دوامه سبحانه منزهاً عن الزمان، وبقاؤه مقدساً عن قولنا: [كان ويكون] لأن كل ذلك من صفات من كان منعوتاً بالحدوث والإمكان، ولا يليق بسرمدية الأزلي الأبدي^(٢) الذي: {لم يلد ولم يولد}^(٣)، القائل سبحانه: {كل شيء هالك إلا وجهه}^(٤). وقوله عز من قائل: {كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام}^(٥).

البقاء: عبارة عن عدم الانقضاء لوجوده تعالى، وهو عدم أخروية الوجود له سبحانه، بمعنى عدم اختتام وجوده قال تعالى: {لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه}^(٦)، وقال سبحانه: {كل من عليها فان ويبقى وجه ربك

(١) نيل المرام في شرح عقيدة العوام: ص ٥.

(٢) شرح جوهرة التوحيد: ج ١ ص ٢٨٦.

(٣) سورة الإخلاص: الآية ٣.

(٤) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٥) سورة الرحمن: الآية ٢٦-٢٧.

(٦) سورة القصص: الآية ٨٨.

ذو الجلال والإكرام^(١)، وقال عز وجل: {هو الأول والآخر^(٢)}. والبقاء معناه أيضاً أن الله تعالى أبدي، ليس لوجوده آخر، فيستحيل أن يلحقه العدم والفناء^(٣).

والدليل العقلي على بقاءه تعالى:

١- لو لم يكن الله تعالى باقياً، لكان فانياً، لأن ضد البقاء الفناء، ولو كان فانياً لكان حادثاً، ولو كان حادثاً لاحتاج إلى محدث، ومحدثه يحتاج إلى محدث... وهكذا فليزِم الدَّورُ أو التسلسل، وكلاهما باطل، فثبت بقاءه تعالى. ولو جاز عليه تعالى العدم لاستحال عليه القدم، وهو باطل لثبوت قدمه تعالى^(٤).

٢- لو جاز عدمه لاحتاج انعدامه بعد وجوده إلى علة، لاستحالة الترجيح بلا مرجح.

٣- وإذا جاز انعدامه، فإما إن ينعدم بنفسه (بأن يكون انعدامه أثراً لقدرته) وهو باطل، لأنه ثبت أنه علة وجود الموجودات، فلا يقبل الانتفاء بحال، فيلزم بقاءه كما يلزم قدمه. أو ينعدم بمعدم يضاده وهو باطل أيضاً، لأن الضد إما قديم فيلزم انتفاء الباري سبحانه معه من الابتداء أصلاً، لأن التضاد يمنع الاجتماع بين الشئيين اللذين اتصفا به، وقد ثبت وجوده، أو حادث فيلزم اندفاع وجوده بمضاد قديم، لأن القديم أقوى من الحادث^(٥).

(١) سورة الرحمن: الآية ٢٦-٢٧.

(٢) سورة الحديد: الآية ٣.

(٣) المسامرة: ص ٢٤.

(٤) الدُّردير على الخريدة والصاوي عليه: ص ٦١.

(٥) المسامرة: ص ٢٤-٢٥، وينظر الاقتصاد في الاعتقاد: ص ٩٢، والباجوزي على الجوهرة:

ج ١ ص ٥١، وشرح المواقف: ص ٤٧٠.

تصور صفة القدم والبقاء:

من السهل على الإنسان أن يفهم صفة الرحمة والعدل والجلال.... الخ في ذات الله تعالى، لأنه يفهم آثارها، ويستطيع أن يدرك معانيها في الحياة بحواسه، إلا أنه يستحيل عليه أن يدرك صفة القدم أو صفة البقاء، لأنه لا يحتفظ بصورة لها في الحياة، لأنها خاصة بذات الله تعالى. لكن لا تعني الاستحالة الخيالية إنكار هاتين الصفتين، لأن العقل يجزم بثبوتهما كما بينا ذلك في الدليل العقلي.

فرب أمر يدرك العقل إمكانه أو وجوده، وهو في الوقت نفسه يعجز عن تصوره وإدراك كنهه، وقديماً قال عامة العقلاء: [عدم الوجدان للشيء لا يستلزم عدم وجوده في الواقع]^(١). ومنها قصة المكتبة التي ضرب بها انشأتين مثلاً رائعاً عندما سأله صحفي وهو جالس في مكتبة الجامعة التي يدرس فيها: أمن العلم أن تؤمن بالله، وهذه العقيدة فكرة غيبية، غير خاضعة لمختبر العلم؟

فأجابته: انظر إلى هذه المكتبة بكتبها الملايين، أليس لكل كتاب مؤلف؟ قال: نعم، قال: فإن دخل طفل إلى المكتبة، فهل يدرك ما في هذه الكتب من العلوم والمعارف؟ قال: لا، قال: فهل يعرف مؤلفيها؟ قال: لا، قال: فهل عدم إدراك الطفل للكتب ومؤلفيها، يقوم دليلاً علمياً على عدم وجودها، قال: لا، قال: فكذلك الكون بما فيه من صور ومشاهد وقوانين، فإن عدم إدراك العقول السطحية الجاهلة التي لا تتأمل خالقه، لا يقوم دليلاً علمياً على نفي وجوده، ثم أخذ يشرح له دقة النظام الذي لاحظته في

الوجود مما لا يدع مجالاً للشك في وجود الله تعالى وقدمه وبقائه^(١).

المخالفة للحوادث:

هي عدم المماثلة لشيء من المخلوقات، أي لا نظير، ولا شبيه، ولا مثيل له تعالى^(٢). ومعناها: أن الله تعالى ليس مماثلاً لشيء من الحوادث الموجودة والمعدومة مطلقاً، فهي عبارة عن: سلب الجرمية، والعرضية، والكلية، والجزئية، ولوازمها عنها تعالى^(٣). فلازم الجرمية هو التحيز، ولازم العرضية هو القيام بالغير، ولازم الكلية هو الكبر، ولازم الجزئية هو الصغر^(٤). وضدها: المماثلة للحوادث وهو محال على الله تعالى.

والدليل النقلي على ذلك:

قوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}^(٥).

أما الدليل العقلي فهو:

١- أنه تعالى لو لم يكن مخالفاً للحوادث لكان مماثلاً لها، ولو كان مماثلاً للحوادث، لكان حادثاً مثلاً لها، ولو كان حادثاً لاحتاج إلى محدث، ومحدثه يحتاج إلى محدث.... وهكذا يلزم الدور أو التسلسل، وكلاهما باطل، فثبت مخالفته للحوادث.

(١) ينظر أصول الدين الإسلامي: ص ١١١، وقد ذكر الدكتور دينرت الألماني بحثاً حل فيه آراء أكابر العلماء في القرون الخمسة الأخيرة ودرس عقيدتهم فثبت له من دراسته ٢٩٠ عالماً في الفيزياء والرياضيات والأحياء والفلك أن ٢٤٢ عالماً أعلنوا في كتبهم ودراساتهم الإيمان بالله، وهذا يعني أن ٩٢% منهم مؤمنون بالله تعالى. ولك أن تراجع كتب العلماء مثل "الله" للعقاد وعقائد المفكرين في القرن العشرين له أيضاً، والله يتجلى في عصر العلم لمجموعة من العلماء، وقصة الإيمان للشيخ نديم الجسر لوجدت أسماء هؤلاء العلماء بالتفصيل.

(٢) النظير: هو المساوي ولو في بعض الوجوه، والشبيه: هو المساوي في أغلب الوجوه، والمثيل: هو المساوي في جميع الوجوه. ينظر المعرفة: ص ٤٢.

(٣) أي ليس الله تعالى جرمًا ولا عرضًا ولا كلاً ولا جزءاً. ينظر أصول الدين الإسلامي: ص ١٢١.

(٤) الباجوري على الجوهرة: ج ١ ص ٥٢.

(٥) سورة الشورى: الآية ١١.

٢- كل من وجب له القدم، استحال عليه العدم، ولا شيء من الحوادث يستحيل عليه العدم، فلا شيء منها بقديم فثبتت المخالفة^(١).

٣- واجب له سبحانه المخالفة لجميع الحوادث، إذ لو شابهها لجاز عليه ما يجوز عليها من صفات النقص، وأمارات الحدوث، من الوجه الذي وقعت فيه المشابهة، إذ الحوادث متصفة بالافتقار إلى من خصصها بالحدوث، وبالزمان وبالمكان، وبالهئية وبالجهة، وبالمقدار، فما من موجود سوى الباري سبحانه إلا وهو ملازم لهذه السمات لا ينفك عنها.

٤- قال أسد حمزة الزبيدي رحمه الله: [لو لم يكن مخالفاً للحوادث لكان مماثلاً، ولو كان مماثلاً لكان عاجزاً، ولو كان عاجزاً لما وجد هذا الكون. والحاصل أن كل ما خطر ببالك من صفات الحوادث فאלله بخلاف ذلك]^(٢).

ونفي المماثلة يفيد الأمور الآتية:

١- أنه تعالى ليس بعرض، لما يأتي: لأن العرض يحتاج إلى جسم يقوم به، فيستحيل وجود العرض قبل الجسم، وقد ثبت أن الله موجد. ولأن احتياجه إلى شيء يقوم به علامة الحدوث.

٢- وليس بجوهر: لأنه ملازم للعرض، والعرض حادث، فيلزمه حدوثه. ولأنه كذلك يوهم التركيب والتحيز.

٣- وليس بجسم: لأن الجسم مؤلف من جواهر وأعراض، وقد أثبتنا حدوثهما فيما تقدم. وذلك خلافاً: للمجسمة الذين قالوا بأنه تعالى جسم حقيقة، لكنهم اختلفوا: فقال بعضهم: هو مركب من لحم ودم، وبعضهم

(١) الباجوري على الجوهرة: ج ١ ص ٥٣.

(٢) نيل المرام في شرح عقيدة العوام: ص ٦.

أنه نور يتلأل كالسبيكة البيضاء، وبعضهم: على صورة إنسان شاب أمرد، وبعضهم: على صورة شيخ أشمط الرأس واللحية^(١).... تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

٤- وليست له صورة أو لون أو رائحة أو عوارض النفس من لذة وألم وفرح، لأن ذلك في خصائص الأجسام.

٥- ولا يوصف بالصغر أو الكبر، والكبر هنا يراد به الحسي، أما المعنوي فيوصف به لأنه صفة كمال لقوله تعالى: {وهو العلي الكبير}^(٢).

٦- ولا متمكناً بمكان^(٣)، وما جاء بالحديث القدسي: (ما وسعني أرضي ولا سمائي، وإنما وسعني قلب عبدي المؤمن)، فيراد به: وسع هيبتي ورحمتي، والمعنى أشد وضوحاً في الحديث القدسي الآخر: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، وإن استعاذ بي لأعيذه)^(٤). فيراد به: الكناية عن استيلاء محبة الله على الشخص، حتى أغنته عن شهود سواه.

٧- ولا مختصاً بجهة لما يأتي:

أ- لأن الجهات حادثة بإحداث الإنسان وغيره، فإن معنى الفوق: ما يحاذي رأس الإنسان، أو ظهر من يمشي على أربع أو على بطنه من جهة العلو، وهي جهة السماء أين ما كان في القطب الشمالي أو الجنوبي أو خط الاستواء على طوله وعرضه، ومعنى السفلى: ما

(١) أشمط: أبيض، ينظر أصول الدين الإسلامي: ص ١٢٢.

(٢) سورة سبأ: الآية ٢٣.

(٣) ينظر صفة القيام بالنفس لاحقاً.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الرقاق - التواضع، مع شرحه في فتح الباري: ج ١١ ص ٣٤٠.

يحاذيه من جهة الأرض. ثم أن الجهات اعتبارية غير حقيقية، والله تعالى منزّه الذات عن الاختصاص بالجهات^(١). حتى أن النملة إذا مشّت على سقف، كان الفوق بالنسبة لها جهة الأرض، لأنها تحاذي ظهرها. ولو كان كل حادث مستديراً، لم توجد واحدة من هذه الجهات.

ب- أن الله تعالى موجود في الأزل، ولم يكن شيء من المخلوقات، لأن كل ما سواه حادث، كما مر دليله.

ج- أن الاختصاص بجهة هو اختصاص بحيز، والحيز مختص بالجوهر والجسم، وقد مر تنزيهه عنهما. فإن قيل: لم ترفع الأيدي إلى السماء؟ أجيب: بأن السماء قبلة الدعاء، كما أن الكعبة قبلة الصلاة. فهو تعالى غير مختص بجهة، خلافاً للكرامية: الذين أثبتوا لله جهة الفوق، من غير استقرار على العرش^(٢). والمشيبة والمجسمة: الذين قالوا باستقراره على العرش^(٣). وهو باطل بإجماع العقلاء.

٨- ولا يجري عليه زمان.

٩- ولا تصح له الحركة والانتقال، والاتصال في الذات: بأن يكون مركباً، تتصل أجزاؤها ببعضها. أو بالغير فهو ليس متصلاً بالعالم، بحيث يكون حالاً أو سارياً فيه.

١٠- ولا الانفصال عن العالم، لأن هذه الأمور من صفات الحوادث، والله ليس بحادث.

(١) ينظر إحياء علوم الدين: ج ١ ص ١٠٦، والمواقف في علم الكلام: ص ٢٧٠.

(٢) الكرامية من فرق المشبهة وهم أتباع محمد بن كرام السجستاني (ت ٢٢٥هـ) وهم طوائف عقاندهم باطلة، ينظر الفرق بين الفرق: ج ١ ص ٢٢.

(٣) يثبت كثير من الحنابلة جهة العلو لله تعالى، واستواءه على العرش مع قولهم بنفي التجسيم، ينظر أدلتهم وأقوال العلماء في ذلك في شرح العقيدة الطحاوية: ص ٢٥١ وما بعدها، ولوامع الأنوار البهية: ج - ص ١٩٠ وما بعدها.

١١- ولا الاتصاف بالألوان والأشكال. وذلك خلافاً للمشبهة، الذين شبهوا البارئ بالمخلوقات^(١).

١٢- ولا الاتحاد ولا الحلول. خلافاً: للنصارى القائلين باتحاد جسده بجسد المسيح، ولغلاة الرافضة القائلين بحلوله بعلي وأولاده، ولغلاة المتصوفة^(٢) القائلين بحلوله بالسالكين المنتهين في سلوكهم إلى نهاية الدرجات الروحية العالية^(٣).

والذي ذكرناه في مخالفته تعالى للحوادث هو ما ذهب إليه جميع فرق الإسلام، من معتزلة وماتريدية وأشاعرة وشيعية، عدا من ذكرناهم من المشبهة والمجسمة وغيرهم.

القيام بالنفس:

والمراد (بالنفس) الذات، لأن الصحيح جواز إطلاق النفس على ذات الله تعالى، باعتبار مأخذه من (النفس) لأنه سبحانه أنفس الأشياء، وأعزها، قال تعالى: {ويحذركم الله نفسه}^(٤)، وأخبر أن المسيح عليه السلام يقول يوم القيامة: {تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك}^(٥). وأما النفس باعتبار مأخذه من (النفس) فلا يصح إطلاقه على الله تعالى.

(١) ينظر الملل والنحل للشهرستاني: ج ١ ص ١٣٧، ومقالات الإسلاميين: ج ١ ص ٢١٤، والغنية للجبلي: ص ٨١.

(٢) الصوفية على طبقات عدها شيخ الإسلام ابن تيمية ثلاث منها أهل الحق ومنها صوفية المراسم وصوفية الأرزاق، وبين حضرة الشيخ الدكتور عبدالله مصطفى في كتابه معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي الموقف الشرعي الدقيق لهذا الاتجاه وسمي من خالف منهج الكتاب والسنة ومنهج الروح في الإسلام بمتصوفة الانتحال والاستغلال، راجعه بقوة ففيه الخير الكثير.

(٣) ينظر المسامرة: ص ٢٥-٣١، والمواقف وشرحه للجرجاني: ص ٤٧٣-٤٧٤، وعقائد الإمامية للمظفر: ص ٣٦.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٣٠.

(٥) سورة المائدة: الآية ١١٦.

قال حضرة الشيخ عبدالله مصطفى الهرشمي رحمه الله:

[وما تقلبت من نومي وفي سنتي ولا نشدت جهاراً أو على همس
وما تنفسَ صبح من مشاركته إلا وذكرك بين النفس والنفس^(١)
ومعنى القيام بالنفس شيئان:

أولهما: عدم افتقاره تعالى إلى محل. وللمحل تفسيران:

١. الذات التي يقوم بها، لا بمعنى المكان، لأن ذلك علم من مخالفة الحوادث.
٢. الذات والمكان معاً. قاله الغنيمي.

ثانيهما: عدم افتقاره إلى المخصّص، أي الموجد^(٢).

الدليل النقلي على ذلك: قال تعالى: {يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد^(٣)}. وقوله تعالى: {إن الله لغني عن العالمين^(٤)}.

الدليل العقلي على ذلك:

- ١- الدليل على عدم افتقاره إلى مخصّص: أنه لو افتقر إلى مخصّص، لكان حادثاً، كيف وقد سبق وجوب وجوده وقدمه وبقائه ذاتاً وصفاتاً؟
- ٢- الدليل على عدم افتقاره إلى محل:

أ- لو افتقر إلى محل، لكان صفة، ولو كان صفة، لم يتصف بصفات المعاني، وهي واجبة القيام به تعالى، للأدلة الدالة على ذلك، وذلك باطل. فثبت عدم افتقاره إلى محل^(٥).

(١) ديوان نفحات الحياة: ص ١٣٣.

(٢) الباجوري على الجوهرة: ج ١ ص ٥٣.

(٣) سورة فاطر: الآية ١٥.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٦.

(٥) الدريد على الخريدة: ص ٦٢. والباجوري على الجوهرة: ج ١ ص ٥٤.

ب- المتمكن محتاج إلى مكانه، بحيث يستحيل وجوده بدونـه. والمكان مستغن عن المتمكن لجواز الخلاء، فيلزم إمكان الواجب، ووجوب المكان، وكلاهما باطل^(١).

فإن قيل: كيف يتصور عدم تحيزه تعالى في مكان؟

فالجواب هو: إن تصور المكان لأي جسم، يكون نتيجة ملاحظة واستقرار أحوال الأجسام التي نراها حالة في مكان ما، أما قياس الله تعالى على الأجسام في وجود التحيز، فهو قياس باطل، ولا علة جامعة بين الأصل والفرع، وذلك: لأن العقل البشري محدود وقاصر عن إدراك كثير من الأمور، فهو يحكم بوجود أشياء كثيرة كالروح والعقل في الجسم، والكهرباء في الأسلاك المعدة لجريانها بها، وإن لم يعرف حقيقتها أو كنهها ولا يدرك من سرها شيئاً.

فإذا كان العقل البشري قاصراً عن إدراك كثير مما فيه وحوله، فكيف يمكن أن يتصور عدم تحيزه تعالى في مكان؟ مع أنه قطع بوجوده تعالى، وقصر عن إدراك كنهه وتصوره وفهمه؟ فحسب الإنسان إذن أن يؤمن بوجوده تعالى وبصفاته، ثم يحار في فهمه وتصوره. وهذه هي حقيقة الإيمان بالغيب التي أمر الله به عباده^(٢).

الوحدانية:

معناها: عدم التعدد في الذات أو الصفات أو الأفعال. فالوحدانية في الذات: تنفي (الكـ المتصل) الذي هو التركيب، أي: تركيب الذات من أجزاء. وتنفي (الكـ المنفصل) الذي هو التعدد، بحيث يكون هناك إلهان فأكثر.

والوحدانية في الصفات: تنفي (الكـ المتصل) الذي هو إثبات صفة لغيره تعالى تشبه صفته، كأن يكون لزيد أو حسن قدرة يوجد بها ويعدم كقدرته

(١) المواقف وشرحه: ص ٤٧٢.

(٢) كبرى اليقينيّات الكونية: ص ١٢٠-١٢٢، وأصول الدين الإسلامي: ص ١٣٣.

تعالى، أو إرادة تخصص الشيء ببعض الممكنات.

والوحدانية في الأفعال: تنفي (الكَم المنفصل)^(١) فقط، الذي هو إثبات فعل غيره تعالى على طريق الإيجاد والخلق^(٢).

و ضد الوحدانية: التعدد في الذات أو الصفات (اتصالاً وانفصالاً) وفي الأفعال (انفصالاً) فقط.

وقد ذكر العلماء أدلة نفي الكموم الخمسة بالتفصيل فمن أراد الفائدة فعليه العودة إلى كتبهم وأقوالهم ودراساتهم حول هذا الموضوع ففيه الخير والبرهان وثبات اليقين^(٣).

ويجب لله عز وجل الوحدانية في الذات والصفات والأفعال، أما وحدانية الذات فتنتفي أن يكون لله تعالى شريكاً، أو أن تشبه ذاته الذوات، أي: أن ذاته تعالى ليست مركبة من أجزاء كذواتنا وليس في الخلق ذات كذاته، وأن صفاته ليست متعددة، فليس له تعالى صفتان فأكثر من جنس واحد، كقدرتين أو إرادتين أو علمين مثلاً، بل له قدرة واحدة يوجد بها ويعدم بها كل ممكن، وليس لأحد صفة كصفاته تعالى، وأنه تعالى المنفرد بالأفعال كلها، فلا مؤثر في الوجود معه في فعل من الأفعال. وضدها أي الوحدانية: التعدد في ذلك.

(١) أما الكم المتصل بالأفعال: فإن صورناه بتعدد الأفعال، فهو ثابت، لا يصح نفيه، لأن أفعاله كثيرة من خلق ورزق وإحياء... الخ، وإن صورناه بمشاركة غير الله له في فعل من الأفعال، فهو منفي أيضاً بوحدانية الأفعال، ينظر الباجوري على الجوهرة: ج ١ ص ٥٤، والصاوي على الدردير: ص ٦٤.

(٢) ينظر الباجوري على الجوهرة: ج ١ ص ٥٤، والدردير شرح الخريدة: ص ٦٤، ورسالة في التوحيد للطائي: ص ٣٩-٤٢.

(٣) ينظر المقاصد وشرحه: ج ٢ ص ٦١، والدردير شرح الخريدة: ص ٦٤، وإحياء علوم الدين: ج ١ ص ١١٣، وشرح الجوهرة: ج ١ ص ٥٥.

لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون^(١) وقال عز شأنه: {ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله، إذا ذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون^(٢)}.
 ٢

يقول الإمام الشهرستاني رحمه الله تعالى: [ولست أعرف صاحب مقالة صار إلى إثبات إلهين، يثبت لكل واحد منهما خصائص الإلهية ما يثبت للثاني، لأن الثنوية وإن صارت إلى إثبات قديمين، لم تثبت لأحدهما ما ثبت للثاني من كل وجه. والفلاسفة وإن قضوا بكون العقل والنفس أزليين، وقضوا بكون الحركات سرمدية، لم يثبتوا للمعلوم خصائص العلة، كيف وأحدهما معلول، والثاني علة، والصابئة وإن أثبتوا كون الروحانيين والهيكل أزلية سرمدية مدبرة لهذا العالم، وسموها أرباباً وآلهة، فلم يثبتوا فيها خصائص رب الأرباب^(٣)].
 ٢

ولو قدرنا إلهين فإما أن يكونا مختلفين في الصفات الذاتية، أو متماثلين، والمختلفان يستحيل أن يكونا إلهين، لأن الصفة الذاتية التي تقدس بها الإله عن غيره، إذا كانا مختلفين فيها كان الذي اتصف بها هو الإله، والمخالف ليس بإله. وإما أن يكونا متماثلين في الصفات الذاتية من كل وجه فالمتماثلان ليس يتميز أحدهما عن الثاني بلوازم زائدة على الحقيقة، مثل الحقيقة والمكان والزمان، وكل ذلك ينافي الإلهية، أليس لما كان السوادان متماثلين لم يتميز أحدهما بحقيقة السوادية، بل باختلاف المحل، أو باختلاف الزمان، وكذلك الجوهران، فدل ذلك على أن التماثل في الإلهية لن يتصور بوجهه، وقوله تعالى: {ليس كمثله شيء} إشارة إلى هذا المعنى^(٤).
 ٢

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

(٢) سورة المؤمنون: الآيتان ٩١-٩٢.

(٣) إتمام النصيحة لمريد العقيدة الصحيحة: ص ١٠٤.

(٤) نهاية الاقدام: ص ٩١-٩٣.

وقال الإمام الايجي رحمه الله: [واعلم أنه لا مخالف في هذه المسألة إلا الثنوية، فإنهم قالوا: نجد في العالم خيراً كثيراً وشرّاً كثيراً، وأن الواحد لا يكون خيراً شريراً بالضرورة، فكل فاعل. والجواب: منع قولهم: الواحد لا يكون خيراً شريراً، اللهم إلا أن يراد بالخير من يغلب خيره، وبالشرير من يغلب شره، كما ينبئ عنه ظاهر اللغة، لكنه غير ملزم، فلا يفيد إبطاله، ثم بعد يقال لهم: الخير إن قدر على دفع شر الشرير ولم يفعله فهو شرير، وإن لم يقدر عليه فهو عاجز، فتعارض خطابهم بخطابة أحسن من ذلك مآلاً وأكثر إقناعاً^(١).

وهذه هي الصفات السلبية وهي خمس: القدم، البقاء، المخالفة للحوادث، القيام بالنفس، والوحدانية^(٢). وليس المراد بكونها سلبية، أنها مسلوقة عن الله تعالى ومنفية عنه، وإلا لزم أن يثبت له الحوادث وطرو العدم ومماثلة الحوادث، بل المراد بكونها سلبية: أن كل واحدة سلبت (نفت) أمراً لا يليق به جل جلاله وعم نواله^(٣).

فالقدم سلب لأولية الوجود، والبقاء سلب لأخروية الوجود.... وهكذا، والحق أن الصفات السلبية لا تنحصر في هذه الخمسة، إذ من جملتها: أنه لا ولد له، ولا زوجة، ولا بسيطاً، ولا مركباً، ولا في مكان ولا زمان، ولا جهة، وغير ذلك وإنما اقتصر على هذه الخمسة، لأنها أمهاتها^(٤).

فانمّ غني: معنى هذه الصفة أن الله تعالى غني عن كل ما سواه مفتقراً إليه كل ما عداه، قال سبحانه وتعالى: {وَعنت الوجوه للحي القيوم}^(٥)، عنت:

(١) المواقف في علم الكلام: ص ٢٧٩.

(٢) حصرها بهذا العدد: الباجوري في شرح الجوهرة: ج ١ ص ٥٠، والدردير في شرح الخريدة، والصاوي عليه: ص ٥٨، ورسالة في التوحيد والفرق المعاصرة للطائي: ص ٢٥.

(٣) الصاوي على الدردير: ص ٧٦.

(٤) الباجوري على الجوهرة: ج ١ ص ٥٠، والصاوي على الدردير: ص ٧٦.

(٥) سورة طه: الآية ١١١.

أي خضعت. وقيل الغني: المتمكن من تنفيذ إراداته في مراداته^(١).

الصفات المعاني: وهي سبع: الحياة، والقدرة، والإرادة، والعلم، والسمع، والبصر، والكلام^(٢).

ومعنى كونها صفات معان: أن كل صفة منها معنى وجودي قائم بذات الله تعالى. وسميت ذاتية: لأنها لا تنفك عن الذات. ووجودية: لأنها متحققة باعتبار نفسها. أي: التي لها وجود في نفسها قديمة كعلمه تعالى، وحادثه كعلمنا^(٣). ومعناها: إن الله تعالى سميع بصفة تسمى سمعاً، وبصير بصفة تسمى بصراً، وعليم بعلم، وقدير بقدرة، ومريد بإرادة، وحي بحياة. وهذه الصفات:

١. أزلية: أي ليست حادثه، لأن الله تعالى واجب الوجود لا تقوم الحوادث بذاته.

٢. وقائمة بذاته: أي ليست قائمة بذاتها، بمعنى ليس لها وجوداً خارجياً مستقلاً.

٣. وهي ليست غير الذات، ولا عين الذات، ولكنها زائدة على الذات^(٤). بمعنى أن كلاً من الذات المقدسة وصفاتها لا يتصور انفكاك أحدهما عن الآخر من حيث الوجود، وإن كان مفهوم الذات غير مفهوم الصفة^(٥). وعندئذ لا تؤدي إلى تعدد وكثرة، لأنه لا غيرية بين الصفة والذات، ولا انفكاك بينهما ولا انتقال^(٦).

(١) نيل المرام في شرح عقيدة العوام: ص ٦.

(٢) شرح الدربير على الخريدة والصاوي عليه: ص ٩٦.

(٣) الدربير والصاوي عليه: ص ٧٦، والوسيلة: ص ٤٩١.

(٤) المسامرة: ص ٧٠، والمواقف: ص ٤٧٩.

(٥) المسامرة: ص ٧٢، والصاوي على الدربير: ص ٨٩.

(٦) وقد لزم النصارى الكفر لأنهم قالوا بالغيرية، وجوزوا الانتقال والانفكاك بين الذات والصفة.

ينظر العقائد النسفية شرح رمضان أفندي: ص ١٢٢، والصاوي: ص ٨٩، ودراسات في

الفرق: ص ٢٤٠.

واستدل جمهور العلماء على وجودها بأدلة كثيرة نذكر أهمها:

١- أن الله تعالى أطلق على نفسه هذه الأسماء في كتابه الكريم، وعلى لسان نبيه الصادق الأمين ﷺ والمفهوم في اللغة من عليم: ذات ذات علم، ومن قدير: ذات ذات قدرة... الخ من الأوصاف المشتقة. بل يستحيل عند أهل اللغة: عليم بلا علم، كاستحالة علم بلا معلوم، أو كاستحالة عليم بلا معلوم، فلا يجوز صرفه عن معناه إلا لقاطع عقلي، ولم يوجد فيه ما يصلح شبهة، فضلاً عن وجود دليل^(١).

٢- لو كان العلم نفس الذات، والقدرة نفس الذات، كما قالوا^(٢)، لكان العلم نفس القدرة، فكان المفهوم من العلم والقدرة أمراً واحداً، وأنه ضروري - بدهي - البطلان، وكذا الحال في بقية الصفات، التي ادعى أنها عين الذات^(٣).

٣- لو كان علمه ذاته، كما قالوا، لكان العلم واجباً معبوداً صانعاً للعالم موصوفاً بالكمال^(٤).

ولغرض التوضيح بأدلة الكتاب والسنة المطهرة سوف نذكر تفصيل كل صفة على حدة وسوف نقف على سبب اعتراض بعض الفرق الإسلامية على هذا المفهوم ونناقش الأسباب التي دعتهم لذلك:

الحياة: صفة أزلية توجب صحة العلم والإرادة وباقي صفات المعاني والمعنوية^(٥). وليس معنى الحياة في حقه تعالى، ما يقوله الطبيعي من قوة

(١) المسامرة: ص ٧١.

(٢) وهو مذهب المعتزلة والفلاسفة والإمامية وهو نفي الصفات الزائدة عن الذات. ينظر المواقف وشرحه: ص ٤٧٩، والاقتصاد في الاعتقاد: ص ١٥٠، والمقاصد وشرحه: ج ٢ ص ٧٢، وعقائد الإمامية: ص ٣٩، والشيعية بين الأشاعرة والمعتزلة للحسني: ص ١٩٢.

(٣) المواقف وشرحه: ص ٤٨٠.

(٤) المقاصد وشرحه: ج ٢ ص ٧٣.

(٥) الدردير على الخريدة: ص ٧٨ والصاوي عليه.

الحس ولا قوة التغذية ولا القوة التابعة للاعتدال النوعي^(١)، كما أن حياة الله بلا روح، بخلاف حياة الحادث فإنها بالروح^(٢). وضدها الموت وهو محال على الحي القيوم تبارك وتعالى.

الدليل النقلى على ذلك:

قوله تعالى: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم}^(٣). وقوله تعالى: {هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين}^(٤).

وكان من منهج حضرة النبي الأكرم عليه السلام أنه يقول بعد انتهائه من صلاته: (أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه) ثلاث مرات، ويأمر به أصحابه وأحبابه^(٥).

الدليل العقلي على ذلك:

١- لو لم يتصف الله تعالى بالحياة، لما صح اتصافه بالقدره والإرادة والعلم، لأنه لا يتصور قيامها بغير الحي، وهو محال^(٦).

٢- الحياة صفة كمال، ونقيضها نقص، والله منزّه عن النقائص^(٧).

٣- اتصافه تعالى بضد الحياة، لا تجعله واهب الحياة، لأن فاقده الشيء لا يعطيه^(٨). ولو كان متصفاً بالموت لم يوجد شيء من هذه المخلوقات.

لو لم يكن حياً مريداً عالماً وقادراً لما رأيت عالماً

(١) المسامرة: ص ٦٢.

(٢) الصاوي على الدردير: ص ٧٨.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٤) سورة غافر: الآية ٦٥.

(٥) ينظر خلاصة شوارق الأنوار من أدعية السادة الأخيار: ص ١٢-١٣.

(٦) المواقف: ص ٤٩٢، وشرح المقاصد: ج ٢ ص ٩٧، والبايجوري على الجوهرة: ج ١ ص ٦٤.

(٧) ابن قطلوبغا على المسامرة: ص ٦٢.

(٨) رسالة في التوحيد: ص ٤٩.

تعلق صفة الحياة:

صفة الحياة لا تتعلق بشيء، أي: لا تتعلق بموجود أو معدوم، فلا تستلزم أمراً زائداً على القيام بمحلها. وتعالى معنى التعلق: هو اقتضاء الصفة أمراً زائداً على قيامها بالذات، فالقدرة تقتضي مقدوراً، والإرادة مراداً، والسمع والبصر يقتضيان مسموعاً ومبصراً والعلم يقتضي معلوماً، والكلام مدلولاً، أما الحياة فلا تقتضي شيئاً زائداً على الذات^(١).

فائدة: يا من تعلقت نفسه بسلطان وقدرة الفاني تذكر أن الله حي لا يموت وسلطانه باقي لا يذهب ولا يزول، فاحرص على طاعته ومحبته واتباع منهج نبيه المصطفى ﷺ.

القدرة: صفة أزلية يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه^(٢). وضدها العجز، بمعنى أنها صفة وجودية قائمة بذاته تعالى يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه على وفق الإرادة^(٣).

الدليل النقلي على ذلك:

قوله تعالى: {إن الله على كل شيء قدير^(٤)}، وقوله سبحانه: {وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً^(٥)}.

الدليل العقلي على ذلك:

١- أنه تعالى لو لم يتصف بالقدرة، لكان عاجزاً. ولو كان عاجزاً، لما وجد شيء من هذه المخلوقات الحوادث المحكمة الصنعة المرتبة المتقنة، وعدم وجود شيء من الحوادث باطل بالمشاهدة.

(١) شرح الدردير على الخريدة: ص ٨٥.

(٢) شرح الدردير على الخريدة: ص ٧٨.

(٣) المعرفة: ص ٤٩.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٠٩.

(٥) سورة فاطر: الآية ٤٤.

٢- لو كان عاجزاً، لكان ناقصاً، والنقص على الإله محال، لأنه لو كان ناقصاً لاحتاج إلى من يكمله ومكمّله يحتاج إلى مكمل آخر.... وهكذا فيلزم الدّور أو التسلسل، وكلاهما باطل^(١).

٣- الله صانع قديم، له مصنوع حادث، وصدور الحادث عن القديم، لا يتصور إلا بطريق القدرة، فالله تجب له القدرة^(٢).

قال الإمام الغزالي رحمه الله: [العالم محكم في صنّعه، مرتّب في خلقه، ومن رأى ثوباً من ديباج حسن النسيج والتأليف، متناسب التطريز والتطريف، ثم توهم صدور نسجه عن ميت لا استطاعة له أو عن إنسان لا قدرة له كان منخلعاً عن غريزة العقل، ومنخرطاً في سلك أهل الغباوة والجهل، فصدور الأفعال المحكمة المتقنة برهان ساطع على قدرة من صدرت عنه، إذ لولا القدرة لما كانت، أي ظاهرة من ظواهر الكون: كالإبداع والحياة والهداية، والإجابة، والنعم، ولا كان الكون نفسه، وقولك: (الله صانع العالم قادر) قضية صحيحة، قال تعالى: {ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب}^(٣)، وقال سبحانه: {وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً}^(٤)، وفي دعاء الاستخارة قال رسول الله ﷺ: (إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم)^(٥) [٦].

(١) المواقف وشرحه: ص ٤٨١، والمسابقة حاشية محمد محيي الدين: ص ٥٨.

(٢) المقاصد وشرحه: ج ٢، ص ٢٧٩، والباجوري على الجوهرة: ج ١، ص ٥٩.

(٣) سورة ق: الآية ٣٨.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٥٤.

(٥) صحيح الإمام البخاري: الحديث برقم (٧٣٩).

(٦) إحياء علوم الدين: ج ١، ص ١٠٨.

وقال ابن بطال: [القدرة من صفات الذات]^(١)، وذكر الحافظ ابن حجر: أن في الحديث ردّ على من قال: إنه قادر بنفسه، لا بقدرة، لأن القوة بمعنى القدرة، وقد قال تعالى: {إن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين}^(٢). قال ابن بطال: القوة من صفات الذات، وهي بمعنى القدرة، وقال البيهقي: القوة التام القدرة، لا ينسب إليه عجز في حالة من الأحوال، ويرجع معناه إلى القدرة. فالقدرة صفة قائمة به سبحانه متعلقة بكل مقدور، والمتين بمعنى القوي، ولغة الثابت الصحيح^(٣).

قال أهل التفسير رحمهم الله تعالى: المعنى في وصفه سبحانه بالقوة، أنه القادر البليغ الاقتدار على كل شيء^(٤). والمقتدر: هو التام القدرة الذي لا يمتنع عليه شيء، وكون القدرة صفة ذات قديمة، وإفاضة الرزق حادثة، لأنه فعل من أفعاله تعالى، فهو من صفات فعله^(٥)، لا يتنافيان، لأن الحادث هو التعلق، وكونه رزق المخلوق بعد وجوده لا يستلزم التغير فيه، لأن التغير في التعلق، فالقدرة أزلية تعلقت من الأزل وقبل وجود الممكنات تعلقاً صلوحياً، وتتعلق بالممكنات - على وفق الإرادة - تعلقاً تنجيزياً عند الإيجاد، وقد قال تعالى: {قل هو القادر}^(٦)، وهو مشتق من القدرة^(٧). وقال كذلك: {وكان الله على كل شيء مقتدراً}^(٨).

قال أبو منصور البغدادي رحمه الله: [وقد وردت السنة بذكر القادر المقتدر في أسماء الله عز وجل، وجاء القرآن بهذين الاسمين وبالقدير أيضاً،

(١) فتح الباري لابن حجر: ج ١٣ ص ٣٦٠.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٨.

(٣) فتح الباري: ج ١٣ ص ٣٧٦.

(٤) فتح الباري: ج ١٣ ص ٣٦٠.

(٥) فتح الباري: ج ١٣ ص ٣٧٦.

(٦) سورة الأنعام: الآية ٦٥.

(٧) شرح أسماء الله الحسنى للرازي: ص ٣١٩.

(٨) سورة الكهف: الآية ٤٥.

والقدير أبلغ من القادر، والمقتدر أبلغ من القدير^(١).

وإن هذه القدرة عامة لسائر الممكنات، لأنها إذا صلحت لممكن، صلحت لسائر الممكنات، لوجود التماثل وعدم الترتيح، فإن كل ممكن يساوي غيره من الممكنات في صفاته الذاتية، كالجرمية وقبول الأعراض، فإذا تعلقت القدرة بممكن ما وجب أن تتعلق بسائر الممكنات.

فائدة:

١- لا تتعلق القدرة إلا بالممكن دون الواجب والمستحيل، أي لا تؤثر القدرة إلا في الممكنات فقط. لأن الممكن هو الذي يقبل الوجود والعدم، أما الواجب فلا يقبل التأثير، لأنه موجود لا يقبل العدم. وكذا المستحيل: فلا يقبل التأثير أيضاً، لأنه معدوم، لا يقبل الوجود^(٢).

فإن سأل سائل: هل يقدر الله تعالى أن يوجد إلهاً مثله؟ أو نحو ذلك من التأثير في الواجب والمستحيل؟

فجوابه: أن هذا السائل يحتاج إلى تعليم ما هو المستحيل والواجب والممكن، وجوابك له يكون من قبيل تعليم الطفل الجاهل لا جواب السائل العاقل البالغ. قال الباجوري رحمه الله: [ولذلك شنع السنوسي في شرح الصغرى على ابن حزم في قوله: الله قادر أن يتخذ ولداً، وإلا كان عاجزاً]^(٣)، وذلك لأنه لو أوجد الله تعالى شريكاً له، لم يكن هذا الشريك واجب الوجود، لأنه مسبوق بالعدم... الخ^(٤).

(١) تفسير الأسماء والصفات مخطوط، رقم ١٥٦.

(٢) المواقف وشرحه: ص ٤٨٤، والمقاصد وشرحه: ج ٢، ص ٨٥، والمسامرة: ص ٦٢، والباجوري على الجوهرة: ج ١، ص ٥٨.

(٣) الباجوري على الجوهرة: ج ١، ص ٥٨.

(٤) كبرى اليقينيّات الكونية: ص ١٣٧-١٤٠.

٢- للقدرة تعلقان: أولهما تعلق صلوحى قديم، أي أن قدرة الله تعالى صالحة في الأزل لأن توجد وتعدم الممكنات فيما لا يزال، فهي صالحة أزلاً لإيجاد المخلوق وإعدامه، وثانيهما: تعلق تنجيزي حادث، أي: أنه تعالى يوجد الممكن ويعدمه فيما لا يزال بقدرته^(١).

٣- القدرة صفة من شأنها تنفيذ ما خصصته الإرادة، كإخراج الممكن من العدم إلى الوجود فعلاً، إذا توجهت إلى إيجاده، أو صرفه من الوجود إلى العدم، إذا توجهت الإرادة إلى إعدامه^(٢).

٤- يا من غرته قدرته بظلم الناس وقهرهم تذكر قدرة الله عليك وسلطانه.

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً إن الظلوم على حد من النقم تنام عيناك والمظلوم منتبه يدع عليك وعين الله لم تنم

الإرادة: صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى، يتأتى بها تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه دون بعض من الممكنات المتقابلات على وفق علمه تعالى. بمعنى أنها صفة أزلية تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه من وجود أو عدم، ومقدار وزمان، ومكان وجهة^(٣). وذلك البعض هو المعنى بقول الراجز:

الممكنات المتقابلات وجودنا والعدم والصفات
أزمنة أمكنة جهات كذا المقادير روى الثقات^(٤)

(١) الباجوري على الجوهرة: ص ٥٨، وعلى السنوسية: ص ٢١، ورسالة في التوحيد للطائى: ص ٤٣.

(٢) رسالة في التوحيد للطائى: ص ٤٧.

(٣) شرح الباجوري على الجوهرة: ج ١ ص ٦٠، وشرح المقاصد: ج ٢ ص ٩٤، والدردير على الخريدة: ص ٧٨.

(٤) المعرفة: ص ٥١.

والمتقابلات ستة هي: الوجود، والمقادير، والصفات، والأزمنة، والأمكنة، والجهات. الوجود يقابله العدم، والمقادير كونه طويلاً يقابله قصيراً، والصفات كونه أبيض يقابل كونه أسود، والأزمنة فبعض الأزمنة يقابل بعض، فكونه في زمن الطوفان يقابله في كونه في زمن سيدنا محمد ﷺ. والجهات فكونه في الشرق يقابله في الغرب.

فالإرادة العلم بكونه تعالى مريداً لأفعاله، فلا موجود إلا وهو مستند إلى مشيئته، وصادر عن إرادته تعالى، فهو المبدئ المعيد، والفعل لما يريد، وكيف لا يكون مريداً، وكل فعل صدر منه، أمكن أن يصدر منه ضده، والقدرة تناسب الضدين والوقتتين مناسبة واحدة، فلا بد من إرادة صارفة للقدرة إلى أحد المقدورين^(١)، وضدها: الإكراه.

الدليل النقلي على ذلك:

قوله تعالى: {فَعَالٌ لِّمَا يَرِيدُ}^(٢)، وقوله سبحانه: {يَرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}^(٣)، وقوله جل جلاله: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}^(٤)، وقوله عز وجل: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}^(٥)، وقوله جل شأنه: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ}^(٦)، وقوله سبحانه: {فَيَغْفِرَ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبَ مَن يَشَاءُ}^(٧).

(١) شرح المقاصد النووية: ص ٣٠-٣١.

(٢) سورة البروج: الآية ١٦.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٤) سورة يس: الآية ٨٢.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

(٦) سورة القصص: الآية ٦٨.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٨٤.

الدليل العقلي على ذلك:

١- الله صانع للعالم بالاختيار، ومن كان كذلك تجب له الإرادة، فالله تجب له الإرادة^(١).

٢- لو لم يكن الله تعالى مريداً، لكان مكرهاً، ولو كان مكرهاً، لكان عاجزاً، ولو كان عاجزاً، لما وجد شيء من المخلوقات، وعدم وجود هذه المخلوقات باطل بالمشاهدة، فثبتت إرادته تعالى.

٣- لو لم يكن تعالى مريداً، لكان مكرهاً، والإكراه في حقه تعالى نقص، وهو باطل.

٤- لو كان تعالى مكرهاً لما اتصف بالقدرة، لأن تعلق القدرة موقوف على تعلق الإرادة (أي القصد إلى الفعل) فلا تتعلق القدرة إلا بما تعلقت به الإرادة^(٢).

فوائد:

١. يعبر البعض أحياناً عن الإرادة بالمشيئة^(٣).

٢. الإرادة كالقدرة في التعلق، فهي لا تتعلق إلا بممكن دون الواجب والمستحيل، والممكن هو ما استوى وجوده وعدمه. فالقدرة للإيجاد والإعدام، والإرادة لتخصيص الممكنات ببعض ما يجوز عليها^(٤).

٣. تعلق الإرادة بتجيزي قديم، فالإرادة في الأزل متعلقة بتخصيص الحوادث بأوقاتها^(٥)، والصفات التي يعلم أنه يوجد عليها في الخارج. والتجيز بالنسبة للإرادة هو محض تعلقها بممكن من الممكنات، سواء

(١) شرح الباجوري على الجوهرية: ج ١ ص ٦٠، وشرح المقاصد: ج ٢ ص ٩٤

(٢) شرح جوهرية التوحيد: ج ١ ص ٣٣٦-٣٣٧.

(٣) الباجوري على الجوهرية: ج ١ ص ٥٩.

(٤) المصدر نفسه: ج ١ ص ٦٠.

(٥) المسأيرة: ص ٦٤.

ظهر هذا الممكن إلى طور الوجود أم لم يظهر بعد، وقد تتعلق إرادة الإنسان بعمل من الأعمال، ثم يطويه عن التنفيذ إلى مجرد قابلية محضه، بل هي توجه فعلي إلى مراد معين^(١). فالله تعالى أراد ألا: أن تكون أنت موجوداً، وأن يبعث سيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً.

٤. الإرادة لا تستلزم الرضا: ذكر شارح العقيدة الطحاوية رحمه الله: أن الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشأؤه، ولا يرضاه ولا يحبه، فيشأؤه كوناً، ولا يرضاه ديناً. وخالف في ذلك القدريّة والمعتزلة وزعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر، ولكن الكافر شاء الكفر، فردوا إلى هذا، لئلا يقولوا: شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه. فوقعوا فيما هو شر منه، فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى. وهذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل^(٢).

وذكر شارح العقيدة الطحاوية أيضاً: أن منشأ الضلال كان من التسوية بين المشيئة والإرادة وبين المحبة والرضا. فسوى بينهما الجبرية والقدريّة ثم اختلفوا:

فقالّت الجبرية: الكون كله بقضائه وقدره، فيكون محبوباً مرضياً. وقالت القدريّة: ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له، فليست مقدّرة ولا مقضية، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه. إلا أن أهل السنة والجماعة فرقوا بين المشيئة والمحبة واستدلوا على المشيئة والإرادة بقوله تعالى: {ومن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء}^(٣)، وقوله تعالى: {من يشأ الله يضله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم}^(٤).

(١) الباجوري شرح الجوهرة: ج ١ ص ٥٩، وكبرى اليقينيات الكونية: ص ١٢٦.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية: ص ٢١٥ وما بعدها.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٢٥.

(٤) سورة الأنعام: الآية ٣٩.

واستدلوا على المحبة والرضا بقوله تعالى: {والله لا يحب الفساد} (١)، وقوله تعالى: {ولا يرضى لعباده الكفر} (٢). وقول المصطفى ﷺ: {إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال} (٣).

فإن قيل: كيف يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويكونه؟ وكيف يجمع إرادته له وبغضه وكرهه؟

جوابه: بأن المراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره، فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد. والمراد لغيره: قد لا يكون مقصوداً لما يريده ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده، وهو اختيار العباد وامتحانهم، فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته، ولا يتنافيان، لاختلاف تعلقهما.

مثاله: كالدواء الكريه: إذا علم المتناول له - المريض - أن فيه شفاء، تناوله وهو كاره له لأن فيه حياته. أو قطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسمه، أو كقطع المسافة الشاقة إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبة. بل العاقل يكتفي في إثارة هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، فكيف ممن لا يخفى عليه خافية، فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره، ويكون سبباً إلى أمر هو أحب إليه من فوقه (٤).

العلم: صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى، تتعلق بالشيء على وجه الإحاطة به على ما هو به دون سبق خفاء. والمراد بالشيء:

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠٥.

(٢) سورة الزمر: الآية ٧.

(٣) متفق عليه، رواه البخاري في باب الاستقراض، ومسلم في صحيحه في باب الأقضية.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية: ص ٢١٥ وما بعدها، وشرح المقاصد: ج ٢ ص ٩٧، والمسامرة:

ص ٦٨، والباجوري على الجوهرة: ج ١ ص ٦٦.

١- ما يشمل الواجبات. ٢- ما يشمل المستحيلات. ٣- والجائزات، كلياتها وجزئياتها، إجمالاً وتفصيلاً^(١). فيعلم تعالى بعلمه القديم ذاته وصفاته، والعلم بأنه تعالى سميع بصير، لا يعزب عن رؤيته، هواجس الضمير، وخفايا الوهم والتفكير، ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء.

والعلم صفة أزلية تنكشف المعلومات عند تعلّقها بها، وضدها الجهل، وفي ما معناه، كالظن والشك والوهم والذهول والغفلة والنسيان والسهو^(٢). واعلم أن العلم عام التعلّق بجميع المعلومات، وليس مختصاً ببعض دون بعض، وإلا لزم الجهل والترجيح بلا مرجح وكلاهما باطل^(٣).

الأدلة النقلية على ذلك:

قوله تعالى: {إن الله عليم بذات الصدور}^(٤)، وقوله تعالى: {وهو بكل شيء عليم}^(٥)، وقوله سبحانه: {إنك أنت علام الغيوب}^(٦)، وقوله سبحانه: {وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين}^(٧).

(١) من هنا ضل الفلاسفة وكفروا، حيث قالوا أن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، بل تخفى عليه، وهذا جهل واضح، وكفر فاضح، والله ذر الإمام الغزالي رحمه الله الذي رد عليهم في كتابه تهافت الفلاسفة: ص ٧٢.

(٢) شرح العقائد النسفية للفتازاني: ص ٧٥، ورسالة في علم التوحيد للطائي: ص ٤٨.

(٣) شرح المقاصد النووية: ص ٣٢.

(٤) سورة لقمان: الآية ٢٣.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٩.

(٦) سورة المائدة: الآيتان ١٠٩-١١٦.

(٧) سورة الأنعام: الآية ٥٩.

الأدلة العقلية على ذلك:

- ١- الله فاعل فعلاً متقناً محكماً، وهذا ظاهر لمن نظر في الآفاق والأنفس والأحياء، ومن كان فعله متقناً كان عالماً^(١).
- ٢- لو لم يكن الله عالماً لكان جاهلاً، ولو كان جاهلاً، لما وجد هذا العالم على هذا النظام الدقيق، الذي يدل على أن خالقه عالم بتفاصيله الدقيقة، فثبت أن يكون عالماً^(٢). ولو كان جاهلاً لكان ناقصاً والنقص عليه محال. ولو كان ناقصاً لاحتاج إلى من يكمله، ومكمّله محتاج إلى مكمل آخر... وهكذا لزم الدور والتسلسل وكلاهما باطل، فثبت علمه تعالى^(٣).

فوائد:

- ١- يتعلق العلم بجميع المفاهيم وجودية كانت أو عدمية، أي يعلم كل الأشياء وجزئياتها تفصيلاً وإجمالاً.
- ٢- تعلق العلم بتجيزي قديم: فهو تعالى عالم بالأشياء أزلاً على ما هي عليه، وكونها وجدت في الماضي أو موجودة في الحاضر، أو توجد في المستقبل أطوار في المعلومات، لا توجب تغييراً في تعلق العلم. وليس لها: تعلق صلوحى، وإلا لزم الجهل، لأن الصالح للعلم ليس بعالم، ولا تجيزي حادث، لأنه يستلزم سبق الجهل^(٤).
- ٣- الممكن يقبل الوجود والعدم على التعاقب، إذا تغير هل يتغير علم الله به؟ وكيف يتغير علمه وهو قديم؟
- جوابه: أن صفة العلم لا تتغير، وإنما يتغير متعلقها (المعلوم)، وعلم الله

(١) المواقف وشرحه: ص ٤٨٧، والمقاصد وشرحه: ج ٢ ص ٨٧.

(٢) المواقف وشرحه: ص ٤٨٨.

(٣) ينظر الباجوري على الجوهرة: ج ١ ص ٦٢، وابن قطلوبغا على المسامرة: ص ٦٠-٦١.

(٤) المسامرة: ص ٦٠، والمواقف وشرحه: ص ٤٨٨ وشرح المقاصد: ج ٢ ص ٩٠، ورسالة في

التوحيد: ص ٤٨.

القديم وانكشاف المعلومات له انكشافاً تاماً لا يمكن قياسه بالعلم الحادث وتغير العلم للمخلوق بتغير المعلوم، فهو تعالى يعلم الأشياء قبل وجودها على الحالة التي ستوجد عليها^(١).

٤- يا من تعلم أن الله يعلم السر وما يخفى كيف تتجراً على معصيته تعالى ومخالفة أمره، وطاعة الشيطان الذي يريد بك كيداً ويضمر لك شراً^(٢).

السمع والبصر:

السمع: صفة أزلية شأنها إدراك كل مسموع، وأن خفي. فهي صفة وجودية قديمة بذاته تعالى تنكشف بها المسموعات غير آلة، فلا يعزب عن سمعه وإن خفي، ولا يحجب سمعه بعد، ويسمع من غير اصمخة وأذان. وضدها: الصمم. وهي ليست محدودة خلافاً لسمع الإنسان.

البصر: صفة أزلية شأنها إدراك البصر، وإن لطف^(٣). فهي صفة وجودية قائمة بذاته تعالى تنكشف بها المرئيات من غير آلة، فلا يغيب عن بصره مرئي وإن دق، ولا يدفع رؤيته ظلام، ويرى من غير حدقة وأجفان. فهو يبصر جميع الموجودات: قديمة أو حادثة، ذوات أو صفات، وضده العمى. وهي ليست محدودة خلافاً لبصر الإنسان.

الدليل النقلي على ذلك:

قوله تعالى: {إن الله سميع بصير}^(٤)، وقوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}^(٥)، وقوله تعالى: {إنني معكما أسمع وأرى}^(٦).

(١) شرح الباجوري على الجوهرة: ج ١ ص ٦٣.

(٢) هذه اللفظات الوجدانية من نصائح الدكتور العلامة توفيق البوطي حفظه الله ونفعنا من بركات علومه الشريفة، وكان ذلك في رحاب المسجد النبوي المبارك ١٤٢٦هـ.

(٣) ينظر شرح العقيدة الطحاوية: ص ٢١٥ وما بعدها، المسامرة: ص ٦٨، وينظر الباجوري على الجوهرة: ص ٦٦.

(٤) سورة الحج: الآية ٧٥، وسورة لقمان: الآية ٢٨.

(٥) سورة الشورى: الآية ١١.

(٦) سورة طه: الآية ٤٦.

الدليل العقلي على ذلك:

١- السمع والبصر صفتا كمال، وقد اتصف بهما المخلوق، فهو تعالى الأحق بالاتصاف بهما، فكيف يكون المخلوق الذي تحلى بالسمع والسمع وتجمل به أكمل من الخالق، وكيف تعتدل القسمة مهما وقع النقص في جهته، والكمال في خلقه وصنعتة. والنقص عليه تعالى محال.

٢- كيف تستقيم حجة إبراهيم عليه السلام على آزر إذ كان يعبد الأصنام جهلاً وغياً فقال له: ألم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً^(١).

٣- أنعقد الإجماع على وجوب اتصافه تعالى بالسمع والبصر، لأنه لو ثبت اتصافه بالصمم والعمى لكان ذلك نقصاً، ولو كان ناقصاً لاحتاج إلى من يكمله، ومكمله يحتاج إلى مكمل آخر.... وهكذا فيلزم الدَّور أو التسلسل وكلاهما باطل فثبت اتصافه بالسمع والبصر^(٢).

٤- وقول حضرة النبي ﷺ لأصحابه وهم يرفعون أصواتهم بالتكبير عند دخوله المدينة المنورة: (أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، وإنما تدعون سميعاً بصيراً)^(٣).

فوائد:

١- انكشاف جميع الموجودات بالسمع والبصر، يغيّر الانكشاف بالعلم، كما أن الانكشاف بإحدهما يغيّر الانكشاف بالأخرى^(٤).

٢- ذهب الباجوري والسنوسي إلى أن السمع والبصر يتعلقان بكل الموجودات تعلقاً زائداً على العلم، فسمعه تعالى بما هو قابل بالنسبة

(١) شرح المقاصد النووية: ص ٣٥.

(٢) المسامرة: ص ٦٨، والباجوري على الجوهرية: ص ٦٧.

(٣) سورة مريم: الآية ٤٢.

(٤) الدردير على الخريدة: ص ٨٣.

لنا، وبما هو غير قابل له من سائر الموجودات، وبصره تعالى كذلك. أما الإمام التفتازاني فقد قال: إن صفة السمع تتعلق بالمسموعات، وصفة البصر تتعلق بالمبصرات فلا تتعلقان عندئذ بكل الموجودات. أما المعدومات فلا تتعلقان بها بالاتفاق، إذ لا يعقل ذلك، وإلا كانت من قبيل الموجودات^(١).

٣- يا من أسعدته المعاصي والملاذات في غفلة من الناس، اعلم إن الله سميع بصير.

الكلام: صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تتعلق بالواجبات، والجائزات، والمستحيلات تعلق دلالة. لا يشبه كلامه كلام غيره، كما لا يشبه وجوده وجود غيره^(٢). بمعنى أنها صفة تدل على جميع المعلومات، وضدها البكم.

الدليل النقلى على ذلك:

قوله تعالى: {وكلم الله موسى تكليماً}^(٣)، وقوله تعالى: {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء}^(٤).

والدليل العقلي على ذلك:

أنه تعالى لو لم يكن متكلماً، للزم أن يتصف بضده، واتصافه بضده نقص، وهو باطل، فالنقص لا يرضى به المخلوق لأنه مشوة له، فيستحيل عليه تعالى من أن يتصف به، فثبت اتصافه تعالى بصفة الكلام الذي هو صفة كمال^(٥).

(١) كبرى اليقينيّات الكونية: ص ١٢٨-١٤٠.

(٢) شرح المقاصد النووية: ص ٣٦.

(٣) سورة النساء: الآية ١٦٤.

(٤) سورة الشورى: الآية ٥١.

(٥) رسالة في التوحيد للطائي: ص ٥٣.

والكلام على الحقيقة: كلام النفس، وإنما الأصوات قُطعت حروفاً للدلالات. وعلى هذا فإن كلامه تعالى عند جمهور علماء الأمة الإسلامية نوعان:

١- كلام نفسي: وهو الكلام حقيقة، المميز عنه بالألفاظ، وليس من جنس الأصوات والحروف، بل هو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، منافية للسكوت والآفة، كما في الخرس والطفولية، وهو بها أمرٌ ناهٍ مخبرٌ وغير ذلك^(١). والكلام النفسي قديم لامتتاع قيام الحوادث بذاته تعالى. وهو قائم بذاته تعالى، وهو غير العبارات إذ قد تختلف العبارات بالأزمنة والأمكنة والأقوام، بل قد يدل عليه بالإشارة والكتابة، كما يدل عليه بالعبارة والطلب.

وهو غير العلم إذ قد يخبر الرجل عما لا يعلمه، بل يعلم خلافه أو يشك فيه. وهو غير الإرادة إذ قد يأمر الرجل بما لا يريد، كالمختبر لعبده هل يطيعه أم لا^(٢).

والكلام النفسي صورة للعلم الذاتي في النفس، كما أن العلم صورة للمعلوم فيها، ولذا كان كلامه تعالى لا نهاية له كعلمه^(٣). وذلك لأن الكلام النفسي ثابت لغة، لأنه شاع إطلاق اسم الكلام والقول على المعنى القائم بالنفس، وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء، ولم يلتبس على جهلة الشعراء حيث قال بعضهم:

[إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً]

وقد جاء في القرآن الكريم هذا المعنى واضحاً في قوله تعالى: {ويقولون في أنفسهم}^(٤)، وقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة: [زورت في نفسي مقالة] وقولهم: في نفسي كلام^(٥).

(١) شرح المقاصد: ج ٢ ص ٦٩.

(٢) المواقف وشرحه: ص ٤٩٦، والمسامرة: ص ٧٧.

(٣) تعليق السيد محمد رشيد رضا على رسالة التوحيد لمحمد عبده: ص ٤٥.

(٤) سورة المجادلة: الآية ٨.

(٥) شرح المقاصد: ج ٢ ص ١٠٢، والباجوري على الجوهرة: ج ١ ص ٦٥.

٢- **كلام لفظي:** وهو الحروف والأصوات، وهذا يقولون بحدوثه وعدم قيامه بذاته تعالى، وهو القرآن الكريم وسائر الكتب المنزلة. فالقرآن بمعنى الكلام النفسي ليس مخلوق، وأما القرآن بمعنى اللفظ الذي نقرأه بصوتنا فهو مخلوق، لكنه يتمتع أن يقال مخلوق، ويراد به اللفظ الذي نقرأه إلا في مقام التعليم، لأنه ربما أوهم أن القرآن بمعنى كلامه تعالى مخلوق، ولذلك وقع امتحان إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل والشعبي والبخاري وعيسى ابن دينار على يدي المعتزلة الذين قالوا بأن القرآن الكريم مخلوق^(١).

وقد تواتر النقل عن الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وقد انعقد إجماعهم، وإجماع المسلمين جميعهم على أنه تعالى متكلم^(٢).

تعلق صفة الكلام:

تتعلق صفة الكلام بالواجبات والممكنات والمستحيلات، لأن تعلقها تعلق دلالة وبيان أو أمر ونهي، وقد احتوى بيانه تعالى وأمره ونهيه الحديث عن الواجب والممكن والمستحيل، كما تشهد آيات القرآن الكريمة^(٣).

الصفات المعنوية:

هي كونه تعالى قادراً، مريداً، عالماً، حياً، سميعاً، بصيراً، متكلماً، وهي عبارة عن قيام صفات المعاني بالذات، وهي ملازمة للمعاني فبينهما التلازم،

(١) وقع المعتزلة والإمامية والكرامية وجهلة الحنابلة في خطر القول بأن القرآن مخلوق وحدثت فتنة عظيمة ذهب ضحيتها الآلاف بلا ذنب ولا جريرة، ولكن الله تعالى أظهر الحق وأبطل الباطل بثبوت العلماء على عقيدة الحق والإيمان، ينظر شرح المقاصد: ج ٢ ص ١٠٠، والمواقف وشرحه: ص ٤٩٥ وكبرى اليقينيات الكونية: ص ١٣٦، والمسامرة: ص ٧٧، وابن فظولغا عليها: ص ٧٩.

(٢) شرح المقاصد النووية: ص ٣٦.

(٣) كبرى اليقينيات الكونية: ص ١٣٧.

أي فيلزمها معنى قائماً بالذات، فقادِر يلزِم القدرة، ومريد يلزِم الإرادة، وعالم يلزِم العلم، وحي يلزِم الحياة، وسميع يلزِم السمع، وبصير يلزِم البصر، ومتكلم يلزِم الكلام^(١).

وهذه الصفات: صفات معنوية، أي منسوبة إلى المعاني من حيث كون الاتصاف بها، فرع الاتصاف بالمعاني في العقل لا في نفس الأمر، فإن اتصاف الذات بكونه عالماً مثلاً، لا يصح إلا إذا قام به العلم وهكذا... والصفة المعنوية: هي كل صفة ثبوتية، اعتبارية، لازمة للمعنى.

وأما القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام فهي صفات معانٍ، لأنها موجودة في نفسها، بحيث لو أزيل عنا الحجاب لرأيناها. وحكمة ذكر الصفات المعنوية مع كونها داخلة في صفات المعاني المذكورة ما يلي:

١- ذكر العقائد على وجه التفصيل، لأن خطر الجهل فيه عظيم.

٢- الرد على المعتزلة فإنهم أنكروها^(٢)، فقالوا: إنه تعالى قادر بذاته، مريد بذاته، من غير قدرة ولا إرادة وهكذا إلى آخرها، وجمهور أهل السنة يرون أنه تعالى قادر ومريد بصفات وجودية قائمة بالذات فاقتضى الحال إعادتها لذلك فقال الناظم:

قدرة إرادة سمع بصر حياة العلم كلام استمر^(٣)

فائدة عظيمة:

هذه فائدة معينة إن شاء الله تعالى على فهم معاني هذه الصفات الواجبة في حقه تعالى، بحيث لا يرد عليه إشكال فيها أصلاً، وإن ورد يسهل عليه

(١) ينظر تصحيح المفاهيم العقيدية: ص ٧١.

(٢) المعتزلة أنكروا الصفات المعاني والمعنوية ينظر دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية: ص ٢١٤.

(٣) نيل المرام في شرح عقيدة العوام: ص ٧. وجلاء الأفهام بشرح عقيدة العوام: ص ٢٧.

رده إن شاء الله تعالى، وهي:

١- التواطؤ، ٢- التشاكك، ٣- التخالف، ٤- الاشتراك، ٥- الترادف. لأن اللفظ إما كلي أو جزئي.

والكلي إن كان معناه واحداً، فإن كان مستوياً في أفرادهِ، فالنسبة بينه وبين أفرادهِ تواطؤ، كالإنسان فإن معناه لا يختلف في أفرادهِ، ويسمى ذلك المعنى متواطئاً لتواطؤ أفرادهِ، وتوافقها فيه، فإن أفراد الإنسان متوافقة في معناه من الحيوانية والناطقية، وإنما الاختلاف بينهما بعوارض خارجية كالبياض والسواد والطول والقصر.

وإن كان معناه مختلفاً في أفرادهِ كالنور، فإن معناه في الشمس أقوى من القمر، فالنسبة بينه وبين أفرادهِ تشاكك، ويسمى ذلك الكلي مشككاً كمعناه.

وإذا نظر بين اللفظ وبين لفظ آخر فإن لم يصدق أحدهما على شيء مما صدق عليه الآخر فالنسبة بينهما تخالف، أي تباين، كالإنسان والحيوان (الفرس) ويسمى معناه متباينين كلفظهما.

واللفظ المفرد المفردُ إن تعدد معناه كعين للبصرة، والجارحة، والذات، والشمس، فالنسبة بينه وبين ماله من المعاني الاشتراك، لاشتراك المعنيين في اللفظ الواحد.

وإن تعدد اللفظ واتحد المعنى كالإنسان والبشر، فالنسبة بين اللفظين الترادف. فإذا علمت هذا علمت أن النسبة بين صفات الله تعالى وصفاتنا الاشتراك اللفظي اللغوي فقط، لا المنطقي لاستحالة في حق الله تعالى، إذ لا يجمعنا معه لا جنس، ولا نوع، ولا فصل، ولا عرض عام، ولا عرض خاص. فكل لفظ صفة من العشرين صفة يتعلق بها من ناحيتين متنافيتين، فإن كان موضوع البحث في نسبة هذه الصفة لله تعالى، فلا ينبغي أن يورد عليها ما يشاركها في اللفظ من صفات الحوادث، لعدم الجامع ووجود الفارق،

وإذا أورد عليه شيء يدفعه قوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}.

لفظ [الوجود] مثلاً يطلق في اللغة على الله واجب الوجود بالذات والصفات كذات الله تعالى وصفاته، ويطلق على الموجود بالغير كوجود المخلوقات، أو نقول: يطلق على الوجود الواجب والوجود الممكن، فينبغي تعيين الموضوع حتى لا يرد إشكال، وكذا لفظ القدرة يدل على صفة الله الوجودية التي يتأتى بها إيجاد الممكن وإعدامه على وفق الإرادة، ويدل على قدرتنا الحادثة التي لا تأثير لها في إيجاد ولا في إعدام ولا في فعل من الأفعال، وهكذا باقي الصفات.

وبتأمل هذه الفائدة المتقدمة، وجعله كقاعدة كلية يرجع إليها عند كل مشترك اللفظ لغة، لرفع الإشكال بتمييز ما يراد بذلك اللفظ من المعاني التي يشملها عند إطلاقه بقرينة لفظية أو معنوية.

إذا تقرر هذا، فكيف يمكننا أن نقيس صفات الله تعالى على صفاتنا الحادثة مع عدم الجامع بيننا وبينه تعالى، إلا نسبة العبد لربه وخالقه، فالرب تعالى خالق والعبد مخلوق، والله تعالى غني عن كل ما سواه، والعبد فقير إلى الله تعالى في إيجاده وإمداده. وإثبات وجه جامع بين الواجب والممكن محال.

ما يستحيل في حقه تعالى:

علمنا أنه يجب لله تعالى كل كمال ويستحيل في حقه كل نقصان، وهذا على سبيل الإجمال، وأما على سبيل التفصيل فإنه يستحيل في حق الله عز وجل أزداد الصفات العشرين التي سبق بيان وجوبها له سبحانه وتعرف أدلة الاستحالة من أدلة الوجوب. وهي:

العدم ضد الوجود، والحدوث ضد القدم، والفناء ضد البقاء، والمماتة للحوادث ضد المخالفة للحوادث، والافتقار إلى المحل والمخصّص ضد القيام بالنفس، والتعدد ضد الوحدة، والعجز ضد القدرة، والكرهية ضد الإرادة، والجهل ضد العلم، والموت ضد الحياة، والصمم ضد السمع، والعمى ضد البصر، واليكم ضد الكلام^(١).

والدليل على ذلك: أن كل قابل الشيء لا يخلو عنه أو ضده، وهو تعالى قابل لتلك الصفات الواجبة، فلو لم يتصف بها لزم أن يتصف بأضدادها، وهذه الأضداد نقائص، والنقص عليه تعالى محال فهذه الأضداد محالة عليه تعالى^(٢).

الجائز في حقه تعالى:

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وَجَائِزٌ بِفَضْلِهِ وَعَدْلِهِ تَرَكُ لِكُلِّ مُمَكِّنٍ كَفَعْلِهِ

الشرح:

يجوز في حقه تعالى فعل كل ممكن أو تركه، كخلق الذوات، والصفات، والأفعال الاضطرارية والاختيارية، والرزق، والإحياء، والإماتة، والهداية، والإضلال، والعقاب، والإثابة وغير ذلك. فالعقاب بمحض عدله، فالحمد سبحانه لا يظلم أحداً، وليس بظلام للعبيد، والإثابة بمحض فضله تعالى،

فإن تثب فبمحض الفضل وإن يعذب فبمحض العدل

ولكن ترتيب الإثابة على الإيمان بالله والطاعة له، وترتيب العقاب على الكفر بالله والعصيان له، ولو عكس ذلك لكان صواباً وحسناً منه تعالى، فلا

(١) الدردير على الخريدة: ص ٩٢-٩٣، والباجوري شرح الجوهرة: ص ٨٦، ورسالة في التوحيد: ص ٢٧.

(٢) الباجوري على السنوسية: ص ٣٨.

يجب عليه شيء من الممكنات، فهو الفاعل المختار المتصرف في ملكه كيف يشاء، ولا يشاركه في التصرف، ولا يحول دون تصرفه أحد، ولا يستحيل عليه شيء منها، وأفعاله جميعاً جارية وفق الحكمة والعدل والصواب، سواء علمت تلك الحكمة أو جهلت^(١).

الدليل النقلى على ذلك:

قوله تعالى: {وربك يخلق ما يشاء ويختار^(٢)}، وقوله سبحانه: {إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم^(٣)}، وقوله سبحانه: {وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم^(٤)}.

الدليل العقلى على ذلك:

أنه لو وجب عليه تعالى فعل شيء من الممكنات لصار الممكن واجباً، ولو استحال عليه شيء منها لصار الممكن مستحيلاً، وهذا باطل لا يخفى^(٥).

فوائد:

١- من الجائزات فعل الصلاح والأصلح، كلطف الله بخلقه، وتسهيل مصالحهم الدنيوية والأخروية، وعدم ما يزعجهم من أمراض وغيرها، خلافاً لمن قال: إن الصلاح والأصلح واجبان على الله تعالى، ولو كان كما قالوا لما وقعت محنة ولا تكليف، وقد وقعت المحن والرزايا والبلاء، وكلفنا الله سبحانه وتعالى بالشرائع.

(١) رسالة في التوحيد: ص ٢٧، وغاية المرام في عقائد أهل الإسلام للأعظمي: ص ٣٠.

(٢) سورة القصص: الآية ٦٨.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٥٤.

(٤) سورة يونس: الآية ١٠٧.

(٥) الباجوري على السنوسية: ص ٣٨، وينظر الصحوة القرية: ج ١ ص ٢٦٣، وشرح المقاصد

النووية: ص ٣٩.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله في الرد على المعتزلة: [ثم إن مصلح العباد في أن يخلقهم في الجنة، فأما أن يخلقهم في دار البلاء ويعرضهم للخطايا، ثم يعرضهم لخطر العقاب، وهول العرعر والحساب، فما في ذلك غبطة عند ذوي الألباب] (١).

٢- كما يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق مالا يطيقونه خلاف للمعتزلة، ولو لم يجز ذلك لاستحال سؤال دفعه (٢). وقد سألوا ذلك فقالوا: {ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به} (٣).

٣- ويجوز له سبحانه إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق، خلافاً للمعتزلة لأنه متصرف في ملكه والظلم عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه، وهو محال على الله تعالى، فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً، ويدل على جواز ذلك وجوده، فإن ذبح البهائم إيلام لها، وما صب عليها من أنواع العذاب من جهة الأدميين ولم يتقدمها جريمة (٤).

٤- وتجوز رؤية الله تعالى في الدار الآخرة، وهو قول جمهور المسلمين بدلالة النقل والعقل والإجماع فقالوا: يرى من غير تكيف بكيفية من الكيفيات المعتبرة في رؤية الأجسام، ومن غير إحاطة، بل يحار العبد في العظمة والجلال، حتى لا يعرف اسمه، ولا يشعر بمن حوله من الخلائق، فإن العقل يعجز هناك عن الفهم، ويتلاشى الكل في جنب عظمة الله تعالى (٥).

(١) إحياء علوم الدين: ج ١ ص ١١١، والمسامرة شرح المسامرة: ص ١٧١.

(٢) إحياء علوم الدين: ج ١ ص ١١١، وشرح المقاصد: ج ٤ ص ٢٩٦.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

(٤) إحياء علوم الدين: ج ١ ص ١١٢، ونهاية الاقدام: ص ٤١٠، وشرح المقاصد: ج ٤ ص ٣٢٣.

(٥) الباجوري على الجوهرة: ج ٢ ص ١٩، وينظر الدردير شرح الخريدة: ص ١٠٠، والمسامرة بشرح المسامرة: ص ٤٣.

الدليل النقلى على ذلك:

١- قوله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} (١)، وناصرة جميلة وناظرة من النظر والرؤية فإن النظر إذا تعدى إلى كما في الآية فإنه يفيد الرؤية (٢).

٢- قال تعالى: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} (٣)، والحسنى الجنة، والزيادة الرؤية كما ثبت بالحديث الصحيح الذي رواه مسلم (٤).

٣- قوله تعالى: {لن تراني} (٥)، والاستدلال بها على الرؤية من وجوه:

أ- أنه لا يظن بكليم الله موسى ورسوله الكريم، واعلم الناس بربه في وقته، أن يسأل ما لا يجوز عليه، بل هو من أعظم المحال (٦). إذ لا يجوز على أحد من الأنبياء الجهل بشيء من أحكام الألوهية (٧). فكيف يجوز للمعتزلي أو غيره من المنكرين للرؤية يوم القيامة أن يكونوا أعلم من سيدنا موسى فيما يجب لله تعالى ويستحيل عليه، مع أن المقصود من بعثة الأنبياء الدعوة إلى عقيدة التوحيد الحق والأعمال الصالحة (٨).

ب- قوله تعالى: {لن تراني} ولم يقل: إني لا أرى، أو لا تجوز رؤيتي، أو لست بمرئي. وهذا يدل على أنه تعالى مرئي، ولكن سيدنا موسى

(١) سورة القيامة: الآية ٢٢-٢٣.

(٢) الدواني على العقائد العنصرية: ج ٢ ص ١٧٦، وشرح الطحاوية: ص ١٤٣، وحادي الأرواح: ص ٢٣٠، وأصول الدين للبغدادى: ص ١٠٠.

(٣) سورة يونس: الآية ٢٦.

(٤) شرح الطحاوية: ص ١٤٤، ولوامع الأنوار البهية: ج ٢ ص ٢٤٠، والباجوري شرح الجوهرة: ج ٢ ص ١٧.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

(٦) شرح الطحاوية: ص ١٤٤، حادي الأرواح: ص ٢٢٤، والمسائرة بشرح المسامرة: ص ٤٠.

(٧) الباجوري على الجوهرة: ج ٢ ص ٢٠، وينظر المواقف: ص ٥٠٤.

(٨) المسامرة: ص ٤١، والدواني: ج ٢ ص ١٦٨.

لا تحتمل قواه رؤيته في الدنيا، لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى، ويوضحه قوله تعالى: {ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني} (١)، فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي الأعظم في هذه الدار، فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف (٢).

٤- قوله تعالى: {لا تتركه الأبصار وهو يدرك الأبصار} (٣)، ووجه الاستدلال بها: أن الله تعالى إنما ذكرها في سياق التمدح (٤)، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، ويكون بالنفي إذا تضمن أمراً وجودياً، كمدحه بنفي السُّنة والنوم المتضمن كمال القيومية. وبنفي الموت الذي يتضمن كمال الحياة. فالآية تدل على كمال عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه يرى، ولكن لتعاليه عن التناهي والاتصاف بالحدود والجوانب، لا يدرك بالإبصار، ولا يحاط به، قال تعالى: {ولا يحيطون به علماً} (٥).

٥- حديث أبي هريرة رضي الله عنه الصحيح: (أن الناس قالوا يا رسول الله: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارون في القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: إنكم ترونه كذلك (٦).

٦- حديث صهيب رضي الله عنه الصحيح، قال: إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً، يريد أن

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

(٢) حادي الأرواح لابن القيم: ص ٢٢٣، وشرح الطحاوية: ص ١٤٥، فعد إليه تجد خيراً كثيراً.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

(٤) حادي الأرواح: ص ٢٢٨، وشرح الطحاوية: ص ١٤٤، والتذكرة للقرطبي: ص ٤٩٢.

(٥) سورة طه: الآية ١١٠.

(٦) صحيح البخاري: كتاب التوحيد بشرح فتح الباري: ج ١٣ ص ٤١٩، وصحيح مسلم: كتاب

الإيمان: ج ١ ص ١٦٣.

ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يتقل موازيننا، ويبيض وجوهنا؟ ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، قال: فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر بأعينهم^(١). قال العلماء: كان التشبيه للرؤية وهو فعل الرائي لا المرئي، والمعنى ترون ربكم رؤية ينزاح معها الشك، وتتقي معها الريبة كرويتكم القمر، لا ترتابون ولا تمترون^(٢).

وعد الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه حادي الأرواح رواية من روى رؤية الباري عز وجل يوم القيامة، فزادوا على الحد^(٣)، نحو ثلاثين صاحبياً^(٤).

والإجماع:

أجمع الصحابة والتابعون وتابعيهم على أن الله تعالى يرى في الآخرة، لا يتهالهم إلى الله سبحانه في طلب لذة النظر إلى وجهه الكريم واعتقادهم بذلك، كان ذلك بقرائن من أحوال المصطفى ﷺ وجملة من ألفاظه الصريحة التي لا تدخل تحت الحصر^(٥). قال الإمام مالك ﷺ: [لما حجب أعداؤه فلم يروه تجلّى لأوليائه حتى رأوه، ولو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة، لم يعير الكافرون بالحجاب، قال تعالى: {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون} (٦)]^(٧). وقال الإمام الشافعي ﷺ: [لما إن حجب هؤلاء -

(١) صحيح الإمام مسلم: كتاب الإيمان ج ٧ ص ٢٣٠، مسند الإمام أحمد: ج ٤ ص ٣٣٣، سنن الترمذي: ج ٧ ص ٢٣٠.

(٢) شرح الطحاوية: ج ١٤٣-١٤٤، لوامع الأنوار البهية: ج ٢ ص ٢٤٣، والباجوري شرح الجوهرة: ج ٢ ص ١٧.

(٣) حادي الأرواح: ص ٢٣١، ولوامع الأنوار: ج ٢ ص ٢٤٣.

(٤) شرح الطحاوية: ص ١٤٨.

(٥) الاقتصاد في الاعتقاد: ص ١١٢، وينظر من ابتهل بالدعاء في حادي الأرواح: ص ٢٥٨.

(٦) سورة المطففين: الآية ١٥.

(٧) الباجوري شرح الجوهرة: ج ٢ ص ١٧٠١٨.

الكافرون - في السخط، كان في هذا دليل على أن أوليائه يرونه في الرضا^(١).

الدليل العقلي على ذلك:

أن الله تعالى موجود، وكل موجود يصح أن يرى، فالباري عز وجل يصح أن يرى^(٢). وكما جاز أن يعلم الباري جل جلاله من غير كيفية وصورة، جاز أن يرى من غير كيفية وصورة^(٣). وكذلك علق رؤيته سبحانه على شيء ممكن وهو استقرار الجبل، والمعلق على رؤية الممكن ممكن^(٤). قال تعالى: {ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني}^(٥).

هذا وقد أنكر البعض الرؤية يوم القيامة، وهو قول الجهمية والمعتزلة والخوارج والإمامية والنجارية^(٦)، وغيرهم. مستدلين بأدلة عقلية وعقائدية أرادوا تنزيه الله عن الحوادث ولكنها ضعيفة ورد عليها علماء الأمة الإسلامية ردوداً علمية دقيقة، وأوضحوا لهم أن هذه الأدلة وإن أريد بظاهرها تنزيه الباري سبحانه لكنها اصطدمت بأدلة عقلية وعقائدية وانعقد الإجماع على صحتها وقوتها وإثباتها للرؤية يوم القيامة وأنها - الرؤية - هي نوع كشف وعلم للمدرك وكقوة يجعلها الله في الرائي، من غير أن ينقص منه قدر من الإدراك، ولا يشترط فيها: مقابلة المرئي بجهة أو في

(١) شرح الطحاوية: ص ١٤٤، وحادي الأرواح: ص ٢٢٨، وقول الشافعي في كتابه: أحكام القرآن: ص ٤٠.

(٢) الباجوري شرح الجوهرة: ج ٢ ص ١٧.

(٣) المسامرة: ص ٤٣.

(٤) شرح الطحاوية: ص ١٤٥، والدواني: ص ١٨٠، وأصول الدين: ص ١٨٧.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

(٦) ينظر شرح ابن قطلوبغا على المسامرة: ص ٣٧، وشرح الطحاوية: ص ١٤٤، وحادي الأرواح: ص ٢٢٢، والمواقف: ص ٥٠٣، ومقالات الإسلاميين: ج ١ ص ٢١٨، وعقائد الإمامية: ص ٣٦، والشريعة بين الأشاعرة والمعتزلة: ص ١٩٥، كشف الحق للحلي: ص ١١.

جهة معها مسافة ومن غير إحاطة بمجموع المرئي^(١).
وأخيراً:

فإن هذا الخلاف ليس بالأمر الخطير، مادام الفريقان ينزهان الله تعالى عن الجهة والتجسيم، فالفريق الذي ينكر الرؤية، يريد بإنكارها تنزيهه الله تعالى عن الجهة والتجسيم وهذا مبلغ علمهم، والفريق الثاني الذي يثبت الرؤية رأى النصوص والأدلة صريحة بإثباتها فأثبتها، لكنه ينزه الله تعالى عن الجهة والتجسيم فقال: (يرى من غير كيفية ولا إحاطة). ثم أن الرؤية تكون في الآخرة، وأوضاع الآخرة لا تشبه الحياة الدنيا وقوانينها تختلف تماماً عن قوانين الدنيا كما هو معلوم.

رؤية الله في الدنيا:

اتفقت الأمة الإسلامية على أن الله تعالى لا يراه أحد في الدنيا، إلا أنهم اختلفوا في رؤية حضرة النبي ﷺ ربه في الدنيا - أي في الإسراء والمعراج - فمنهم من أثبتها، ومنهم من نفاها، وكل من الفريقين يستدل بالأدلة السمعية. ولما كان التنازع في هذه المسألة مأثوراً فقال بكل منهما بعض الصحابة، ولما كان الاحتمال للقولين ممكناً، فلا يدعوا عندئذٍ إلى الجزم بواحد من القولين^(٢). وكذلك فإن المسألة لا يترتب عليها حكم شرعي ونحن غير مكلفين بالبحث عنها فنوكل أمرها إلى الله تعالى ونسلم من الخلاف.

(١) المسامرة: ص ٤١، والدواني: ج ٢ ص ١٧٨، والباجوري شرح الجوهرة: ج ٢ ص ١٨، والدردير شرح الخريدة: ص ١٠٠، وشرح الطحاوية: ص ١٤٩، حادي الأرواح: ص ٢٩٦، والاقتصاد في الاعتقاد: ص ١١٤.

(٢) الشفا للقاضي عياض: ١٩٥، وشرح العقيدة الطحاوية: ص ١٥١.

المبحث الثاني : النبوات

تمهيد:

العقل من أعظم نعم الله علينا، وأنفع الأشياء وأجداها لدينا حيانا الله تعالى به، وخصنا بوظائفه، به نميز الخبيث من الطيب، والخير من الشر، والفضيلة من الرذيلة، في حدود ما منحه الله تعالى من سلطة، وما حباه من خصائص، وما أناط به من وظائف. وجعله تعالى مناط التكليف، ومدار المثوبة والعقوبة. وفوق ذلك فقد لطف سبحانه بعباده فأرسل لهم رسلاً من جنسهم ليكون هذا داعياً قوياً لهم لأن يؤمنوا بما وصلت إليه عقولهم وأيديته رسله إليهم، وليعرفوا الحقائق الأخرى التي يعجز العقل الإنساني وحده عن معرفتها.

فالرسول إنما بعث عليه الصلاة والسلام داعماً ومتمماً لرسالة العقل الإنساني ورحم الله الإمام موسى الكاظم عليه السلام القائل: [إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة. فأما الحجة الظاهرة فالرسل، وأما الباطنة فالعقول]^(١).

فالرسالات إذن فضل ورحمة من الله للإنسانية جمعاء، ولولاها لظل الناس يهيمون في الضلال، إلا من عصم الله، وبها تمام الحجة لله على عباده^(٢).

(١) ينظر أصول الدين الإسلامي: ص ٢٢٨.

(٢) ينظر بحثنا الموسوم: [المعرفة العقلية في المنظور الإسلامي] والمنشور في مجلة جامعة نزع العلمية - ٢٠٠٥م.

قال الناظم:

أَرْسَلَ أَنْبِيَاءَ نَوِي فِطَانَةٍ بِالصِّدْقِ وَالتَّبْلِيغِ وَالْأَمَانَةِ

المفردات:

أنبياء: بحذف الهمزة الممدودة للضرورة، جمع نبي، وقد تقدم تعريفه في المبحث الأول فعد إليه.

الفتانة: التيقظ والتفطن وحدة العقل وكمال الذكاء وسداد الرأي. وهي ضد البلادة^(١).

الصدق: ضد الكذب، وهو مطابقة خبرهم للواقع^(٢).

التبليغ: هو إيصال ما أمروا بإيصاله إلى الخلق من التكاليف الشرعية الاعتقادية والعلمية^(٣).

الأمانة: وهي ضد الخيانة، بمعنى أنهم لم يزدوا ولم ينقصوا شيئاً في وظيفتهم، وعصمتهم ظاهراً وباطناً من التلبس بمنهي عنه ولو نهى كراهة^(٤).

الشرح:

هذا هو الجزء الثاني من جزأي الإيمان، لأن الإيمان مركب من جزأين، إحداهما: الإيمان بالله تعالى، وهو حديث النفس التابع للمعرفة بما يجب لله تعالى وما يستحيل وما يجوز. والثاني: الإيمان بالرسول عليهم الصلاة والسلام، وهو أيضاً حديث النفس^(٥) التابع للمعرفة بما يجب لهم وما يستحيل.

(١) الدردير على الخريدة: ص ١٠٨، والباجوري على الجوهرة: ج ٢ ص ٢٥، ولوامع الانوار: ج ٢ ص ٢٦٧.

(٢) رسالة في التوحيد للطائي: ص ٦٧، والدردير: ص ١٠٥.

(٣) نيل المرام شرح عقيدة العوام: ص ٨.

(٤) المواقف: ص ٣٥٨-٣٦٦، شرح المقاصد: ج ٥ ص ٤٩، والمسامرة: ص ٢٢٧.

(٥) المقصود بحديث النفس: الانقياد والخضوع التابعان للمعرفة.

وما يجوز. ولما كان الجزء الثاني موقوفاً على الجزء الأول، وإنما يعرف ويحصل بعد معرفته، قدم علماؤنا الكلام عن الجزء الأول قبل الكلام عن الجزء الثاني. وهذا ما ذهب إليه الناظم رحمه الله فلما فرغ مما يتعلق بمولانا عز وجل من الواجب والمستحيل والجائز، شرع في الكلام عن الرسل بقوله آنفاً. ومعنى البيت يجب علينا أن نعتقد جزمًا أن الله سبحانه وتعالى أرسل إلى المكلفين رسلاً موصوفين بصفات أربعة تجب لهم.

الرسول: مفرد رسل، وهو في أصل اللغة مأخوذة:

أ- من قولهم جاءت الإبل رَسَلاً أي متتابعة، فالرسول هو الذي يتابع أخبار الذي بعثه^(١).

ب- من رسل اللين إذا تتابع درّه، لأن الرسول هو الذي يتتابع عليه الوحي^(٢).

النبي والرسول في الاصطلاح:

لقد عرفنا النبي في المبحث الأول وبيننا أنه هنالك فرق بين النبي والرسول، ولأهمية هذا الموضوع نفصل الكلام هنا لمناسبة الحديث عن الرسل عليهم السلام، وقد جاء القرآن الكريم بهاتين الكلمتين مما في قوله تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي}^(٣)، وقد اختلف العلماء في بيان معناهما على أقوال أهمها:

القول الأول: النبي إنسان أوحى إليه بشرع وأحكام، سواء أمر بتبليغه والدعوة إليه أم لا، فإن أمر بذلك فهو نبي رسول. فالفرق بينهما بالأمر والتبليغ وعدمه^(٤). فالنبي أعم من الرسول، أي يلزم من كونه رسولاً أن

(١) لسان العرب: مادة رسل.

(٢) أصول الدين للبخاري: ص ١٥٤.

(٣) سورة الحج: الآية ٥٢.

(٤) المسامرة: ص ٢٣١، والدردير على الخريدة: ص ١٨.

يكون نبياً ولا عكس^(١)، وهذا القول هو المشهور^(٢). وبه قال الجمهور وعامة الأشاعرة^(٣). وصححه المهدي والقاضي عياض في كتابه الشفا، حيث قال: [والصحيح والذي عليه الجماء الغفير، أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا]^(٤).

وذكر شارح العقيدة الطحاوية: أن الرسالة أعم من جهة نفسها، فالنبوة جزء من الرسالة إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرسل فإنهم: لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس فالرسالة أعم من جهة نفسها. وأخص من جهة أهلها^(٥).

القول الثاني: النبي إنسان بعثه الله لتبليغ ما أوحى إليه، وكذا الرسول، فلا فرق بينهما، بل هما بمعنى واحد^(٦)، وهذا الذي عزاه ابن الهمام إلى بعض المحققين^(٧). وهو مذهب جمهور المعتزلة^(٨).

ورد هذا القول بما يأتي:

١- بقوله تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي} فلو كان النبي مساوياً للرسول لما عطف عليه، لأن نفي أحد المتساوين يستلزم نفي الآخر^(٩).

(١) الصاوي على الدردير: ص ١٨، لوامع الأنوار: ج ١ ص ٤٩، ج ٢ ص ٢٥٨، شرح الطحاوية: ص ١٠٥.

(٢) المسامرة: ص ٢٣١، لوامع الأنوار: ج ٢ ص ٢٥٨، شرح الطحاوية: ص ١٠٥.

(٣) حاشية المرجاني: ج ١ ص ١٢، والكلنبوي: ج ١ ص ٩.

(٤) الشفا: ج ١ ص ٢٥١، وتفسير القرطبي: ج ٧ ص ٤٤٧٢.

(٥) شرح الطحاوية: ص ١٠٥.

(٦) المسامرة: ص ٢٣١، المقاصد: ج ٢ ص ١٧٣، وأعلام النبوة: ص ٣٨.

(٧) المسامرة والمسامرة عليها: ص ٢٣١.

(٨) حاشية المرجاني: ج ١ ص ١٢، والكلنبوي: ج ١ ص ٩.

(٩) الكلنبوي على الدواني: ج ١ ص ٩.

٢- حديث أبي ذر رضي الله عنه، في بيان عدد الرسل والأنبياء يقتضي أن الرسل هم غير الأنبياء، وهذا القول يقتضي اتحادهما، فهو مخالف لقول أبي ذر رضي الله عنه: [قلت يا نبي الله: كم عدد الأنبياء؟ قال: مئة ألف وأربعة وعشرون، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًا غفيراً] ^(١).

ولا يكون إثبات النبوة إلا باجتماع أمرين: أولهما ادعاء النبوة. وثانيهما إظهار المعجزة. فكل من ادعى النبوة وأظهر المعجزة تصديقاً لدعواه، فهو نبي ^(٢).

والنبوة فضل وهبة من الله تعالى لمن يشاء من عباده، فلا تنال بالكسب، ولا بتكلف العبادة واقتحام أشق العبادات والطاعات، ولا تدرك بتهذيب الروح وبتصفية النفس وتنقية البدن من رذائل الأخلاق، ولا بالورثة، ولا أثر للذكاء فيها، ولا تأثير للمجتمع فيها ^(٣). قال تعالى: {الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس} ^(٤)، وقوله سبحانه: {ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون} ^(٥).

الواجب في حق الرسل:

يجب على كل مكلف أن يعتقد أن الله تعالى أنبياء مرسلين، وعليه أن يعرف ما يجب في حقهم وما يستحيل وما يجوز، وقد جبل الله تعالى بعض

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير بلفظ وأربعة وعشرون ألفاً، وهي مصرحة بما أتهم في رواية الإمام أحمد في مسنده، وله لفظ آخر في صحيح ابن حبان، وعدد الرسل: ثلاثمائة وثلاثة عشر، وللحديث ألفاظ أخرى بأسانيد أخرى من مسند أحمد والبخاري والطبراني في الأوسط الذي ذكر في مجمع الزوائد، وينظر المسامرة: ص ٢٢٦، ولوامع الأنوار: ج ٢ ص ٢٥٨، وابن قطوبا على المسامرة: ص ٢٢٥.

(٢) شرح المواقف: ص ٥٥٧، وشرح المقاصد: ج ٢ ص ١٨٣، والمسامرة: ص ٢٤٠، والدواني على القصائد العضدية: ج ٢ ص ٢٧٧.

(٣) ينظر لوامع الأنوار: ج ٢ ص ٢٦٧، والباجوري على الجوهرة: ج ٢ ص ٣٠، والمواقف: ص ٥٤٥ وشرح المقاصد: ج ٢ ص ١٧٣.

(٤) سورة الحج: الآية ٧٥.

(٥) سورة النحل: الآية ٢.

الناس على مواهب معينة كالقوة والشعر والفنون.. يتفوق بها على الآخرين، ووهب الأنبياء والرسل الكفاءة العالية لقيادة الناس وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، لذلك امتازوا بصفات فيها جميع الخير، بعيدة عن النقائص، التي لا تليق بهم وهي واجبة بحقهم، فالواجب في حقهم أربع صفات:

أولاً- الفطانة: هي التيقظ والتفطن وحدة العقل والذكاء وسداد الرأي، فكل رسول ونبي تجب له هذه الصفة، فلا يجوز أن يكون مغفلاً أو بليداً أو أبله^(١). وضدها البلادة.

الدليل النقلي على ذلك:

قوله تعالى: {ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً}^(٢)، وقوله سبحانه: {وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب}^(٣)، وقوله عز وجل: {وجادلهم بالتي هي أحسن}^(٤)، أي: بالطريقة التي هي أرفق بهم، والجدال لا يكون إلا من فطن ذكي^(٥). وقوله تعالى: {وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء}^(٦)، وقوله تعالى: {يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين}^(٧)، أي خاسمتنا فأطلت، أو أتيت بأنواع الجدل^(٨).

إذن تجب الفطانة للأنبياء والرسل عليهم السلام وهي التيقظ والتفطن لإلزام الخصوم وإبطال دعاويهم ودحض حججهم، فإن قيل: هذه الآيات

(١) الدردير على الخريدة: ص ١٠٨، والباجوري على الجوهرة: ج ٢ ص ٢٥، ولوامع الأنوار: ج ٢ ص ٢٦٧.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٧٩.

(٣) سورة ص: الآية ٢٠.

(٤) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٥) الباجوري على الجوهرة: ج ٢ ص ٢٥ ورسالة في التوحيد: ص ٧٠.

(٦) سورة الأنعام: الآية ٨٣.

(٧) سورة هود: الآية ٣٢.

(٨) الباجوري على الجوهرة: ج ٢ ص ٢٥.

واردة في بعضهم. أجب: بأنه لما ثبت الكلام لبعضهم ثبت لكلهم، إذ اللائق بمنصب النبوة أن يكون عندهم من الفطنة ما يردون به الخصم ثم إنهم شهود الله على عبادته، والشاهد لا يكون مغفلاً^(١).

الدليل العقلي على ذلك:

١- لأنهم أرسلوا لإقامة الحجج وإبطال شبه المجادلين، ولا يكون ذلك من الأبله أو من المغفلين^(٢).

٢- لأنهم قادة الجميع وساستهم ومرجعهم في المشكلات^(٣).

٣- لأننا مأمورون بالاعتداء بهم في الأقوال والأفعال، والمقتدى به لا يكون بليداً. والبلادة والغلظة صفة نقص، تخل بمنصبهم الشريف^(٤).

ثانياً - الصدق: هو مطابقة حكم الخبر للواقع، في كل ما يبلغون عن المولى تبارك وتعالى، أي لا يكون خبرهم في ذلك إلا مطابقاً لما في نفس الأمر، ولا يقع منهم الكذب في شيء من ذلك لا عمداً ولا سهواً، فالرسل واجب في حقهم الصدق، بمعنى أنه واجب عقلاً، فلا يصح في العقل عدمه. والصدق أنواعه ثلاثة:

١- الصدق في دعوى الرسالة.

٢- الصدق في ما يبلغونه عن الله عز وجل إلى الناس من الأحكام الشرعية.

٣- الصدق في جميع ما ينطق به مما يتعلق بأمر الدنيا^(٥).

(١) شرح الباجوري على جوهرة التوحيد: ص ٢٧٩.

(٢) الدردير على الخريدة: ص ١٠٨، ورسالة في التوحيد: ص ٧٠.

(٣) شرح المقاصد: ج ٢ ص ١٩٨، والمسامرة: ص ٢٢٦.

(٤) الدردير على الخريدة: ص ٩٠٨، والباجوري على الجوهرة: ج ٢ ص ٢٥.

(٥) رسالة في التوحيد: ص ٦٧، والدردير: ص ١٠٥.

وضده الكذب ويستحيل صدور الكذب عن الأنبياء على سبيل العمد كما أجمع أهل الملل والشرائع كلها، ويستحيل صدوره على سبيل السهو والنسيان عند أكثر الأئمة الأعلام، وهو المعتمد على ما أفاده المحققون^(١).

الدليل النقلي على ذلك:

قوله تعالى: {وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى}^(٢)، وقوله تعالى: {وصدق المرسلون}^(٣)، وقوله سبحانه: {ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين}^(٤)، وقوله سبحانه: {لقد صدق الله رسوله الرؤيا}^(٥). وفي الحديث الشريف: قالوا يا رسول الله: إن تداعبنا، قال: إني لا أقول إلا حقاً^(٦).

الدليل العقلي على ذلك:

١- لو جاز عليهم الافتراء والكذب، للزم الكذب في خبره تعالى، وهو محال، لأنه تعالى صدقهم بالمعجزات على أيديهم، لأن المعجزة تنزل منزلة قوله تعالى: {صدق عبدي فيما يبلغ عني} فلو كذبوا فيما أخبروا به فصدقهم الله تعالى بالمعجزة لكان تصديقه لهم كذباً، لأن تصديق الكاذب كذب، والكذب على الله محال، لأن تصديقه لهم خبر، وخبره تعالى وفق علمه، والخبر وفق العلم لا يكون إلا صدقاً، فخبره تعالى لا يكون إلا صدقاً.

(١) المواقف: ص ٥٦٧، والدواني: ج ٢ ص ٢٧٩، وشرح العقائد النسفية: ص ١٣٦، ولوامع

الأنوار: ج ٢ ص ٣٠٧، والوسيلة: ص ٦٩٥.

(٢) سورة النجم: الآية ٣-٤.

(٣) سورة يس: الآية ٥٢.

(٤) سورة الحاقة: الآية ٤٤-٤٦.

(٥) سورة الفتح: الآية ٢٧.

(٦) حديث المداعبة في سنن الترمذي: كتاب البر، باب ما جاء في المزاح: ج ٦ ص ٢٠٦ وهو

حديث حسن صحيح.

٢- الكذب معصية، وهم معصومون منها. ولو كذبوا، وعرف الناس منهم ذلك، لانتفت فائدة الرسالة^(١).

أما ما ظاهره الكذب في حق الأنبياء، كما في واقعة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام حين كسر الأصنام، وأبقى كبيرها فقط، فلما سئل: {قالوا أأنست فعلت هذا بالهتتا يا إبراهيم، قال: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون}^(٢)، فإنه يؤول بأن قصده عليه السلام التبكيت والاستهزاء بعقولهم لأنه لم يكن عند الأصنام غيره، فما فائدة قولهم من فعل هذا^(٣). وقيل معناه: سلوهم إن نطقوا يصدقون، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل، وفي ضمن هذا الكلام اعتراف بأنه هو الفاعل، فقوله هذا من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، وهو الذي صححه القرطبي وقيل غيره^(٤).

ثالثاً - التبليغ: إن الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام يجب بحقهم التبليغ، وهو إيصال الأحكام التي أمروا بتبليغها إلى المرسل إليهم^(٥). بمعنى أنهم بلغوا كل ما أمرهم الله تعالى بتبليغه للخلق، ليرشدوهم إلى سعادة الدنيا والآخرة، وكل منهم لم يخف عن الناس من ذلك شيئاً ولم يترك منه شيئاً لا عمداً ولا سهواً^(٦).

وأقسام الموحى به ثلاثة:

١- قسم أمروا بكتمانه، فهو خاص بينهم وبين ربهم.

٢- قسم خيروا فيه بين التبليغ وعدمه.

(١) رسالة في التوحيد للطائي: ص ٦٧.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٦٢-٦٣.

(٣) الصاوي على الدردير: ص ١٠٥، وتفسير البيضاوي: ص ٣٢١.

(٤) تفسير القرطبي: ج ١، ص ٤٣٤٠، وتفسير البيضاوي: ٣٢٢ وغيره من التفسيرات.

(٥) الدردير على الخريدة: ص ١٠٨.

(٦) رسالة في التوحيد للطائي: ص ٦٨.

٣- قسم أمروا بتبليغه وهذا القسم الأخير هو الذي بلغوه إلى من أرسلوا إليه، لأنهم مأمورون بتبليغه، لوجوبه عليهم^(١).

الدليل النقلى على ذلك:

قوله تعالى: {وما على الرسول إلا البلاغ}^(٢)، وقوله سبحانه: {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته}^(٣).

الدليل العقلي على ذلك:

١- أنهم لو كتموا شيئاً مما أمروا بتبليغه للخلق، لكننا مأمورين بكتمان العلم، لأن الله تعالى أمرنا بالافتداء بهم، مع أن الأحاديث صريحة في أن كاتم العلم ملعون وتوعده الله بالعذاب الشديد بنص الكتاب الكريم^(٤).

٢- أنهم لو كتموا شيئاً مما أمروا بتبليغه، لكانوا خائنين، مع أنهم معصومون عن الخيانة^(٥).

٣- أنهم مبشرون ومنذرون ولا يتم التبشير والإنذار إلا بالتبليغ^(٦).

رابعاً - الأمانة: وهي ضد الخيانة، بمعنى أنهم لم يزيدوا ولم ينقصوا شيئاً في وظيفتهم^(٧)، فالله تعالى حفظ ظواهرهم وبواطنهم عليهم السلام من التلبس بمنهي عنه ولو نهى كراهة أو خلاف الأولى، فهم محفوظون ظاهراً من الزنا أو شرب الخمر أو الكذب وغير ذلك من منهيات الظاهر، وم محفوظون باطناً من الحسد والكبر والرياء، وغير ذلك من منهيات الباطن،

(١) الصاوي على الدردير: ص ١٠٩، ورسالة في التوحيد: ص ٦٩.

(٢) سورة المائدة: الآية ٩٩.

(٣) سورة المائدة: الآية ٦٧.

(٤) الباجوري على الجوهرة: ج ٢ ص ٢٥، وينظر سورة البقرة الآية: ١٥٩ {إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى...} الآية.

(٥) الدردير: ص ١٠٨، ورسالة في التوحيد: ص ٦٩، ولوامع الأنوار: ج ٢ ص ٣٠٨.

(٦) الدردير: ص ١٠٨-١٠٩، ورسالة في التوحيد: ص ٧٠.

(٧) نيل المرام في شرح عقيدة العوام: ص ٨.

والصحيح أن أفعالهم عليهم السلام دائرة بين الواجب والمندوب، فلا يقع منهم مكروه، ولا خلاف الأولى بل ولا مباح على وجه كونه مكروهاً، فإذا وقع صورة ذلك فهو للتشريع فيصير في حقهم واجباً أو مندوباً، كوضوئه ﷺ مرة أو مرتين، وبوله قائماً، وشربه قائماً، والمُحَرَّم لم يقع منهم إجماعاً، وما أوهم المعصية فمؤول ولا يجوز النطق به في غير موردته إلا في مقام البيان.

الأدلة النقلية على ذلك:

قوله تعالى: {إني لكم رسول أمين} ^(١)، وقوله تعالى: {إن الله لا يحب الخائنين} ^(٢)، وقوله تعالى: {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} ^(٣)، وقوله سبحانه: {إن الله لا يأمر بالفحشاء} ^(٤).

والدليل العقلي على ذلك:

أن الأنبياء والرسل عليهم السلام لو خانوا بفعل محرم أو مكروه لانقلب المحرم والمكروه طاعة في حقهم، لأن الله تعالى أمرنا بالافتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم.

وبعد الانتهاء من ذكر الصفات الواجبة في حق الأنبياء والرسل نذكر مسألة المعجزة لأنها مما يتعلق بوجود صدق الأنبياء وأمانتهم:

المعجزة: لغة: مأخوذة من العجز وهو ضد القدرة ^(٥).

اصطلاحاً: هي عبارة عما قصد به إظهار صدق من ادعى انه رسول الله ^(٦). أو هي الأمر الخارق للعادة المقرون بدعوى الرسالة المتحدى به قبل وقوعه، الذي يعجز من يبغى معارضته عن الإتيان بمثله.

(١) سورة الدخان: الآية ١٨.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

(٣) سورة الحشر: الآية ٧.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٢٨.

(٥) شرح المقاصد: ج ٢ ص ١٧٥.

(٦) شرح المواقف: ص ٥٤٧.

ومعنى التحدي أن يقول: آية صدقي كذا، فيقع ذلك، كانشقاق القمر
فرقتين، وكلام الضب، والقرآن العظيم، وانقلاب العصا حية تسعى، وإبراء
الأبرص والأكمه وغير ذلك مما لا يحصى، وأعظمها كتاب الله العظيم
القرآن الكريم، ولو لم يكن من المعجزات إلا القرآن الكريم لكفى.

قال حضرة الشيخ الدكتور عبدالله مصطفى الهرشمي رحمه الله:

ذهب النهار بغير ما لنبيننا وبما له لا تذهب الأيام
فالمعجزات إذا عُدَدَنَ فإنه آياته القرآن والإسلام
إثتان في كنف الإله وحفظه مادام لابن الأولين دوام^(١)

وقد اشترط المحققون من العلماء فيها الشروط الآتية^(٢):

١- أن تكون أمراً من الله تعالى، ليصدق مدعي النبوة. والأمر يشمل:

أ. القول: كالقرآن، ب. الفعل: كنبع الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ،
ج. والترك: كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام.

٢- أن تكون خارقة للعادة، التي اعتاد عليها الناس، واستمروا عليها مرة
بعد أخرى. وهذا الشرط يفيد أن غير الخارق لا يكون معجزة، كما إذا
قال آية صدقي طلوع الشمس من حيث تطلع، وغروبها من حيث
تغرب.

٣- أن تكون على يد مدعي النبوة أو الرسالة. أي أن صاحبها يقوم بدعوة
إلى دين فيه سعادة الناس في الدنيا والآخرة. وعندئذ لا تدخل في
المعجزة الأمور الآتية:

(١) نفحات الحياة: ص ٧٥.

(٢) (الباجوري على الجوهرة: ج ٣٥، وشرح النسفية: ص ١٣٣، وشرح المواقف: ص ٥٤٧،

وشرح المقاصد: ج ٢ ص ١٧٥، والمسامرة: ص ٢٤٠، ورسالة في التوحيد: ص ٧٣.

أ- الإهانة: وهي ما يظهر على يد فاسق أو كافر، كما وقع لمسيمة الكذاب، حين بصق في عين أعور لتبرأ، فعميت الصحيحة.

ب- الاستدراج: وهي ما يظهر على يد فاسق أو كافر، خديعة أو مكرأ به، أي: استدراجاً لهم، وزيادة في غيهم، حتى يأتيهم أمر الله تعالى وهم غافلون، كما قال تعالى: {فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين} ^(١). وقال رسول الله ﷺ: (إذا رأيت الله يعطي العبد في الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يجب، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ: {فلما نسوا ما ذكروا به...} الآية والآية التي بعدها) ^(٢).

ج- المعونة: وهي ما يظهر على يد العوام تخليصاً لهم من شدة.

د- الكرامة: هي ما يظهر على يد صالح تقي، وهي أمر خارق للعادة تظهر على يد الولي غير مقرونة بدعوى النبوة. والولي هو العارف بالله تعالى وصفاته بحسب ما يمكن، المواظب على الطاعات، المجتنب عن المعاصي، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات ^(٣). وسبب الكرامات الإيمان والتقوى ^(٤). قال تعالى في وصف الأولياء: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون،

(١) سورة الأنعام: الآية ٤٤-٤٥.

(٢) أخرجه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني في الكبير وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن عقبة بن عامر، الدر المنثور: ج ٣ ص ١٢، والجامع الصغير: ج ١ ص ٦. حديث حسن.

(٣) شرح النسفية للفتازاني: ص ١٣٩، وشرح المقاصد: ج ٢ ص ٢٠٣، والرسالة القشيرية: ص ١٩٨، ولوامع الأنوار: ج ٢ ص ٣٩٧.

(٤) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان للشيخ ابن تيمية: ص ٨٩، واليوافيت والجواهر: ج ١ ص ١٦٠ وما بعدها.

لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم^(١).

وقد أثبت الكرامة جمهور المسلمين من السلف والخلف، وأبو الحسين البصري من المعتزلة^(٢). وقد أنكر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله على من أنكرها وضلّله^(٣). بل جعل بعضهم إنكارها فسقاً وابتداعاً^(٤). وحجتهم آيات القرآن الكريم في شأن أهل الكهف ومريم الصديقة ووقائع حدثت على يد الصحابة والتابعين وهي أمر ممكن ووجود الممكنات مستند إلى قدرته تعالى الشاملة لجميعها، فلا يمتنع شيء منها على قدرته^(٥). وإثبات الكرامة للولي هو إثبات معجزة الرسول ﷺ لأنه لن يكون ولياً إلا بعد أن يكون محقاً في ديانته وطاعته له^(٦).

٤- وأن المعجزة لا تكون متقدمة على دعوى النبوة، بل مقارنة لها أو متأخرة عنها بزمان يسير يعتاد مثله، لأن المعجزة شهادة من الله تعالى على صدق المدعي، والشهادة لا تتقدم على الدعوى. فخرج بذلك الإرهاص (الأساس) وهو ما كان قبل النبوة من الخوارق تأسيساً لها، كإظلال الغمام له ﷺ قبل بعثته، وحادثة شق صدره الشريف، وكلام سيدنا عيسى عليه السلام في المهد، والأنبياء قبل نبوتهم لا يقصرون عن درجة الولاية.

٥- أن تكون موافقة لدعوى النبوة. فخرج بذلك المخالف لها، كما إذا قال: آية صدقي انفلاق البحر فانفلق الجبل.

(١) سورة يونس: الآية ٦٢-٦٤.

(٢) لوامع الأنوار: ج ٢ ص ٣٩٦.

(٣) لوامع الأنوار: ج ٢ ص ٣٩٣.

(٤) الصاوي على الدردير: ص ١٢٢.

(٥) شرح الواقف: ص ٥٧٨، وشرح المقاصد: ج ٢ ص ٢٠٣.

(٦) شرح النسفية للتفتازاني: ص ٢٩٢، والدواني والرسالة القشيرية: ص ١٥٨.

٦- أن لا تكون مكذبة له، فخرج بذلك ما إذا كانت مكذبة له، كما إذا قال: آية صدقي نطق هذا الجماد، فنطق بأنه مفتر كذاب.

٧- أن تتعذر معارضته. وخرج بذلك السحر: وهو قواعد تكتسب بالتعليم يقتدر بها على أفعال غريبة. والكهانة: وهي التنبؤ بالمغيبات لا عن دليل، والشعوذة: وهي خفة في اليد يرى أن لها حقيقة، ولا حقيقة لها، كما يقع لرجال السيرك والشعوذة.

٨- أن لا تكون في زمان نقض العادة كزمن طلوع الشمس من مغربها، لأن ما يظهر عند ظهور أشراط الساعة وانتهاء التكليف لا يشهد بصدق الدعوى لكونه زمان نقض العادات بدهياً^(١).

وإظهار المعجزة يفيد العلم بصدق النبي أو الرسول، كما يفيد تصديق الله سبحانه له، فكأنما - على ما قال إمام الحرمين الجويني رحمه الله: بمنزلة أن يقول: جعلته رسولاً، أو أنشأت الرسالة فيه^(٢). وذلك لأن معجزة الأنبياء بخرقها العادة أعجزت المتحدين عن المعارضة مع كمالهم بما يناسب تلك المعجزة، وفرط اهتمامهم وتوفر دواعيهم.

ولهذا كانت معجزة كل نبي من جنس ما غلب على أهل زمانه، وتهاكوا عليه وتفاخروا به، فاشتهر قوم موسى بالسحر، وعجزوا عن معارضة معجزته عليه السلام في قلب العصا حية، واشتهر قوم عيسى بالطب، وعجزوا عن معارضة معجزته عليه السلام في إحياء الموتى وإبراه الأكمه والأبرص، واشتهر العرب قوم سيدنا محمد ﷺ بالفصاحة والبلاغة، وعجزوا عن معارضة معجزته القرآن الكريم في بلاغته^(٣).

(١) الدواني وشرح المقاصد وشرح المواقف ولوامع الأنوار والصاوي على الدردير والباجوري على الجوهرة والرسالة القشيرية: ص ١٥٨.

(٢) شرح المقاصد: ج ٢ ص ١٧٩.

(٣) شرح المقاصد: ج ٢ ص ١٧٩، وأعلام النبوة: ص ٥٧، وشرح المواقف: ص ٥٦٢، والبرهان للزركشي: ج ٢ ص ٩٨.

وحكم الإيمان بالمعجزة واجب على المكلف ولا يجوز الاعتقاد بخلافه، لأن إثبات النبوة لا يتم إلا باجتماع أمرين كما سبق وهما: ادعاؤه النبوة وإظهاره المعجزة، لكي يظهر صدقه أمام من أرسل إليهم. قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} ^(١)، وقال المصطفى ﷺ: (ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله لي، فأرجوا أن أكون أكثرهم تبعاً) ^(٢).

هذا وقد ذهب بعض الباحثين إلى إنكار المعجزة بحجج واهية منها أنها خروج عن العادة المألوفة ولأن العلم الحديث يقتضي عدم التعويل عليها، وردهم علماء الأمة بردود علمية دقيقة أثبتوا أن طرق إثبات المعجزات صحيحة قطعاً بلغت حد التواتر، وإنكارها هو إنكار للقرآن وصحيح الروايات النبوية، وتجاهلها يعتبر الخطوة الأولى لإنكار الغيبيات وهدم الشريعة الإسلامية من أساسها، وهدم الإجماع المتعاقب على ثبوت المعجزات، وضرب الإيمان بالله ورسله، والوقوع في الكفر والعياذ بالله تعالى.

ثم بعد ما ذكر الناظم رحمه الله ما يجب في حق الرسل وما يستحيل عليهم شرع في بيان ما يجوز لهم فقال:

وَجَائِزٌ فِي حَقِّهِمْ مَنْ عَرَضَ بَغَيْرِ نَقْصٍ كَحَقِيفِ الْمَرَضِ

المفردات:

عَرَضَ: بفتح الراء ما يعرض للإنسان من مرض وغيره ^(٣).

(١) سورة الأنعام: الآية ٨٣.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الاعتصام، الباب الأول، ج ٩ ص ١١٣. وصحيح مسلم واللفظ له،

كتاب الإيمان: ج ١ ص ١٣٤.

(٣) نيل المرام: ص ٨.

الشرح:

معنى البيت يجب علينا أن نعتقد جزءاً أن الجائز في حق الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقوع الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية، فالأنبياء والرسل بشر، يأكلون ويشربون، وينامون ويمرضون، ويحزنون وينسون، ويجوعون ويعطشون ويتزوجون ويغضبون، ويتعبون ويستشيرون... ونحو ذلك من صفات البشر التي لا نقص فيها عليهم.

وإنما اختارهم الله عز وجل من جنس المرسل إليهم، ليكونوا على صلة وثيقة بهم، شاعرين بأحاسيسهم مطلعين على ما يعانونه من آلام مقيمين عليهم الحجة الدامغة بإيضاح الطريق المستقيم لهم.

الدليل النقلي على ذلك:

قوله تعالى: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم} (١). وقوله سبحانه: {قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهم إله واحد} (٢). وقوله تعالى: {قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء} (٣). وقوله سبحانه: {ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية} (٤).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجل فكلّمه، فجعل ترعد فرائضه، فقال له: هون عليك، فإنني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد (٥). وقوله الشريف ﷺ: {إنما أن بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

(٢) سورة الكهف: الآية ١١٠. وسورة فصلت: الآية ٦.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٨٨.

(٤) سورة الرعد: الآية ٣٨.

(٥) سنن ابن ماجه: ج ٢ ص ١١٠١.

فذكروني^(١)، وتواضعه وسيرته بأبي هو وأمي ﷺ تشهد ببشريته ولا مجال لأحد في إنكار ذلك، وعبوديته الصادقة الظاهرة في كلامه ومناجاته لربه وأدعيته بين أصحابه خير دليل على صحة ما نقول كما في الحديث: (اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي في يدك...) ^(٢).

فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن الأنبياء والرسل عليهم السلام يتعرضون لما يتعرض له غيرهم من البشر من الأكل والشرب، والبيع والشراء ودخول الأسواق والزواج، والموت والحياة، واللذة والألم والصحة والمرض، إلا أن ما ينزل بهم لا يعرضهم لنفور الناس منه، والنوم لكن بأعينهم فقط دون قلوبهم، وخروج المني لكن بامتلاء الأوعية فقط دون الاحتلام لأنه من تلاعب الشيطان، فلا يجوز للشيطان أن يتسلط عليهم وغير ذلك. ومن أدلة العقل أنهم خلقوا جسداً يأكلون ويشربون وما كانوا خالدين، وكذلك مشاهدة من حضرهم أنها واقعة بهم.

وأما الأعراض التي فيها نقص كالجذام والبرص، والصمم والعمى، والبكم والشلل والعرج والعمور، فمستحيلة عليهم، وما قيل أن شعيباً عليه السلام كان ضريباً، لا أصل له، ويعقوب عليه السلام إنما حصلت له غشاة وزالت، وكذلك ما قيل أن الدود يخرج من جسد أيوب عليه السلام عند مرضه، أكذوبة لا محالة ^(٣).

فوائد وقوع الأعراض البشرية بالأنبياء:

إن لوقوع الأعراض البشرية كالابتلاء والمرض والنسيان والفقر... الخ بالأنبياء والرسل عليهم السلام فوائد عديدة تتلخص بما يأتي:

١- تعظيم أجورهم: فالبلاء والأمراض يترتب عليه الأجر العظيم والثواب

(١) صحيح البخاري: كتاب الصلاة: ج ١ ص ١١١، وصحيح مسلم: كتاب المساجد: ج ١ ص ٤٠٠.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده: ج ١ ص ٤٥٢.

(٣) جلاء الأفهام شرح عقيدة العوام: ص ٣٣.

الكبير، لهذا قال حضرة النبي ﷺ: (أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمتل، فالأمتل)^(١). وقال الإمام القشيري: ليس كل أحد أهلاً للبلاء، إذ البلاء للأولياء، وأما الأجانب فيتجاوز عنهم، ويخلى سبيلهم^(٢).

٢- التشريع: فسهو رسول الله ﷺ في الصلاة تشريع للناس، وتعليم لهم كيفية سجود السهو، لأن دلالة الفعل أقوى من دلالة القول.

٣- تسلي غير الأنبياء بأحوالهم إذا نزل بهم ما نزل بالأنبياء، فإذا نظر العاقل في أحوال الأنبياء من مرض وأسقام، وقلة مال وأذى الناس لهم، مع علو مقامهم ورفعة شأنهم، فإنه يتسلى ويتصبر، فلم يحزن على ما نزل به من بلاء.

٤- تنبيه غير الأنبياء على خسة قدر الدنيا عند الله تعالى، حين يرون الأنبياء قد عرضوا عنها، وانصرفوا عن ملاذها ومغانمها. وذم الدنيا الوارد في بعض النصوص، إنما هو في الدنيا الشاغلة عن الله تعالى، وعليه يحمل قول المصطفى ﷺ: (ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم)^(٣). أي من التسبيح والتحميد والتهليل وطلب العلم النافع ونشره بأدابه وأخلاقه. أما الدنيا التي لم تشغل عنه تعالى فلا ذم فيها، بل هي محمودة، وعليه يحمل قوله ﷺ: (نعم الدنيا مطية المؤمن، بها يصل إلى الخير، وبها ينجو من الشر)^(٤)، وبذلك يعلم: أن الدنيا ليست محمودة ولا مذمومة لذاتها^(٥).

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده والبخاري والترمذي وابن ماجه عن سعد ؓ، وهو صحيح، الجامع الصغير: ج ١ ص ٤٢.

(٢) ينظر أصول الدين الإسلامي: ص ٢٣٥.

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد: ج ٧ ص ٨٠.

(٤) الدردير على الخريدة: ص ١٠٩، والباجوري على السنوسية: ص ٤٤.

(٥) أصول الدين الإسلامي: ص ٢٣٦.

قال الناظم رحمه الله:

عَصَمْتُهُمْ كَسَائِرِ الْمَلَائِكَةِ وَاجِبَةٌ وَفَاضِلُوا الْمَلَائِكَةِ

المفردات:

عصمتهم: حفظ الله تعالى للأنبياء والرسل من الذنب مع استحالة وقوعه^(١). والمشهور عصمة جميع الملائكة.

الشرح:

يجب على كل مكلف أن يعتقد وجوب العصمة للأنبياء والرسل عليهم السلام، كما أن الملائكة معصومون، فهم منزهون عن الوقوع في المعاصي، فلا يتركون واجباً، ولا يرتكبون محرماً، ولا يتصفون إلا بالأخلاق الكريمة، لأنهم قدوة حسنة، والمثل الأعلى الذي يتجه إليه الناس والله هو الذي تولى تأديبهم وتهذيبهم وتعليمهم حتى كانوا أهلاً لذلك.

والعصمة لغة: الحفظ. واصطلاحاً: هي لطف من الله تعالى، يحمله على فعل الخير، ويرده عن فعل الشر، مع بقاء الاختيار، تحقيقاً لابتناء^(٢). وتخصيص القدرة بالطاعة، فلا يخلق لمن وُصف بها قدرة المعصية^(٣).

أو: هي أن لا يخلق الله تعالى فيهم ذنباً^(٤). والذنب إما أن يكون من الكبائر أو من الصغائر:

النوع الأول: العصمة من الكبائر

للكبائر تعاريف مختلفة، أرجحها: أن الكبائر هي ما ترتب عليها حدٌّ أو نوءد عليها بالنار أو اللعنة، أو الغضب.

(١) نيل المرام في شرح عقيدة العوام: ص ٩.

(٢) المسامرة على المسامرة: ص ٢٢٩.

(٣) المسامرة: ص ٢٢٧.

(٤) الدواني على العقائد العضية: ج ٢ ص ٢٧٩، والمواقف: ص ٥٧٥.

أما الصغائر: فهي ما ليس فيها حد في الدنيا، ولا وعيد في الآخرة^(١). والكبائر إما كفر أو كذب أو غيرهما من الذنوب الكبيرة الأخرى. وتفصيل عصمة الأنبياء والرسل عن هذه الأنواع من الكبائر هو: أولاً: العصمة من الكفر:

اتفق جمهور المسلمين على أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الكفر قبل الوحي وبعده، ولا يجوز الكفر عليهم في حال صغرهم تبعاً للأهل أو القبيلة، لأنهم مؤمنون بالله، عارفون به حقيقة، فلا يجري عليهم حكم الكفر تبعاً^(٢).

ثانياً: العصمة من الكذب: وقد بينا ذلك مفصلاً في الصفات الواجبة بحق الرسل عليهم السلام.

ثالثاً: العصمة من الكبائر الأخرى:

ونبين هنا حال صدور الكبيرة عنهم عمداً أو سهواً، قبل البعثة أو بعدها: قبل البعثة: الأنبياء عليهم السلام قبل بعثتهم معصومون من صدور الكبيرة، التي توجب النفرة منهم، كعهر الأمهات والفجور في الآباء^(٣). ورحم الله الشاعر الكردي أحمد شوقي بيك في مدح خير البرية ﷺ وهو يقول:

خُلِّقَتْ مَبْرءً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ خَلَقْتَ كَمَا تَشَاءُ

وبعد البعثة: هم معصومون منها عمداً، وهو قول الجمهور من المحققين والأئمة، ومذهب الناظم رحمه الله بقوله [كسائر الملائكة واجبة]،

(١) شرح الطحاوية: ص ٣٥٦، والشورى بين النظرية والتطبيق للدكتور قحطان الدوري: ص ١١٤.

(٢) ابن قطلوبغا على المسابرة: ص ٢٢٧، وينظر الدواني على العضدية: ج ٢ ص ٢٨٠، وشرح النفسية: ص ١٣٦، وشرح المقاصد: ج ٢ ص ١٩٣.

(٣) شرح النفسية: ص ١٣٦، والدواني: ج ٢ ص ٢٧٩، شرح المواقف: ص ٥٦٨، والوسيلة: ص ٦٩٥.

ومعصومون منها سهواً أو على سبيل الخطأ في التأويل، وهو المختار^(١).

النوع الثاني: العصمة من الصغائر

الصغائر نوعان:

أ- صغائر الخسة التي تلحق فاعلها بالأراذل، كسرقة حبة أو لقمة والتطيف بتمرة. والأنبياء قبل البعثة معصومون منها^(٢). وبعد البعثة كذلك، فلا تصدر عنهم أصلاً لا عمداً ولا سهواً بالاتفاق^(٣).

ب- الصغائر الأخرى: والأنبياء غير معصومين منها قبل البعثة عمداً وسهواً، أما بعد البعثة فهم معصومون منها عمداً، وتجوز سهواً، لكن لا يصرون عليها، ولا يقرون من الله عليها، بل ينبهون فينتبهون وعليه المحققون من المحدثين والسلف الصالح^(٤). لقوله ﷺ: (إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني)^(٥).

أدلة عصمة الأنبياء كثيرة نذكر منها أدلة النقل أولاً ثم العقل ثانياً:

قال تعالى: {واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا}^(٦)، وقوله سبحانه: {وما كان لنبي أن يغفل}^(٧)، وقوله عز وجل: {والأفئيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني}^(٨).

(١) الموافق: ص ٥٦٧، والوسيلة: ص ٦٩٥، وشرح النسفية للتفتازاني: ص ١٣٦.

(٢) شرح النسفية للتفتازاني: ص ١٣٦، وشرح الدواني: ج ٢ ص ٢٧٩.

(٣) الموافق: ص ٥٦٧، وشرح النسفية: ص ١٣٦، والوسيلة: ص ٦٩٥، والمسامرة: ص ٢٢٩.

(٤) الدواني: ج ٢ ص ٢٧٩، وشرح المقاصد: ج ٢ ص ١٩٣، وشرح الموافق: ص ٥٦٨، ولوامع

الأنوار: ج ٢ ص ٣٠٤.

(٥) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما وسبق تخريجه.

(٦) سورة الطور: الآية ٤٨.

(٧) سورة آل عمران: الآية ١٦١.

(٨) سورة طه: الآية ٣٩.

ومن أدلة العقل على ذلك:

١- لو صدر منهم الذنب، لحرم اتباعهم فيما يصدر عنهم، مع أن اتباعهم فرض بالإجماع، ولقوله تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} (١).

٢- لو أذنبوا لردت شهادتهم، إذ لا شهادة لفاسق بالإجماع، ولقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} (٢)، لأن من لا تقبل شهادته في القليل الزائل من متاع الدنيا، كيف تسمع شهادته في الدين المقيم؟

٣- لو أذنبوا لاستحقوا العذاب واللوم واللعن، لدخولهم تحت قوله تعالى: {ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا} (٣)، لكن ذلك منتف بالإجماع، ولكونه من أعظم المنفرات.

٤- لو جاز عليهم أن يخونوا الله تعالى بفعل محرم أو مكروه، للزم أن يكون ذلك المحرم أو المكروه طاعة، لأن الله تعالى أمرنا بطاعتهم واتباعهم في أقوالهم وأفعالهم من غير تفصيل، فكل ما صدر منهم فنحن مأمورون به، وكل مأمور به فهو طاعة، لأن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء (٤).

٥- واقع حالهم ينبأ بأنهم مفاتيح للخير ومغاليق للشر ولا يصدر عنهم إلا ما هو خلق حسن وفعل طيب لقوله تعالى: {إنهم كانوا يسارعون في الخيرات} (٥)، وقوله: {وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار} (٦).

(١) سورة آل عمران: الآية ٣١.

(٢) سورة الحجرات: الآية ٦.

(٣) سورة الجن: الآية ٢٣.

(٤) الدردير على الخريدة: ص ١٠٥، والباجوري على السنوسية: ص ٤٢.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٩٠.

(٦) سورة ص: الآية ٤٧.

أما ما نقل عن الأنبياء مما يشعر بمعصيته: فما نقل بطريق خبر الأحاد فمردود، لأن نسبة الخطأ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصي للأنبياء، وما نقل بطريق التواتر فيفسر بأنه نسيان أو سهو بشري، أو بأنه حدث قبل البعثة كأكل سيدنا آدم من الشجرة التي نهى عنها أو كقتل سيدنا موسى عليه السلام للمصري في بلاده، أو بأنه من الصغائر، أو بأنه من قبيل ترك الأولى والأفضل كما حدث لسيدنا محمد ﷺ مع ابن أم مكتوم فنزلت عيس وتولى. وترك النبي ﷺ الأفضل إنما هو في الأمور التي لم يرد بها نص صريح، فهو يعمل نظره وفكره، ويبدل وسعه أولاً، ومع ذلك فهو ينبه على تركه الأفضل، وفي ذلك درس للدعاة والعلماء والمفكرين في حضارة الإسلام أن يستفيدوا من تلك الدروس فلا يقع منهم خلاف الأولى والأفضل^(١).

وحكمة تسجيل تنبيه الأنبياء عليهم السلام التي حكيت في القرآن الكريم بحيث تتلى مع الزمان تدل على صدق الأنبياء، وأن ما يبلغونه يكون بأمر الله بلا إخفاء لشيء منه، وإن الأنبياء على جلالة قدرهم وكثرة طاعتهم، يلجؤون إلى الله تعالى دائماً بالاستغفار والتضرع في أدنى معاتبة بشرية متوقعة، فعلى الناس وهم أدنى مرتبة منهم بكثير أن يتضرعوا إلى الله تعالى كل حين، وكذلك تدل على أن الصغائر ليست مما يقدر في الإيمان، فلا تكفر الإنسان^(٢). وكان الرسول ﷺ يرجع إلى الصواب الذي بيّنه الله له، ولا يكتّم من الوحي شيئاً من تسجيل الخطأ عليه أو توجيه العتاب إليه^(٣).

والناظم رحمه الله أشار إلى وجوب عصمة الأنبياء ومثلها بعصمة الملائكة، والمشهور عصمة جميع الملائكة من كل عيب ونقص وذنب وغير ذلك.

(١) المواقف وشرحه: ص ٥٦٨، وشرح المقاصد: ص ١٩٣، وشرح النسفية: ص ١٣٦، والدواني:

ج ٢ ص ٢٧٩.

(٢) شرح المقاصد: ج ٢ ص ١٩٨.

(٣) مناهل العرفان: ج ٢ ص ٢٨٨.

وأما قولهم: {أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء} (١)، فليس إنكار ولا اعتراضاً على الله تعالى بل مجرد استفهام، وما ورد في قصة هاروت وماروت مما يذكره المؤرخون لم يصح فيه شيء من الأخبار، بل هو من افتراء اليهود وكذبهم، فهم كذبوا بحق الله تعالى واتهموا رسله بشتى أنواع الاتهامات الباطلة وافتروا على الملائكة ووصفوهم بالأنوثة وغير ذلك، وتبعهم بعض المؤرخون في ذلك، وقيل أنهما (هاروت وماروت): كانا رجلين صالحين سميا بالملكين تشبيهاً لهما بالملكين (٢).

وقول الناظم: [وفاضلوا الملائكة] وقيل الحديث عن هذا الموضوع الواسع الكبير رأيت لزماً عليّ أن أبين معنى التفضيل والمفاضلة وأسبابها بين الأنبياء الكرام أنفسهم من جهة وبينهم وبين الملائكة من جهة أخرى.

وبيان النقطة الأولى هو أن المقصود بالتفضيل بين الأنبياء التفاوت بينهم من حيث الرتب والمنازل والدرجات. يقول القاضي عياض رحمه الله: [وإنما التفاضل في زيادة الأحوال، والخصوص، والكرامات، والرتب، والألطاف] (٣). فعندما نقول: النبي فلان أفضل من النبي فلان، نعني أن مقامه الروحي أعلى من مقام النبي فلان بسبب زيادة له في تحسين أخلاقه وأعماله، أو نعني له خصوصية في مقامات أرباب الكمال، أو كراماته ومعجزاته وخوارق أفضل وأقوى من معجزة وكرامة وخارقة أخيه النبي فلان، أو رتبته في عبادته ودرجته في صبره على أذى الناس عندما كان يدعوهم أرفع من درجة النبي فلان، أو أن ملاطفته ومخالطته للناس، وحسن عشرته، وطيب مجاملته، وكبير مداراته للأمة كان أكثر من ملاحظة ومخالطة ومدارة أخيه النبي فلان، فمن هنا كان هذا النبي أفضل.

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٢) المعرفة: ص ٧٩.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وهو مع شرحه للملا علي القاري عليه رحمة الله الباري: ج ١ ص ٤٨١.

ولا يجري التفاوت بينهم من حيث وظيفة النبوة، فالأنبياء كلهم في عمل النبوة سواء، لا فرق بين هذا النبي وذاك، ولا يجوز لنا أن نفرق بينهم من هذه الناحية ولا من ناحية الإيمان بكل واحد منهم أيضاً. قال تعالى: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله} ^(١)، لكن التفاوت بين الأنبياء إنما يجري بينهم من حيث الدرجة، والمنزلة، والجاء، والخصوصية، والثواب، والمعجزة، والكرامة.

ويمكن معرفة سبب هذا التفاوت في الدنيا من خلال الوقوف على ثلاثة أحوال، ومعرفة ثلاثة أوصاف، فمن كانت هذه الأوصاف مجتمعة فيه أكمل وأكثر من غيره كان أفضل منه. علماً أن أنبياء الله ورسله في عقيدتنا كلهم كاملون، لا نقص فيهم ولا عيب، والأوصاف هي:

١- أن تكون آياته، أي خوارق عاداته، ومعجزاته المقرونة بالتحدي أظهر وأبهر وأشهر.

٢- أن تكون أمته أزكى، أي أنقى، وأكثر وأزيد من غيرهم، كقيمة وكمية.

٣- أن يكون النبي المفضل في ذاته أفضل وأظهر وأنور وأشهر ^(٢).

فالأنبياء الكرام متفاضلون فيما بينهم، كل منهم بحسب ظهور هذه الأوصاف فيه وفي أمته أكثر وأكمل من غيره وغيرهم، ومن تأمل في هذه الأوصاف الثلاثة وجدها إما أن تكون في معجزة النبي أو في أمته أو في ذاته الشريفة.

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

(٢) ذكر هذه الأوصاف القاضي عياض في كتابه الشفا: ج ١ ص ٤٨١، وفخر الدين الرازي في تفسيره لقوله تعالى: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض} البقرة الآية ٢٥٣، ج ٦ ص ٢١٢، ومن العلماء من ذكر غير ذلك كالإمام الماوردي رحمه الله في تفسيره: ج ١ ص ٢٦٧، وينظر الموضوع بالتفصيل في الوسطية في العقيدة الإسلامية: ص ١٩٦.

ويعتقد المسلمون جميعاً من أهل السنة والجماعة بالإجماع، علماء وعامة، رجالاً ونساءً أن نبينا وحبیبنا محمداً ﷺ هو أفضل وأشرف وأزكى وأعظم وأكرم خلق الله على الإطلاق وأحبهم إليه، فلا يوجد أحد في السماوات ولا من أهل الأرض يساويه في مقام من مقاماته، ولا في درجة من درجاته.

وهو أفضل من كل الأنبياء الكرام، والرسل العظام، وملائكة السماء، وملائكة الأرض، ومن كل بني الإنسان والجان، وعلى هذه العقيدة الكريمة أجمع علماء الأمة الإسلامية كلهم في سائر الأقطار والبلدان، من غير توقف أحد منهم، على أنه أفضل الأولين والآخرين من غير استثناء^(١).

أدلة النقل على ذلك:

قوله تعالى: {ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض}^(٢)، فهذا النص صريح بأن بعض الأنبياء فضلهم الله تعالى على بعضهم الآخر بالمواهب القدسية، والمراتب النفسية، والأخلاق العالية الزكية، أو بالمعجزات الجسمية، أو بعموم الرسالة، أو بفضائل الأمة^(٣).

وقوله تعالى: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات}^(٤)، إن الحق تبارك وتعالى فضل سيدنا موسى عليه السلام بأن كلمه مباشرة من غير سفير، ورفع سيدنا محمد ﷺ درجات على

(١) ينظر أصول الدين للبيضاوي: ص ١٦٥، وشرح المقاصد: ج ٥ ص ٤٥، وشرح النسفية: ص ٢٨٤، والشفا: ج ١ ص ٣٦٠-٣٦٢، وشرح الطحاوية: ج ١ ص ١٥٨، وتفسير الرازي: ج ٦ ص ٢١٠، وشرح الفقه الأكبر: ص ٩٤، وأصول العقيدة الإسلامية: ص ٥٣، وشرح جوهرة التوحيد: ص ١٨٨، واليوافيت والجواهر: ج ٢ ص ٢١، وتبوير القلوب: ص ٥٣، والوسيلة: ص ٧٠٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٥٥.

(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن للشيخ عبدالكريم بياره: ج ٥ ص ١٩٢.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

سائر الأنبياء بإرساله إلى الناس كافة وجعل معجزته القرآن الكريم، وخصه بالإسراء والمعراج^(١). وقوله تعالى: {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً}^(٢)، وهذا دليل واضح على عموم رسالته وشمولها للعالم، وبعثته إلى كل الخلق تقتضي أن تكون مشقته ومسؤوليته أكبر، ومن كانت مشقته أكثر ومسؤوليته أكبر وجب أن يكون أفضل^(٣).

وقوله تعالى: {ورفعنا لك ذكرك} أي رفعناه في الملأ الأعلى، ورفعناه في الأرض، ورفعناه في هذا الوجود جميعاً^(٤).

ومن السنة المطهرة: قول الحبيب الأعظم ﷺ: (أنا سيد الناس يوم القيامة)^(٥)، وقوله الشريف: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع)^(٦). والسيد هو الذي يفوق قومه في الخير ويفزع إليه الناس في النوائب والشدائد فيقوم بأمرهم، وقوله يوم القيامة فسببه أنه ﷺ يظهر يوم القيامة سؤدده لكل أحد ويحتاجه الجميع بلا استثناء^(٧).

وقوله الشريف: (فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون)^(٨).

(١) تفسير النسفي: ج ١ ص ١٢٧١، وابن كثير: ج ١ ص ٣٠٥.

(٢) سورة سبأ: الآية ٢٨.

(٣) تفسير الرازي: ج ٦ ص ٢١١.

(٤) سورة الإنشراح: الآية ٢. وينظر تفسير البيضاوي: ج ٥ ص ١٨٩، والكشاف: ج ٤ ص ٢٦٦، وتفسير في ظلال القرآن: ج ٣٠ ص ١٩٠.

(٥) صحيح البخاري برقم (٣٣٤٠) و(٤٧١٢) وصحيح مسلم: برقم (٩٤) والترمذي: ج ٤ ص ٣٧ (٢٤٣٤).

(٦) صحيح مسلم: ج ١٥ ص ٤٢ (٢٢٧٨)، وأبو داود: ج ٤ ص ٢١٨ (٤٦٧٣)، وابن ماجه: ج ٢ ص ٥٨١.

(٧) الوسطية في العقيدة الإسلامية: ص ٢٠٣.

(٨) صحيح مسلم: ج ٥ ص ٨ (٥٢٤) والترمذي برقم (١٥٥٣).

وقد أجمع المسلمون من أهل السنة والجماعة على أن سيدنا محمداً ﷺ هو أعظم خلق الله على الإطلاق وأفضلهم من غير توقف ولا استثناء، قال الفخر الرازي: [أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض وأجمعت الأمة على أن محمداً ﷺ أفضل من الكل]^(١). وقال النقّازاني: [أجمع المسلمون على أن أفضل الأنبياء محمد ﷺ]^(٢)، وقال أبو البقاء الشافعي: [إنه ﷺ مفضل على سائر الخلق، حتى الأنبياء ودليل ذلك هو الإجماع]^(٣)، وجاء في المنظومة الشيبانية:

[وأن رسول الله أفضل من مشي على الأرض من أولاد آدم أو عدا]^(٤)

وقد أقر هذا الإجماع جمهور غفير من المفسرين والمتكلمين والمحدثين والفقهاء وغيرهم من جيل إلى جيل إلى زماننا هذا من غير خلاف ولا شك. ولكن أنكر التفضيل جماعة من المعتزلة بأحاديث تخالف روح وجوهر آيات الله البينات في كتابه العزيز وهذا التعارض هم خلقوه وصنعوه لمخالفة منهج أهل السنة والجماعة والجمهور من الأمة الإسلامية، وإن بعض منتحلي الإسلام جاءوا بأقوال لا أصل لها وليس لها قيمة علمية إنما أرادوا التشويش على أبناء الأمة وفتح مجال التنصير والتبشير بين المسلمين. ونكتفي بتلك الإشارة ونعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

أما مسألة تفضيل الأنبياء الكرام على جميع الملائكة فهذا هو قول أكثر الأشاعرة والماتريدية والمحدثون بالإجماع وعليه الشيعة وأكثر أهل الملل^(٥).

(١) تفسير الرازي: ج ٦ ص ٢١٠.

(٢) شرح المقاصد: ج ٥ ص ٤٧.

(٣) المعتقد الإيماني: ص ٢٦.

(٤) شرح المنظومة الشيبانية لأبي البقاء: ص ٢٦.

(٥) المواقيف بشرحه: ج ٨ ص ٢٨٣، وحاشية الجرجاني على الكشاف: ج ١ ص ٥٨٥، وشرح

النسفية: ص ٣٢٠، والوسيلة: ص ٧٠٩، وشرح الفقه الأكبر: ص ٩٨، وشرح النسفية للسعدي:

ص ٢٥٧، وأصول الدين للبغداد: ص ١٦٦، ومقالات الإسلاميين: ج ٢ ص ١١٢.

بخلاف المعتزلة فإنهم يقولون بعكسه تماماً فافهم^(١).

أدلة جمهور أهل السنة والجماعة على ذلك:

١- قال تعالى: {وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا}^(٢)، ووجه الاستدلال بالآية الكريمة هو أن السجود لا يكون إلا من الأدنى إلى الأعلى دون العكس. قال العلامة الأيجي: [وأمر الأدنى بالسجود للأفضل هو السابق إلى الفهم، وعكسه على خلاف الحكمة^(٣)]. فإذا سجد الملائكة لسيدنا آدم عليه السلام، كان آدم أفضل منهم، لأن السجود أعظم أنواع الخدمة، وإخدام الأفضل للمفضول - إذا قلنا الملائكة أفضل - مما لا تقبله العقول، وإذا كان آدم عليه السلام أفضل من الملائكة، كان غيره من الأنبياء والرسل عليهم السلام كذلك أفضل منهم إذ لا قائل بالفرق^(٤).

٢- قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}^(٥). وهذا إن دل على شيء يدل على أن آدم أفضل منهم، لأنه تعلم الأسماء كلها لما دخل في عالم الإبداع والإيجاد، ولم تعلم الملائكة الأسماء كلها، والعالم أفضل من غيره^(٦).

(١) أصول الدين للبغدادي: ص ١٦٦، وشرح النسفية للتفتازاني: ص ٣٢٠، ومقالات الإسلاميين: ج ١ ص ٢٧٢، والمواقف: ج ٨ ص ٢٨٣، وجواهر البحار: ج ٢ ص ١٠٩، وشرح الفقه الأكبر: ص ٩٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٤.

(٣) المواقف: ج ٨ ص ٢٨٤.

(٤) شرح المواقف: ج ٨ ص ٢٨٤، وشرح النسفية: ص ٣٢١، والوسيلة: ص ٧٠٩، وشرح الفقه الأكبر: ص ٩٨.

(٥) سورة البقرة: الآيتان: ٣١-٣٢.

(٦) مواهب الرحمن: ج ١ ص ١٤٠، الوسيلة: ص ٧٠٩.

لقوله تعالى: {هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} (١).

٣- قال تعالى: {إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين} (٢)، والملائكة من العالمين (٣).

وهناك فريق من العلماء ذهب إلى التوقف وعدم الخوض في هذا الموضوع بحجة: [أن الأسلم فيه أن نحيل حقيقة الأمر في ذلك إلى علم الله عز وجل] (٤). وقد ذهب إلى هذا القول بعض الحنفية مع أنهم شاركوا إجماع الأمة أن رسولنا الأعظم ﷺ أعظم وأفضل خلق الله على الإطلاق من غير استثناء فكيف لا يكون أعظم من الملائكة، والملائكة خلق من الخلائق!! وهذا الرأي هو مسألة توقف ولم يكن مدعوماً بالأدلة والحجج، ولا دليل في هذا التوقف.

والخلاصة: أنه لاشك في تفضيل الرسول الأكرم ﷺ على الملائكة جميعاً، لأنه نذيراً للعالمين بنص الكتاب الكريم: {ليكون نذيراً للعالمين} (٥)، والملائكة من جملة العالمين، وفضل المنذر على المنذر لا يخفى على كل عاقل، وأكتفي زيادة على أدلة الجمهور القوية الراجحة بما ذكرته من آية الإنذار، وبحديث ابن عباس ؓ قال: [إن الله فضل محمد ﷺ على أهل السماء]، قال الملا علي القاري عليه رحمة الله الباري: أي من الملائكة المقربين (٦). فنقول: الأنبياء أفضل من الملائكة من حيث الدرجة والثواب

(١) سورة الزمر: الآية ٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٣.

(٣) شرح النسفية للفتازاني: ص ٣٢١، شرح النسفية للسعدي: ص ٢٥٨.

(٤) شرح الفقه الأكبر للملا علي القاري: ص ٩٨، وكبرى اليقينيات الكونية: ص ٢٤٩، ونيل

المرام في شرح عقيدة العوام: ص ٩.

(٥) سورة الفرقان: الآية ١.

(٦) شرح الشفا: ج ١ ص ٣٧٢، ويأتي بعد النبي ﷺ في التفضيل أولي العزم من الرسل ثم جميع

الأنبياء والمرسلين. وحديث ابن عباس رواه الدارمي: ج ١ ص ٢٥، والحاكم في مستدركه:

ج ٢ ص ٣٨١، وذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٨ ص ٢٥٧، وقال رجاله رجال

الصحيح عند الطبراني غير الحكيم بن أبان فهو ثقة.

والمنزلة، والملائكة أكبر قوة من الأنبياء على أحداث الخوارق وأكثر منهم شدة وبطشاً، وهذا الأمر طبيعي بحكم أصل خلقتهم وماهية حقيقتهم^(١). وعلى هذا المعنى يمكن أن يحمل تفضيل الجمهور والله أعلم.

قال الناظم:

والمستحيل ضد كل واجب فاحفظ لخمسين بحكم واجب

الشرح:

ويجب على كل مكلف أن يعتقد المستحيل في حق الله تعالى ورسله، وهو ضد كل صفة واجبة لله تعالى ورسله، فعدد المستحيلات كعدد الواجبات، ويجب على كل مكلف أن يعرف ذلك ويفهمه حتى لا يقع في إساءة الأدب مع الله تعالى ورسله أو يدفعه جهله إلى خطر عظيم. فالمستحيل في حقه تعالى عشرون صفة ذكرناها في المبحث الخاص بالإلهيات ونذكرها هنا على وجه الاختصار.

- ١- العدم ضد الوجود.
- ٢- الحدوث ضد القدم.
- ٣- المماثلة للحوادث ضد المخالفة للحوادث.
- ٤- الفناء ضد البقاء.
- ٥- عدم القيام بالنفس ضد القيام بالنفس.
- ٦- التعدد ضد الوحدةانية.
- ٧- العجز ضد القدرة.
- ٨- الكراهة ضد الإرادة.
- ٩- الجهل ضد العلم.

(١) ينظر حاشية الجرجاني على الكشف للزمخشري: ج ١ ص ٥٨٧.

- ١٠- الموت ضد الحياة.
- ١١- الصمم ضد السمع.
- ١٢- العمى ضد البصر.
- ١٣- البكم ضد الكلام.
- ١٤- كونه عاجزاً ضد كونه قادراً.
- ١٥- كونه كارهاً ضد كونه مريداً.
- ١٦- كونه جاهلاً ضد كونه عالماً.
- ١٧- كونه ميتاً ضد كونه حياً.
- ١٨- كونه أصم ضد كونه سمياً.
- ١٩- كونه أعمى ضد كونه بصيراً.
- ٢٠- كونه أبكم ضد كونه متكلماً.

والمستحيل في حق الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أربع صفات وهي:

- ١- البلادة ضد الفطنة.
- ٢- الكذب ضد الصدق.
- ٣- الكتمان ضد التبليغ.
- ٤- الخيانة ضد الأمانة.

وتلك العقائد يجب علينا حفظها، وهي خمسون صفة، وتفصيل ذلك كالآتي:

أ- الواجب لله تعالى : عشرون

ب- المستحيل عليه سبحانه: عشرون

ج-الواجب للرسل الكرام: أربعة

د- المستحيل عليهم: أربعة

هـ-الجائز لله: واحد

ز- الجائز للرسل : واحد^(١).

وقال الناظم رحمه الله:

تفصيلُ خمسةٍ وعشرينَ لزم كل مكلّفٍ فحَقَّقْ واغْتَنَمْ

المفردات:

حَقَّقْ: تيقن.

اغتنم: اكتسب واطلب عددهم.

الشرح:

يجب على كل مكلف أن يعرف تفصيل خمسة وعشرين من الرسل على التعيين وإن كل واحد منهم نبي مرسل والخمسة والعشرون كلهم قد ثبتت أسماؤهم في كتاب الله تعالى. منها ثمانية عشر في سورة الأنعام، والسبعة الباقية مفرقة في سور من القرآن الكريم كالأنبياء والصفات. والإيمان بالأنبياء والرسل جميعهم وتصديقهم في أخبارهم وطاعتهم في أوامرهم ونواهيهم فرض على كل مسلم^(٢)، بدلالة قوله تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}^(٣).

(١) ينظر نيل المرام في شرح عقيدة العوام: ص ٩، وجلاء الأفهام بشرح عقيدة العوام: ص ٣٨.

(٢) لوامع الأنوار: ج ٢ ص ٣٦٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٣٦.

وكذلك جعل الله تعالى للذين يؤمنون بالجميع الأجر العظيم فقال سبحانه: (والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً)^(١). أما بخصوص عدد الأنبياء فقد قدر الله تعالى ما يحتاج إليه الناس بمجموعهم من المواهب والكفاءات المختلفة التي تهئ لهم الحياة الرغيدة والعيش السعيد، فوزعها بين الأفراد بناء على حاجتهم إليها، فرجال الجيش وهم أصحاب القوة والأجسام الشديدة، والنجارون والحدادون والزارعيون وأصحاب المهن كثيرون جداً، بينما يقل عدد ذوي الكفاءات القيادية أو العلمية، ويهبط عدد مالكي المهارة والحرف في لون معين، ويتضاءل عدد مالكي قيادة العالم الفكرية وأصحاب الهداية إلى سواء السبيل وهم الأنبياء والرسل، لأن أعمالهم تغني البشر إلى أجيال طويلة^(٢).

فلو أخذنا بحديث الأنبياء وهم (١٢٤٠٠٠) نبي، والرسول منهم (٣١٣) رسولاً عليهم السلام، نرى العدد ضئيلاً جداً بالنسبة للأمم العالم جميعاً من بدء الخليقة إلى زمن حضرة الرسول ﷺ، ولا يقاس إلى تلك الأجيال المتعاقبة^(٣).

لكن ينبغي في الإيمان بالأنبياء عدم القطع بحصرهم في عدد معين لأنه لم يرد بحصرهم دليل قطعي من القرآن، والحديث الوارد عن أبي ذر رضي الله عنه في عددهم ضعيف^(٤). وهو خبر واحد، لم يقترن بما يفيد القطع، وخبر الواحد لا يفيد إلا الظن، ولا عبرة بالظن في باب الاعتقادات. وقد يؤدي حصرهم بهذا العدد إلى أن يعتبر فيهم من ليس منهم أو يخرج من هو منهم^(٥). والصحيح

(١) سورة النساء: الآية ١٥٢.

(٢) ينظر أصول الدين الإسلامي: ص ٢٣٧.

(٣) ينظر مبادئ الإسلام: ص ٣٣.

(٤) مدار الحديث على علي بن يزيد وهو ضعيف: ينظر المسامرة: ص ٢٢٦.

(٥) شرح المقاصد: ج ٢ ص ١٩٨، شرح النسفية: ص ١٣٥، والمسامرة بشرح المسامرة:

ص ٢٢٥، ولوامع الأنوار: ج ٢ ص ٢٥٨.

في الأنبياء والمرسلين غير الخمسة والعشرين الإمساك عن حصرهم في عدد معين لقوله تعالى: {وَرَسُولًا قَدْ قُصَصْنَا هُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ} ^(١)، وما ورد عن الحصر لا تقوم به حجة ^(٢). وقول الناظم فحقق واغتنم تحريض منه على الاهتمام والاعتناء بهم، ثم ذكر عددهم في النظم حيث قال:

هُمَّ آدَمُ أَدْرِيسُ نُوحٌ هُودٌ مَعُ	صَالِحٌ وَإِبْرَاهِيمُ كُلُّ مُتَّبِعٍ
لُوطٌ وَإِسْمَاعِيلُ إِسْحَاقُ كَذَا	يَعْقُوبُ يُوسُفُ وَأَيُّوبُ احْتَذَى
شُعَيْبٌ هَارُونُ وَمُوسَى وَالْيَسَعَ	ذُو الْكِفْلِ دَاوُدُ سَلِيمَانُ اتَّبَعَ
إِلْيَاسُ يُونُسُ زَكَرِيَّا يَحْيَى	عِيسَى وَطَهَ خَاتِمُ دَعَا غِيَا
عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ	وَاللَّهُمَّ مَا دَامَتِ الْأَيَّامُ

المفردات:

كل متبع: أي من المذكورين عليهم الصلاة والسلام أوجب الله تعالى على أمته أن يتبعوه.

احتذى: اقتدى أيوب بمن تقدم في الذكر من المرسلين عليهم السلام.
دع غيا: أترك ميلاً عن الحق ^(٣).

الشرح:

ذكر القرآن الكريم أسماء خمسة وعشرين نبياً ورسولاً، وأوجب الإيمان بهم تفصيلاً بصريح أسمائهم وهم يشتركون في قدر واحد وهو: النبوة

(١) سورة النساء: ١٦٤.

(٢) نيل المرام في شرح عقيدة العوام: ص ٩.

(٣) جلاء الأفهام بشرح عقيدة العوام: ص ٣٩.

والرسالة، ولذا اتفق علماء الإسلام جميعاً على كفر من كذب نبياً معلوم النبوة، وكذا من سب نبياً أو انتقصه، ويجب قتله بأمر القضاء الشرعي بدلالة القرآن الكريم: {إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً، أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً} (١)، ذلك لأن الكافر بالأنبياء طعن بمهمتهم العظيمة وأنهم هداة البشر إلى الصراط المستقيم، وأهل المبادئ التهذيبية التي عالجت المشاكل المادية والروحية بالوسطية والاعتدال والابتعاد عن الغلو والتطرف والانحراف، ويبشرون بالجنة أهل التقى، وينذرون بالنار أهل الفساد والكفر، ويبينون للناس ما يحتاجون إليه من أمور الدين في العقيدة والأحكام والأخلاق وأمور الدنيا في المعاملات وغيرها.

وأن الله تعالى أرسلهم إلى أمم العالم جميعاً، فكل أمة لها رسول وإن لم يخبرنا الله بأسمائهم بدلالة قوله تعالى: {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} (٢). وأوجب الإيمان بهم جميعاً، ولا نفرق بينهم بالإيمان كما فرق اليهود والنصارى.

فيجب معرفة من علمت أسماءهم كما ذكرها القرآن الكريم وعدها الناظم رحمه الله تفصيلاً، بحيث لو سئل المكلف عن واحد منهم لم يتوقف في الجزم بأنه نبي، وليس معنى وجوب الإيمان بهم تفصيلاً أن تحفظ أسماءهم، خلافاً لمن زعم ذلك، بل معناه أنه لو عرض على المكلف واحد منهم لم ينكر نبوته ولا رسالته لأن إنكارها كفر، لكن العامي يُعلم، فإن أنكر بعد تعليمه يكفر (٣). وهم:

(١) سورة النساء: الآية ١٥٠-١٥١.

(٢) سورة النمل: الآية ٢٤.

(٣) سورة النمل: الآية ٢٤.

(٤) سورة النمل: الآية ٢٤.

(٥) سورة النمل: الآية ٢٤.

(١) سورة النساء: الآية ١٥٠-١٥١.

(٢) سورة فاطر: الآية ٢٤.

(٣) شرح جوهرة التوحيد: ج ١ ص ٢٤١.

آدم : أبو البشر. قال تعالى: {وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة} (١).

إدريس: وهو جد أبي نوح. قال تعالى: {واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً} (٢).

نوح: وهو الذي نجاه الله تعالى ومن معه من الغرق بالطوفان، واستمر في الدعوة (٩٥٠ سنة)، قال تعالى: {فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً} (٣). ويسمى أبو البشر الثاني لأن نسله انتشر من عهد الطوفان إلى الآن، وباسمه المبارك سورة من القرآن الكريم.

هود: وهو نبي من نسل سام بن نوح أرسله الله تعالى إلى قوم عاد، وهم قوم ماهرون في فن المعمار، وكانوا يسكنون الجبال في أرض الأحقاف التي تقع في شمال حضرموت من بلاد اليمن، فلما كذبوا أهلهم الله بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما قال تعالى: {فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية} (٤). والنبي الكريم هود أنزل الله تعالى في حقه سورة باسمه في القرآن الكريم.

صالح: وهو نبي من نسل سام بن نوح، صاحب الناقة، أرسله الله تعالى إلى قوم ثمود وهم قوم ينحتون الجبال، مساكنهم بالحجر وهي المعروفة بمدائن صالح بين الحجاز والشام في الجنوب الشرقي من أرض مدين، وهي مجاورة لخليج العقبة في الأردن، فلما كذبوه أهلهم الله تعالى بصيحة جبريل عليه السلام، قال تعالى: {فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية} (٥).

إبراهيم: وهو خليل الله وأبو الأنبياء، ويتصل نسبه بسام بن نوح وهو الذي أنجاه الله من نار النمرود، قال تعالى: {يا نار كوني برداً وسلاماً على

(١) سورة البقرة: الآية ٣٥.

(٢) سورة مريم: الآية ٥٦.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ١٤.

(٤) سورة الحاقة: الآية ٧.

(٥) سورة الحاقة: الآية ٥.

إبراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين^(١).

لوط: وهو ابن أخي إبراهيم الخليل أرسله الله تعالى إلى أرض سدوم وهي الآن تحت البحر الميت، وكان قومه قد سقطوا في الفاحشة والشذوذ فذهب من وجوههم ماء الحياة، وذلك أنهم كانوا يأتون الرجال من دون النساء، وقد أهلكهم الله فجعل عالي قريتهم سافلها، وأمطرها حجارة من سجيل ونجى لوطاً ومن معه إلا امرأته فإنها هلكت فيمن هلك، قال تعالى: {فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد^(٢)}.
 {فلم يأتهم من قبلهم الباءة ولا ظنوا أنهم لعلهم يفتخرون}

إسماعيل بن إبراهيم: الذي هو أمه السيدة هاجر^(٣)، أرسله الله إلى قبائل اليمن وإلى العماليق^(٤)، وكانت العماليق ساكنة في جزيرة العرب من جهة الشام، ثم انتشروا في جهات كثيرة بعد أن أخرجهم إسماعيل عليه السلام، وهو من أجداد النبي العربي الهاشمي سيدنا محمد ﷺ القائل: (أنا ابن الذبيحين) يعني إسماعيل وأباه عبدالله^(٥). قال تعالى: {واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً^(٦)}.

إسحاق بن إبراهيم: الذي أمه سارة، قال تعالى: {وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً^(٧)}.

(١) سورة الأنبياء: الآية ٦٩-٧٠.

(٢) سورة هود: الآية ٨٢.

(٣) المعروف أن السيدة هاجر عليها السلام أمة مملوكة، ولكن حقق الكاتب الكبير العلامة القاضي محمد سليمان المنصور فوري أنها كانت حرة، وكانت ابنة فرعون، ينظر رحمة للعالمين: ج ٢ ص ٣٦، ويشهد لذلك قوله ﷺ: (واصفطاني من بني هاشم) صحيح مسلم: ج ٢ ص ٤٥، والترمذي: ج ٢ ص ٢٠١.

(٤) جلاء الأفهام: ص ٤٠.

(٥) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ١٥١، رحمة للعالمين: ج ٢ ص ٨٩، مختصر سيرة الرسول للنجدى: ص ١٢-٢٢.

(٦) سورة مريم: الآية ٥٤.

(٧) سورة مريم: الآية ٤٩.

يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم: بعثه الله نبياً إلى أهل كنعان. وانظر صبره وتقواه في سورة يوسف عليه السلام من كتاب الله العزيز المجيد.

يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم: قال عنه حضرة النبي الأكرم ﷺ: (الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام)^(١)، ذاك النبي الصابر المحتسب العفيف الأمين.

أيوب: وقد ذكر المؤرخون أنه رجل من ولد عيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهو النبي الكريم الذي يضرب به المثل الأعلى في تحمل البلاء وكان من الصابرين، صاحب الدعوة المستجابة قال تعالى: {وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين}^(٢).

شعيب: قيل إنه من ولد مدين بن إبراهيم، وقيل: إنه لم يكن من ولد إبراهيم، إنما هو من ولد بعض من آمن بإبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى بلاد الشام، ولكنه ابن بنت لوط، أرسله الله تعالى إلى أهل مدين وكانوا أهل كفر بالله تعالى وسوء معاملة الناس، يبغضون الناس أشياءهم في المكاييل والموازين قال تعالى: {ويل للمطففين}^(٣)، ويفسدون في أموالهم. فلما كذبوه أهلكهم الله، فصارت قريتهم خاوية منهم كأن لم ينزلوا فيها ولم يعيشوا فيها، قال تعالى: {فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين}^(٤). ثم أرسله الله بعد أهل مدين إلى أصحاب الأيكة بالقرب من مدين، فلما كذبوه أخذهم الله بعذاب يوم الظلة بأن سلط عليهم الحر الشديد سبعة أيام حتى غلت مياههم، ثم ساق إليهم سحابة فاستظلوا تحتها من شدة الحر، فأمرت نارا فأحرقتهم وأهلكتهم

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب بدء الخلق: ج ١ ص ٥٧.

(٢) سورة الأنبياء: الآية

(٣) سورة المطففين: الآية ١.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٩١-٩٢.

وسمي اليوم يوم الظلة، قال تعالى: {فكذبوا فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم} (١).

هارون بن عمران بن قاهت بن لاوي بن يعقوب: وهو شقيق كلیم الله موسى عليهما الصلاة والسلام.

موسى كلیم الله: أرسله الله تعالى لهداية فرعون وقومه، فكذبوه فأهلكهم الله بالغرق.

اليسع بن أخطوب بن العجوز: من أنبياء بني إسرائيل، قال تعالى: {وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين} (٢).

ذو الكفل بن أيوب: واسمه بشر، بعثه الله نبياً بعد أبيه، فسماه: ذا الكفل، قال تعالى: {وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين} (٣).

داود: ويتصل نسبه بيهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، جعله الله ملكاً على بني إسرائيل.

سليمان بن داود: جعله الله ملكاً على بني إسرائيل بعد أبيه داود قال تعالى: {ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين} (٤).

إلياس: ويتصل نسبه بهارون بن عمران أخى موسى أرسله الله إلى قومه من بني إسرائيل.

يونس بن متى: بعثه الله إلى قومه في نينوى قرية من قرى الموصل شمال العراق وعددهم مئة ألف أو يزيدون، وهي القرية الصالحة التي آمنت

(١) سورة الشعراء: الآية ١٨٩.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٨٣-٨٦.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٨٥-٨٦.

(٤) سورة —————

ففنفعها إيمانها ومنها الأنبياء والصالحون، وهو النبي الذي نجاه الله من بطن الحوت وأخرجه من الغم، ويقال له ذو النون أي صاحب الحوت وفي حقه أنزل تعالى سورة باسمه في كتاب الله الكريم، وقال سيدنا محمد ﷺ لعداس في الطائف وهو نصراني رق قلبه للنبي ﷺ وآمن به: (من قريسة الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال رسول الله ﷺ: "ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي")^(١).

زكريا: وهو من ذرية سليمان بن داود، وكان الحبر الكبير في بني إسرائيل، وهو الذي يقرب القربان في بيت المقدس ويتلوا عليهم التوراة، وكفل مريم عليها السلام، ورزقه الله سيدنا يحيى بعد أن تقدم به العمر، ومات شهيداً مقتولاً بيد بني إسرائيل.

يحيى بن زكريا: ولد قبل السيد المسيح عيسى بن مريم بثلاث سنوات وقيل غير ذلك، قتله ملك بني إسرائيل بطلب من غانية وراقصة كي يكون الطريق لها خالياً وتتمكن من الزواج بعمها الملك وهي على ذمة رجل آخر، فغضب سيدنا يحيى لذلك وحرم ذلك الزواج فقتله الزانية انتقاماً منه، فقطع رأسه بالمنشار وقدم لها بين يدي الملك على طبق من ذهب، فجمع الله تعالى له النبوة والشهادة، قال تعالى: {وآتيناها الحكم صبياً}^(٢).

عيسى بن مريم: وهو عبدالله ورسوله وكلمته - أي أمره - التي ألقاها إلى مريم وروح منه، وآخر أنبياء الله ورسله من بني إسرائيل، ولقبه المسيح واسمه بالعبرية يسوع أي المخلص، وكنيته ابن مريم، وهو تمام الخلق في الوجود من أم بلا أب، وحواء من أب بلا أم، ونحن من أم وأب، وآدم عليه السلام بلا أب ولا أم. فتبارك الله أحسن الخالقين. وهذا النبي الكريم قال فيه بني إسرائيل الأعاجيب وطعنوا في شرفه وسمعته وكذبوه وتآمروا ليقتلوه

(١) رواه البخاري في صحيحه: ج ١ ص ٤٥٨، ومسلم: ج ٢ ص ١٠٩.

(٢) سورة مريم: الآية ١٢.

ولكن الله رفعه إليه، وسوف يهبط آخر الزمان ليحكم بالشرعية الإسلامية فيملئ الأرض عدلاً وقسطاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً.

نبينا وسيدنا محمد ﷺ: خاتم الأنبياء والمرسلين وسيد الأولين والآخرين النبي العربي الأمي الطاهر الزكي الهاشمي القرشي، صاحب العلامة والمظل بالغمامة وشفيع الناس يوم القيامة، أرسله الله في مكة نبياً ورسولاً إلى الناس كافة ورحمة للعالمين وأقام دولة التوحيد في المدينة المنورة صلى الله على ساكنها وآله وأصحابه، قال تعالى: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} (١). وقال الحبيب الأكرم ﷺ: (مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثلي رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين) (٢). قال تعالى: {ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين} (٣).

اللهم صل على نبينا محمد وسائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين وآلهم وأصحابهم الطيبين وأزواجهم وذرياتهم من الصالحين، بأن الله يعلي درجاتهم في الجنة وينفعنا الله بأسرارهم وأنوارهم ومجاورتهم وعلومهم في الدين والدنيا والآخرة ويجعلنا في حزبهم ويرزقنا محبتهم ويتوفانا على ملتهم، ويحشرنا في زمرةم في خير ولطف وعافية بسر الفاتحة.

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

المبحث الثالث: الملائكة الكرام عليهم السلام

قال الناظم رحمه الله:

وَالْمَلَكُ الَّذِي بِلَا أَبٍ وَأُمٍّ لَا أَكَلَ لَا شَرَبَ وَلَا نَوْمَ لَهُمْ

المفردات:

الملك: مفرد ملائكة، وهو مأخوذ من الألوكة وهي الرسالة لأنهم وسائط بين الله تعالى وبين الناس. وهم أجسام نورانية تخلق ابتداءً مركب فيها العقل لا يعصون الله تعالى ما أمرهم.

الشرح:

يجب على كل مكلف أن يعتقد أن الله ملائكة كرام عليهم من الله السلام، قال تعالى: {ءَأَمَّنَ الرُّسُلَ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} (١). وهم لا يتصفون بشيء مما يتصف به البشر، ومن ذلك: أنهم خلقوا من غير واسطة أب ولا أم، وأنهم لا يأكلون ولا يشربون، ولا ينامون، ولا يتصفوا بذكورة ولا أنوثة ولا خنوثة، فمن اعتقد ذكورتهم كان مبتدعاً فاسقاً، وفي كفره قولان، ومن اعتقد أنوثتهم كان كافراً لأنه دخل في قوله تعالى: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً} (٢)، وأولى بالكفر من اعتقد خنوثتهم لمزيد التنقيص (٣).

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

(٢) سورة الزخرف: الآية ١٩.

(٣) جلاء الأفهام: ص ٥٦، ونيل المرام: ص ١٠.

س: ما هو الدليل على الإيمان بالملائكة الكرام؟

ج: إن وجود الملائكة ووجوب الإيمان بهم دل عليه الخبر الصادق المتواتر عن الله عز وجل وعن رسوله المصطفى ﷺ، فأما الوارد من كتاب الله تعالى: قوله سبحانه: {والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض} (١)، وقوله تبارك وتعالى: {إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون} (٢)، وقوله جل جلاله: {ومن كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو الكافرين} (٣).

وفي السنة النبوية المباركة حديث جبريل عليه السلام وقول الحبيب الأعظم ﷺ جواباً عن سؤاله عن الإيمان: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره) (٤). وفي كل من القرآن الكريم والسنة المطهرة نصوص كثيرة أخرى تخبر بصريح العبارة عن وجود الملائكة.

ومعنى الإيمان بالملائكة: هو الإقرار الجازم بوجودهم، وأنهم خلق من خلق الله مربيون مسخرون، قال تعالى: {عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون} (٥)، وقوله تعالى: {لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون} (٦)، وقوله تعالى: {لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون} (٧)، ولا يسأمون ولا يتعبون.

(١) سورة الشورى: الآية ٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٠٦.

(٣) سورة البقرة: الآية ٩٨.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سورة الأنبياء: الآيتان ٢٦-٢٧.

(٦) سورة التحريم: الآية ٦.

(٧) سورة الأنبياء: الآيتان ١٩-٢٠.

وهم أجسام نورانية لطيفة بالأرواح، وبذلك نعلم أن وجودهم ثابت بالأدلة القطعية التي لا يمكن أن يلحقها شك أو ريب، ومن هنا كان إنكار وجودهم كفراً بإجماع المسلمين بل بنص الكتاب الكريم قال تعالى: {ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً} ^(١)، والإيمان بنبوة حضرة الرسول محمد ﷺ والقرآن يستلزم الإيمان بالملائكة فإنكار وجودهم إنكار للنبوة والقرآن معاً.

الدليل العقلي على ذلك:

كل محسوس موجود وليس كل موجود محسوس، مثاله: جاذبية الأرض والطاقة الكهربائية موجودة ولا نحس بها إلا من خلال آثارها.

صفاتهم:

يجب على المكلف أن يعتقد عقيدة جازمة بأن الملائكة الكرام يتصفون بالصفات التالية:

١- العبودية لله عز وجل فليسوا أولاداً ولا أنداداً له سبحانه وتعالى، قال جل جلاله وعم نواله: {ولن يستتكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون} ^(٢).

٢- أنهم متقيدون بأوامر الله تعالى فلا يعصونه في أمر ولا ينحرفون إلى ارتكاب منهي وأنهم ملازمون لعبادته، دأبهم ذكره والتسبيح بحمده، قال تعالى: {وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون} ^(٣).

(١) سورة النساء: الآية ١٣٦.

(٢) سورة النساء: الآية ١٧٠.

(٣) سورة الأنبياء: الآيتان ٢٦-٢٧.

٣- وهم أصحاب أجنحة، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم ما يزيد على ذلك، قال تعالى: {الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير} (١)، وروى الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام وله ست مئة جناح.

٤- وهم مجبولون بالطاعة التامة لله والقيام بأوامره ومطهرون من الشهوات الحيوانية، ومبرؤون من الميول النفسية، ومنزهون عن الآثام والخطايا، قال تعالى: {يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون} (٢).

٥- لهم أجسام نورانية لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة والتصور والظهور بمظهر الأجسام الكثيفة، قال تعالى: {فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً} (٣). وقوله عليه الصلاة والسلام: (وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول) (٤)، وكذلك حديث جبريل عليه السلام وقد تمثل برجل شديد سواد الشعر شديد بياض الثياب. وشهد حضرة النبي ﷺ بأنهم خلقوا من نور بقوله: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم) (٥).

(١) سورة فاطر: الآية ١.

(٢) سورة النحل: الآية ٥٠.

(٣) سورة مريم: الآية ١٧.

(٤) ينظر زاد المعاد: ج ١، ص ١٨.

(٥) رواه الإمام مسلم في صحيحه.

وقال الناظم رحمه الله:

تَفْصِيلُ عَشْرِ مِنْهُمْ جِبْرِيلُ مِيكَالُ إِسْرَافِيلُ عَزْرَائِيلُ
مُنْكَرُ نَكِيرُ وَرَقِيبُ وَكَذَا عَتِيدُ مَالِكُ وَرِضْوَانُ احْتِذَى

الشرح:

أخبرنا القرآن الكريم عن بعض وظائف الملائكة الكرام ونص على أسمائهم وإليك بعض أعمالهم التي وردت في القرآن الكريم أو في حديث المصطفى الأمين ﷺ فمنهم الكتبة، والحفظة، وحملة العرش، والمسبحون، والمستغفرون للمؤمنين، والساجدون، والصافون، والمتعاقبون فينا بالليل والنهار، وملائكة الرحمة، وملائكة سيارة يبتغون مجالس الذكر وغيرهم، قال تعالى: {وما منا إلا له مقام معلوم} (١).

وسنذكر بيان الملائكة العشر مع وظائفهم في شرح البيتين المذكورين آنفاً ونعرج على نماذج أخرى بإذنه تعالى، فيجب على كل مكلف أن يعتقد عشرة من الملائكة على وجه التفصيل بمعرفة أسماءهم الشريفة المباركة كما بين ذلك في النظم ولكل واحد منهم وظيفة خاصة لا يتعدها إلى غيرها وهم:

١- **جبريل عليه السلام:** وهو ملك الوحي، والسفير بين الله تعالى وأنبيائه، وتبليغ كلام الله تعالى وإنزال الكتب والصحف على الأنبياء والمرسلين عليهم السلام قال تعالى: {قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه} (٢). ويسمى: الروح الأمين، قال تعالى: {وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين} (٣). ويسمى: روح القدس، قال تعالى: {قل نزله روح القدس

(١) سورة الصافات: الآية ١٦٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ٩٧.

(٣) سورة الشعراء: الآية ١٩٢-١٩٤.

من ربك بالحق} ^(١)، ويسمى أيضاً: بالناموس كما قال ورقة بن نوفل عليه السلام لحضرة الرسول الأكرم عليه السلام في أول عهده بالوحي: "هذا الناموس الذي أنزل على موسى" ^(٢). وثبت بالسنة الصحيحة المتواترة أن الموكل بهذه الوظيفة جبريل عليه السلام ^(٣).

٢- ميكال (ميكائيل): وهو موكل بالأمطار والبحار والأنهار والأرزاق، أخرج الإمام الطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وآله قال لجبريل: على أي شيء ميكائيل؟ قال: على النبات والقطر ^(٤).

٣- اسرافيل: وهو موكل بالنفخ في الصور، فينفخ فيه النفختين، النفخة الأولى: تقنى فيها المخلوقات إلا ما شاء الله تعالى، والنفخة الثانية: تبعث فيها جميع المخلوقات، فترجع الأرواح لأجسادها قال تعالى: {ونفخ فيه فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون} ^(٥). وأخرج الترمذي والإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له) ^(٦).

٤- عزرائيل: وهو موكل بقبض الأرواح وله أعوان، ومعناه بالعربية عبد الجبار، قال تعالى: {قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم} ^(٧)، وقال تعالى: {حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون} ^(٨)،

(١) سورة النحل: الآية ١٠٢.

(٢) ملخص من سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٢٣٨.

(٣) صحيح البخاري: ج ٢ ص ٧٣٣.

(٤) المعجم الكبير: ج ١١ ص ١٢٠٦١، قال في مجمع الزوائد: ج ٩ ص ٢٢ فيه محمد بن أبي ليلى وبقيّة رجاله ثقات.

(٥) سورة الزمر: الآية ٦٨.

(٦) السلسلة الصحيحة: ص ١٠٧٩.

(٧) سورة السجدة: الآية ١١.

(٨) سورة الأنعام: الآية ٦١.

والرسل هنا بمعنى أعوانه، وفي الباب حديث البراء الطويل وحديث فقء موسى عليه السلام عين ملك الموت، وغيرها من الأحاديث، والجمهور على أن ملك الموت واحد ولكن الله عز وجل عززه بطائفة أخرى من الملائكة الكرام شأنها كشأن الجنود مع القائد.

٦-٥: منكر ونكير: وهما موكلان بسؤال العبد في قبره عن التوحيد والدين والنبوة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا قُبر الميت - أو قال أحدهم - أتاه ملكان أسودان أزرقان - أي عيناها - يقال لأحدهما: المنكر، والآخر: النكير)^(١).

وقيل: أن أهل الإيمان لهم مبشر، والصحيح أن منكراً ونكيراً للمؤمنين وغيرهم، غير أنهما يأتيان للمؤمن الموفق مع رفق من غير إقلاق وإزعاج.

٧-٨: رقيب وعتيد: أي حافظ وحاضر وكل واحد منهما يسمى بهذين الاسمين، وقيل: إن أحدهما رقيب والآخر عتيد، قاله الباجوري، والجلال المحلي، وهما الموكلان بأعمال العباد وهم الكرام الكاتبون قال تعالى: {وإن عليكم حافظين، كراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون}^(٢)، وهما يكتبان الأعمال، أحدهما عن اليمين يكتب الحسنات، والآخر عن الشمال يكتب السيئات ومراقبة أعمال المكلفين وتصرفاتهم وإحصاؤها في كتاب مبين، قال تعالى: {إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد}^(٣). والأحاديث في الباب كثيرة منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيح قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) أخرج الترمذي: (١٠٧١) وابن حبان في الرسالة: (٣١١٧)، والآجري في الشريعة: ص ٣٦٥، وابن أبي عاصم في السنة: (٨٦٤)، والبيهقي في إثبات عذاب القبر: (٥٦).

(٢) سورة الانفطار: الآيتان ١٠-١٢.

(٣) سورة ق: الآيتان ١٧-١٨.

قال الله عز وجل: إذا هم العبد بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرًا^(١).

٩- مالك: وهو موكل بالنيران السبعة، جهنم، ولظى، والحطمة، والسعير، وسقر، والجحيم، والهاوية وعذابها، ومعه الزبانية ورؤساؤهم تسعة عشر نفرًا، ولكل نفر جنود لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، قال سبحانه: {يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون}^(٢). وقال عز وجل: {وما أدراك ما سقر، لا تبقي ولا تذر، لواحة للبشر، عليها تسعة عشر، وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة}^(٣)، ومن أدلة السنة النبوية المباركة حديث الرؤيا الذي رواه سمرة رضي الله عنه وفيه ذكر مالك خازن النار^(٤).

١٠- رضوان: وهو موكل بالجنان، وهي سبعة الفردوس، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة النعيم، وجنة عدن، ودار السلام، ودار الجلال، وقيل واحدة وإنما التعدد في الاسم لشرفها، ورضوان هو رئيس خزنتها. قال تعالى: {وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين}^(٥).

وهناك وظائف أخرى لأنواع أخرى من الملائكة الكرام جاء ذكرها في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وهم:

(١) متفق عليه في الصحيحين.

(٢) سورة التحريم: الآية ٦.

(٣) سورة المدثر: الآيات ٢٧-٣١.

(٤) صحيح البخاري: ج ١٢ ص ٤٣٨.

(٥) سورة الزمر: الآية ...

أ. حملة العرش وقد نص القرآن الكريم على وظيفتهم يوم القيامة وهم يحملون عرش الرحمن تبارك وتعالى وعددهم ثمانية، قال تعالى: {والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية} (١). وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام) (٢).

ب. المحافظة على الإنسان خلال مراحل حياته في مختلف شؤونها كلها وقد سمى الله تعالى الملائكة الذين وكل إليهم هذا الأمر بالمعقبة والحفظة الموكلون بحفظ العبد من بين يديه ومن خلفه وهم المعقبات، قال تعالى: {وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة} (٣)، وقوله سبحانه: {له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله} (٤).

ج. ومنهم الموكل بالنطف في الأرحام في تخليقها وكتابة ما يراد بها، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد) (٥).

د. ومنهم ملائكة يدخلون البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

(١) سورة الحاقة: الآية ١٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه: (٤٧٢٧).

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٨.

(٤) سورة الرعد: الآية ١١.

(٥) متفق عليه في الصحيحين.

هـ. ومنهم ملائكة سياحون يتبعون مجالس الذكر^(١)، ومنهم الكروبيون، ومنهم صفوف قيام لا يفترون، ومنهم ركع وسجد لا يرفعون ومنهم غير ذلك، قال تعالى: {وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكري للبشر}^(٢). ونصوص هذه الأقسام من الكتاب والسنة لا تحفى.

ومن خلال ما تقدم فإن الملائكة الكرام على نوعين: نوع واجبهم الاستغراق في عبادة الله وتقديسه وليسوا مكلفين بخدمة أو مراقبة البشر، ونوع واجبهم خدمة الإنسان وما تتطلبه حالته فمنهم موكل بالوحي ومنهم يقبض الأرواح ومنهم من يسوق السحاب ومنهم موكل بالنار أو الجنة ومنهم من هو موكل بالشمس أو القمر وغير ذلك.

أما بخصوص قابلية البشر على رؤية الملائكة فيما بصورتهم الحقيقية فلا طاقة للبشر على تحملها مع أنه لا مانع عقلاً، أما تجسدهم فممكن عقلاً وشرعاً، وقد ثبت أن الصحابة رأوا جبريل عليه السلام في صورة رجل شديد بياض الثياب، ورأوا الملائكة تقاتل في معركة بدر الكبرى، وكان الصحابي عمران بن حصين رضي الله عنه يصف الملائكة^(٣).

(١) صحيح البخاري: (٣٢٠٧) و(٦٤٠٨) وصحيح مسلم: ١٦٢.

(٢) سورة الم نشر: الآية ٣١.

(٣) علم التوحيد: ص ٣٦. محاضرات للدكتور الشيخ راند سالم الطائي، جامعة صنعاء، كلية التربية.

المبحث الرابع: الكتب والصحف السماوية

قال الناظم رحمه الله تعالى:

أَرْبَعَةٌ مِنْ كُتُبٍ تَفْصِيْلُهَا تَوْرَاةُ مُوسَى بِالْهُدَى تَنْزِيلُهَا
زُبُورُ دَاوُدَ وَانْجِيلُ عَلَي عِيسَى وَفُرْقَانُ عَلَى خَيْرِ الْمَلَا

المفردات:

التوراة: قيل مأخوذ من: ورى الزند، أي خرج ناره، فإنها نور وضياء، قال تعالى: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون...} (١) الآية.

الزبور: الكتاب، وأطلق على كتاب داود عليه السلام.

الإنجيل: قيل مأخوذ من النجل، وهو استخراج خلاصة الشيء، وسُمي كتاب عيسى عليه السلام بذلك، لاستخلاصه نور التوراة، ومنه قيل للولد: نجل أبيه، لاستخلاصه منه، وقيل: كلمة يونانية معناها البشرى.

الفرقان: اسم من أسماء القرآن الكريم، معناه: الفارق بين الحق والباطل.

الملا: أشراف القوم، والمراد به هنا: الأنبياء والمرسلون، وخير الملا نبينا وشفيع ذنوبنا وحبیب قلوبنا سيدنا محمد ﷺ، فإذا كان سيدنا محمد ﷺ خيرهم فهو خير من غيرهم بالأولى.

الشرح:

يجب على كل مكلف أن يعتقد أن الله تعالى أنزل كتباً سماوية أوحاها إلى رسله وأنبيائه، فمنها مدونة، ومنها مالا علم لنا به، قال تعالى: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه} (١).

ومعنى الإيمان بكتب الله عز وجل: التصديق الجازم بأن جميعها منزل من عند الله عز وجل وأن الله تكلم بها حقيقة، فمنها المسموع منه تعالى من وراء حجاب بدون واسطة الرسول الملكي، ومنها ما بلغه الرسول الملكي إلى الرسول البشري، قال عز شأنه: {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليم حكيم} (٢).

وقال تعالى لنبيه موسى عليه السلام: {إنني اصطفتك على الناس برسالاتي وبكلامي} (٣). وقال سبحانه في شأن عيسى عليه السلام: {وآتيناها الإنجيل} (٤)، وقال سبحانه: {وآتينا داود زبوراً} (٥).

وتقدم ذكرها بلفظ التنزيل، قال تعالى في شأن القرآن الكريم: {وقرآننا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً} (٦).

والدليل على وجوب الإيمان بالكتب قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل} (٧)، وقوله عز شأنه: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٣.

(٢) سورة الشورى: الآية ٥١.

(٣) سورة النساء: الآية ١٤٤.

(٤) سورة المائدة: الآية ٤٦.

(٥) سورة النساء: الآية ١٦٣.

(٦) سورة الإسراء: الآية ١٠٦.

(٧) سورة النساء: الآية ١٣٦.

إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم^(١). والآيات بأدلتها كثيرة ويكفي قوله تعالى: {وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب}^(٢).

والكتب المدونة أربعة هي:

١- التوراة: التي نزلت على سيدنا موسى عليه السلام من أقدم الكتب السماوية التي نص عليها القرآن الكريم، بل هي في رأي الشهرستاني أقدم الكتب السماوية عموماً سواء الكتب التي ذكرت في القرآن أو التي لم تذكر، لأن ما قبلها كان يسمى صحفاً^(٣). قال تعالى: {ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكر للمتقين}^(٤).

والتوراة التي نزلت على سيدنا موسى عليه السلام كانت تورا واحدة ولكنها الآن أكثر من واحدة فهناك التوراة العبرية والتوراة السامرية والتوراة اليونانية وهناك ترجمات مختلفة فيها الكثير من التضارب والتناقض بسبب اختلاف اللغات فيما بينها في المفردات.

وأهل الكتاب مختلفون حول النسخ الثلاث، فالذين يؤمنون بتوراة من تلك النسخ يرونها هي الصحيحة فقط، وما عداها محرف ومزيف، وكل فريق يدعي أن التوراة التي معه هي وحدها التي نزلت على موسى عليه السلام، وما عداها نسخ مزورة نسبت إلى موسى كذباً^(٥).

وتتكون التوراة من خمسة أسفار هي سفر التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية^(٦). وهذه التوراة قد حرفها أكثر من كاتب من أحبار اليهود

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٦.

(٢) سورة الشورى: الآية ١٥.

(٣) الملل والنحل: ص ٤١. ومقارنة الأديان للدكتور محمد شلبي: ص ٥.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ١٤٣.

(٥) دراسات في الأديان والفرق: ص ٢٧.

(٦) مقارنة الأديان: ص ٢٤.

ليُخفوا ما فيها من الحق، فالذي عندهم من التوراة الصحيحة هو بعضها فقط، وقد أثبت الله تعالى هذا التحريف في قوله تعالى: {أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون} (١). وقوله عز شأنه: {من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه} (٢).

ومن أنواع التحريف التي نسبها القرآن الكريم إلى التوراة:

أ. إلباس الحق بالباطل والباطل بالحق.

ب. كتمان الحق.

ج. إخفاء الحق.

د. ليّ اللسان.

هـ. تحريف الكلام عن مواضعه بالتبديل والزيادة والنقص والمعنى (٣).

والمسلمون جميعاً متفقون على وقوع التحريف في التوراة، وإن كانوا قد اختلفوا في نوع هذا التحريف، وكيفينا دلالة على تحريف التوراة وبرائة سيدنا موسى من توراة اليهود اليوم أنها قد وصفت الله سبحانه وتعالى بأوصاف لا يصح نسبتها إلى خالق السماوات والأرض ومبدع الكون كله، فالإله في التوراة التي بعد موسى يحتاج إلى مكان مقدس يسكن فيه وله جسد ويده مغلولة ويلعب مع الحوت ويكي ويتصارع مع يعقوب ويدعو إلى النصب والاحتيال ويحرض على الكذب والسرقة ونهب أموال الجويم الذين يشكلون طبقة دون بني إسرائيل تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

(١) سورة البقرة: الآية ٧٥.

(٢) سورة النساء: الآية ٤٦.

(٣) مقارنة الأديان: ص ٧٤.

٢- الزبور: الذي نزل على داود عليه السلام، قال تعالى: {وآتينا داود زبوراً} ^(١). وقوله تعالى: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون} ^(٢).

٣- الإنجيل: الذي نزل على سيدنا عيسى عليه السلام، قال تعالى: {وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة} ^(٣)، وقال تعالى: {وآتينا الإنجيل فيه هدى ونور مصدقاً لما بين يديه من التوراة} ^(٤).

والأناجيل المعتبرة عند النصارى قوم عيسى عليه السلام أربعة، وهي من مصادر المسيحية بعد عيسى عليه السلام، وليست كل المصادر فهناك علاوة على العهد القديم الذين يشمل التوراة أيضاً، والأناجيل السابقة، رسائل أعمال الرسل والرسائل التعليمية، والأناجيل الأربعة هي إنجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا.

وتحتل الأناجيل مكان القطب والعماد لأنها تدور حول شخصية المسيح وتاريخه، فقد أثبتوا فيها من تاريخ مريم وعيسى ويحيى وغير ذلك من التواريخ ما بقي في ذاكرتهم أو ما بلغهم من الخير في أزمان تصنيفها بعد رفع المسيح عليه السلام ^(٥). وهي تشتمل على العقائد الدخيلة على المسيحية تلك التي ابتدعها اليهودي الزنديق [شاوؤل]، مثل ألوهية المسيح، وعقيدة الصلب والفداء، وأعانته على ذلك ملك الروم قسطنطين وأعوانه اليهود.

وهذه الأناجيل هي التي تعترف بها الكنائس وتقرها المسيحية بعد عهد شاوؤل الذي أطلق عليه بولص الرسول زوراً وبهتاناً. ولا يعني هذا أن

(١) سورة الإسراء: الآية ٥٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٦.

(٤) سورة المائدة: الآية ٤٦.

(٥) محاضرات في النصرانية لمحمد أبو زهرة: ص ٤٠ والعقيدة الإسلامية لحنكة: ص ٥٦٦.

الأناجيل الأربعة هي فقط التي تضمنت العقائد عندهم، بل التاريخ يحدثنا عن وجود أناجيل أخرى في العصور الغابرة أخذت بها فرق قديمة، ولم تعتنق كل فرقة إلا إنجيلها^(١).

وهذه الأناجيل دخلها ما دخلها من التحريف بأيدي شاول وأتباعه من كتاب قساوسة النصارى وأحبار اليهود قال تعالى: {ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون}^(٢). والذي يعتبر قريباً من الصحة بين الأناجيل الأربعة هو إنجيل برنابا فإنه يخالف تلك الأناجيل المتداولة مخالفة كبيرة.

٤- القرآن الكريم: مصدر قرأ، كالغفران مصدر غفر. ومنه قوله تعالى: {لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه}^(٣).

وفي الاصطلاح: هو كلام الله تعالى، المنزل على الرسول محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه نقلاً متواتراً بلا شبهة، المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس، المتعبد بتلاوته^(٤).

وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه، وهو التشريع الخالد لكل زمان ومكان. والقرآن الكريم معجز، أعجز البشر عن أن يأتوا بسورة من مثله.

وأسماءه أربعة: القرآن، قال تعالى: {إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً}^(٥)، والكتاب، قال تعالى: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين

(١) محاضرات في النصرانية: ص ٤٢.

(٢) سورة المائدة: الآية ١٤.

(٣) سورة القيامة: الآية ١٦-١٧.

(٤) فتح الغفار لابن نجيم: ج ١ ص ١٠، وجمع الجوامع بشرح البناني: ج ١ ص ٢٢٣، وعلم أصول الفقه: ص ٢٢.

(٥) سورة الإنسان: الآية ٢٣.

يديه من الكتاب ومهيماً عليه^(١)، والذكر، قال تعالى: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}^(٢). وانفرقان، كما دلت عليه الآيات السابقة.

وعدد أجزائه: ٣٠ جزءاً، وعدد سوره (١١٤) سورة، وعدد آياته: قال ابن عباس رضي الله عنهما: (٦٦١٦)، وعدد كلماته: (٧٧٩٣٤) كلمة، وعدد حروفه (٣٣٣٦٧١) حرفاً.

وقال أهل التفسير في بيان معنى قوله تعالى: {ومهيماً عليه}: مهيماً مؤتماً وشاهداً على ما قبله من الكتب، ومصداقاً لها يعني يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغير ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير، ولهذا يخضع له كل متمسك بالكتب المتقدمة ممن لم ينقلب على عقبيه، قال تعالى: {الذي آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين}^(٣).

والقرآن الكريم كتاب تشريع ودستور للناس، تبنى به حياة عزيزة كريمة، يريد أن تعمر بها الأرض. ولم يكن مقصده الأصلي أن يؤصل نظريات علمية، أو أن يقص علينا أنباء الأولين، أو أن يكون صورة أدبية فريدة في الأسلوب، لكنه ذكر آيات الله في الخلق بذلك الأسلوب الرفيع، ليعلمهم أنه كلام إلهي معجز في حد ذاته، وليؤكد الإيمان به واتخاذ العبر من القصص.

وقد جمع العلماء أعجاز القرآن الكريم من وجوه متعددة هي:

الوجه الأول: فصاحة ألفاظه، وبلاغة عباراته، وعجيب نظمته^(٤).

(١) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٢) سورة الحجر: الآية ٩.

(٣) سورة القصص: الآية ٥٢-٥٣.

(٤) شرح المقاصد: ج ٢ ص ١٨٣، شرح المواقف: ص ٥٥٨، مناهل العرفان: ج ٢ ص ٢٢٨، أعلام النبوة: ص ٥٧، أصول الفقه: ص ٢٨، الإتيان: ج ٢ ص ١١٦، والنبأ العظيم: ص ٨٠.

الوجه الثاني: تأثيره وسلطانه على القلوب، وأخذه بمجامع الأفئدة. فقارئه لا يمل، وسامعه لا يمج، بل الإكباب على تلاوته يزيد حلاوة، وترديده يوجب له محبة، فإذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة ما تشرح له الصدور، وتستبشر به النفوس. قال الخطابي: قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر: صنيعه بالقلوب^(١).

الوجه الثالث: إخباره بوقائع غيبية - لا يعلمها إلا الله - في الماضي أو الحاضر أو المستقبل. كقصص الأنبياء السابقين والأمم الغابرة، أو إخباره عن الجن والملائكة والجنة النار وعذاب القبر ونعيمه، وما يتصل بالله تعالى من صفات، وفضح المنافقين وأظهر دجلهم وكذبهم ونفاقهم، وأخبر عن هزيمة الروم، ومحاولات اغتيال حضرة النبي ﷺ ودور اليهود فيها.

الوجه الرابع: حقائقه العلمية التي جاء العلم الحديث يؤكد^(٢).

الوجه الخامس: معانيه وأحكامه وانعدام الاختلاف فيه^(٣).

أسلوب القرآن الكريم:

أسلوب القرآن الكريم هو الطريقة التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه وقد جاء القرآن الكريم كتاباً عربياً جارياً على مألوف العرب، فمن حروفهم تألفت كلماته، ومن كلماتهم تألفت تراكيبه، وعلى قواعدهم العامة في صياغة هذه المفردات وتكوين التراكيب جاء تأليفه، ومع ذلك فقد أعجزهم بأسلوبه الفذ.

(١) الشفا: ج ١ ص ٢٧٣، الإتيان: ج ٢ ص ١٢٣، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ص ٧٠.

(٢) ينظر التفسير العلمي للآيات القرآنية: ص ٦٩.

(٣) ينظر الشفا: ج ١ ص ٢٧٥، الإتيان: ج ٢ ص ١٢٣.

خصائص أسلوب القرآن الكريم:

إن الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن الكريم جعلت له طابعاً معجزاً في لغته وبلاغته، ومن تلك الخصائص:

أ. مسحة القرآن اللفظية الخلابة العجيبة، المتجلية في نظامه الصوتي وجماله اللغوي، والمراد بنظام القرآن الصوتي: اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته ومداته وغناته، واتصالاته وسكناته، اتساقاً عجيباً وائتلافاً رائعاً^(١).

ب. إرضاءه العامة والخاصة: فالعامة والخاصة من الناس على حد سواء إذا قرؤوه أو قرئ عليهم أحسوا بجماله، وتذوقوا حلاوته، وفهموا منه ما استطاعوا أن يفهموه. على خلاف كلام البشر فالناس على خلاف فيه بين قاذح ومادح.

ج. إرضاءه العقل والعاطفة، لأنه يخاطب القلب والعقل معاً.

د. جودة سبك القرآن وإحكام سرده؛ فالقرآن بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجملة، وآياته وسوره، مبلغاً لا يدانيه فيه أي كلام آخر، مع طول نفسه وتنوع مقاصده، وتلويحه في الموضع الواحد. فكأنما هو سبيكة واحدة تأخذ بالأبصار، على حين أنها مؤلفة من حلقات، لكل حلقة منها وحدة مستقلة في نفسها ذات أجزاء، ولكل جزء وضع خاص من الحلقة. وكتب التفسير طافحة ببيان المناسبات^(٢).

هـ. براعته في تصريف القول وثروته في أفانين الكلام، فيورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، بمقدرة فائقة خارقة، تنتقطع في حليتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء^(٣). إلى غير ذلك من الوجوه

(١) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الاسكافي: ص ١٠.

(٢) ينظر أصول الدين الإسلامي: ص ٣٢٥.

(٣) ينظر أصول الدين الإسلامي: ص ٣١٣.

العديدة التي دلت دلالة قطعية على أن القرآن الكريم أعجز البشر عن أن يأتوا بمثله. وتحقق الإعجاز بالتحدي، ووجود المقتضى الذي يدفع المتحدّي إلى المنازلة، وعدم وجود مانع من المباراة، قال تعالى: {أم يقولون نقوله بل لا يؤمنون، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} (١).

وخلاصة القول: أن هذا الكتاب العزيز قد حفظه الله تعالى حتى وصل إلينا بدون تحريف ولا تبديل، وكان المصحف في جميع الأطوار المختلفة مهيئاً عليه بآلاف الألوف من الحفظة في جميع العالم الإسلامي، وطبع طبعات عديدة في بلاد المسلمين ومن أعظمها وأجودها طبعة مصحف المدينة المنورة جزى الله تعالى العاملين عليها خير الجزاء ولا تزال الحال كذلك إلى يومنا الحالي، وهذا كله مصداق قوله تعالى: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنالاه لحافظون} (٢). وهذه الأربعة - التوراة، الإنجيل، الزبور، القرآن - هي التي يجب الإيمان بها تفصيلاً لأن القرآن جاء بها تفصيلاً، وأما الصحف فيجب الإيمان بها إجمالاً لأنه لم يرد بها تعيين العدد في القرآن الكريم.

قال الناظم رحمه الله:

وَصُحُفُ الْخَلِيلِ وَالْكَلِيمِ فِيهَا كَلَامُ الْحَكَمِ الْعَلِيمِ

المفردات:

صُحُف: جمع صحيفة.

الخليل: سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

الكليم: سيدنا موسى عليه السلام، قال تعالى: {وكلّم الله موسى تكليماً}.

الحكم: بفتح وسطه، أي الحاكم الذي لا مرد لقضائه ولا معقب لحكمه.

(١) سورة الطور: الآية ٣٣-٣٤.

(٢) سورة الحجر: الآية ٩.

الشرح:

يجب على كل مكلف أن يعتقد، أن الله تعالى أنزل صحفاً على سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأنزل صحفاً قبل التوراة على سيدنا موسى عليه السلام، قال تعالى: {أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} (١). وقوله تعالى: {إِنْ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} (٢).

والصحف عددها مائة:

١٠ صحف أنزلت على آدم عليه السلام.

٥٠ صحيفة أنزلت على شعيب عليه السلام.

٣٠ صحيفة أنزلت على إبراهيم عليه السلام.

١٠ صحف أنزلت على موسى عليه السلام (٣).

والاعتقاد واجب في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام لذكرهما في الخبر المتواتر قال تعالى: {إِنْ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} (٤).

القرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى:

أصول الرسالات السماوية وعقائدها وهدفها واحد، وهو: توجيه البشر إلى طريق الصلاح قال تعالى: {أَشْرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} (٥). وقال سبحانه: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ

(١) سورة النجم: الآية ٣٦-٣٧.

(٢) سورة الأعلى: الآيتان ١٨-١٩.

(٣) ينظر أصول الدين الإسلامي للبغدادي: ص ٨٠.

(٤) سورة الأعلى: الآية ١٨-١٩.

(٥) سورة الشورى: الآية ١٣.

والرسول^(١). وذلك طلب القرآن الكريم الإيمان بجميع الرسل، وما أنزل عليهم من كتب: {والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك^(٢)}. لكن الإيمان المطلوب شرعاً بالكتب السماوية ومنها الإنجيل والتوراة والزابور، إنما يراد به التصديق بأن هذه الكتب كانت من عند الله تعالى، وكانت صادقة، وما جاءت إلا للغرض الذي جاء لإتمامه القرآن الكريم، فما جاء بها مخالفاً لما في القرآن فهو محرف قطعاً لا يعول عليه.

وهنا لابد أن نبين أهم فروق القرآن الكريم عن الكتب السماوية لما يأتي:

١. الكتب التي نزلت قبل القرآن ضاعت نسخها الأصلية، ولم يبق منها إلا ترجمتها. أما القرآن فهو محفوظ بلفظه وبكلماته، التي أنزلها الله تعالى على نبيه سيدنا محمد ﷺ، ووصل إلينا بهذا الشكل متواتراً.

٢. اختلط كلام الناس من فقهاء أو مفسرين أو مؤرخين بتلك الكتب. أما القرآن فلم يختلط به شيء حتى من كلام المصطفى ﷺ، ولقد منع حضرة النبي ﷺ من كتابة الحديث النبوي الشريف بداية نزول القرآن، لئلا يختلط الحديث بالقرآن. وكتب التفسير والحديث والفقه مستقلة تماماً عن القرآن، كما هو معروف.

٣. لم يستطع أحدٌ أن يثبت باستناد تاريخي أن أيّاً من هذه الكتب الموجودة الآن نزل على النبي الذي نسب إليه ذلك الكتاب، كما لم يمكن تعيين الزمن الذي نزل به. أما القرآن فالتاريخ قاطع بشواهد أنه نزل على سيدنا محمد ﷺ وأن آياته منها ما عين مكان نزوله أو زمنه أو سببه.

٤. لغات الكتب السماوية القديمة اندرست منذ زمن طويل، فلم تجد متكلماً بها، بل إن من يفهمها قليل جداً. أما لغة القرآن الكريم فهي لغة حية

(١) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ٤.

المبحث الخامس: في طاعة الرسول الأكرم ﷺ

قال الناظم رحمه الله:

وَكُلُّ مَا أَتَى بِهِ الرَّسُولُ فَحَقُّهُ التَّسْلِيمُ وَالْقَبُولُ

المفردات:

التسليم: الإقرار بصحته والتفويض المطلق له^(١).

الشرح:

لما ذكر الناظم ما يجب في حق الله تعالى ورسوله من الواجبات والمستحيلات ذكر ما يجب الإيمان به في حق ما جاء به سيدنا محمد ﷺ من التشريعات فقال: وكل ما أتى به الرسول فحقه التسليم والقبول، أي يجب على كل مكلف إذا بلغه ما أتى به الرسول المصطفى ﷺ أن ينتهي إليه ويعمل به، وعليه التسليم والقبول لأنه المصدر الثاني بعد كلام الله تعالى، قال عز شأنه: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}^(٢)، وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}^(٣)، وقال تبارك وتعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}^(٤).

(١) شرح المقاصد النووية: ص ٢١، وإتمام النصيحة لمريد العقيدة الصحيحة: ص ٣٤.

(٢) سورة الحشر: الآية ٧.

(٣) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٣١.

وقال جل جلاله وعم نواله: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً} (١).

وما جاء في الصحيحين عن النبي المصطفى ﷺ أنه قال: (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه) (٢). وقوله الشريف ﷺ: (تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله، وسنتي) (٣).

وقال الإمام مالك رحمه الله: (ما منا إلا راؤ ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر) (٤)، ويعني حضرة النبي الأكرم ﷺ.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: [من استبانته له سنة رسوله ﷺ لم يكن له أن يدعه لقول أحد] (٥). أي يجب الإيمان والعمل بكل ما جاء به رسول الله ﷺ للدلالة الواضحة من كتاب الله تعالى وسنته ﷺ وإجماع الأمة على العمل بسنة الحبيب الأكرم ﷺ.

(١) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الحاكم في المستدرک وصححه الذهبي.

(٤) مالك بن أنس إمام دار الهجرة: ص ١٠.

(٥) جلاء الأفهام: ص ٧٠.

المبحث السادس: اليوم الآخر (السمعيات)

قال الناظم رحمه الله:

إِيْمَانُنْكَ بِيَوْمٍ آخِرٍ وَجَبَ كُلُّ مَا كَانَ بِهِ مِنَ الْعَجَبِ

المفردات:

السمعيات: هي الاعتقادات التي لا يستقل العقل بإثباتها، وإنما يتوقف إثباتها على الأدلة السمعية فحسب^(١).

الشرح:

يجب على كل مكلف أن يعتقد ويصدق بوجود اليوم الآخر وبجميع ما سيقع فيه من العجائب والغرائب كالحشر والحساب والحوض والميزان والصراط والجزاء والجنة والنار والشفاعة العظمى التي هي لفصل القضاء وهي تعم المؤمن والكافر. وسمي هذا اليوم باليوم الآخر لأنه لا ليل بعده ولا نهار، أو لأنه آخر الأوقات المحدودة، أي آخر أيام الدنيا، وله أسماء أخرى كثيرة منها القيامة، والقارعة، والحاقة والتغابن ويوم الدين ويوم الحساب وغيرها فمن أنكر وقوعها فقد كفر. قال تعالى: {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ آمَنَ بَاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} ^(٢). ومعنى الإيمان بهذا اليوم الآخر وبما اشتمل عليه: التصديق الجازم بإتيانه لا محالة والعمل بموجب ذلك: ويدخل في ذلك الإيمان بأشراط الساعة وأماراتها التي تكون قبلها لا محالة، وبالموت وما بعده من فتنة القبر

(١) إتمام النصيحة: ص ١٤٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٧.

وعذابه ونعيمه، وبالنفخ في الصور وخروج الخلائق من القبور، وما في موقف يوم القيامة من الأهوال والأفزع، وتفاصيل المحشر ونشر الصحف ووضع الموازين، وبالصراط والحوض والشفاعة وغيرها، وبالجنة ونعيمها الذي أعلاه النظر إلى وجه الله تعالى، وبالنار وعذابها الذي أشده حجبهم عن ربهم عز وجل.

١ - الحياة البرزخية:

البرزخ هو ما بين الموت ويوم البعث والنشور، قال تعالى: {ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون} ^(١). والحياة البرزخية حياة حقيقية، وهذا ما دلت عليه الآيات البيّنات والأحاديث المشهورة الصحيحة. وهذه الحياة الحقيقية لا تعارض وصفهم بالموت، كما جاء ذلك في كتاب الله العزيز إذ يقول: {وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد} ^(٢). وقوله تعالى: {إنك ميت وإنهم ميتون} ^(٣). إن معنى قولنا عن الحياة البرزخية بأنها حقيقية أي: ليست خيالية أو مثالية كما يتصورها بعض الملاحدة ممن لا تتسع عقولهم للإيمان إلا بالمشاهد المحسوس، دون الغيب الذي لا يطيق العقل البشري تصويره.

والأدلة على ذلك من السنة النبوية المباركة بلغ حد التواتر، وقد أفاض الشيخ القيم ابن القيم رحمه الله في كتاب الروح بما يشفي ويكفي، ونقل هنا فتوى عظيمة لشيخ الإسلام الإمام ابن تيمية في هذا الموضوع كما جاء في الفتاوى الكبرى: [سئل الشيخ عن الأحياء إذا زاروا الأموات هل يعلمون بزيارتهم؟ وهل يعلمون بالميت إذا مات من قرابتهم أو غيره؟].

فأجاب: الحمد لله، نعم قد جاءت الآثار بتلاقيهم وتساؤلهم وعرض أعمال الأحياء على الأموات، كما روى ابن المبارك عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه،

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٠٠.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣٤.

(٣) سورة الزمر: الآية ٣٠.

قال: إذا قبضت نفس المؤمن - روحه -، تلقاها الرَّحْمَةُ من عباد الله كما يتلقون البشير في الدنيا فيقبلون عليه ويسألونه، فيقول بعضهم لبعض: انظروا أخاكم يستريح فإنه كان في كرب شديد، قال: فيقبلون عليه ويسألونه: ما فعل فلان؟ وما فعلت فلانة؟ هل تزوجت؟" الحديث.

وأما علم الميت بالحي إذا زاره وسلم عليه، ففي حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام" قال ابن المبارك: ثبت ذلك عن النبي ﷺ وصححه عبدالحق صاحب الأحكام^(١).

وينبغي أن يعرف الناس معنى تلك الحياة وأنها حياة برزخية، وأنها ليست كحياتنا هذه، بل هي حياة خاصة لا تفتك بهم وبالعالم الذي هم فيه، لكن لا بد أن نبين لهم أيضاً أنها ليست كحياتنا الدنيا، لأن حياتنا أقل وأقصر وأضيق وأضعف. فالإنسان فيها بين عبادة وعادة وطاعة ومعصية وواجبات مختلفة لنفسه وأهله ولربه، وأنه تارة يكون طاهراً وتارة يكون على ضد ذلك، وتارة يكون في المسجد وتارة يكون في الحمام وإنه لا يدري بم يختم له!.

فقد يكون بينه وبين الجنة ذراع، ثم ينقلب الأمر رأساً على عقب فيصير من أهل النار وبالعكس. أما في البرزخ: فإنه إن كان من أهل الإيمان، فإنه قد جاوز قنطرة الامتحان والاختبار التي لا يثبت عندها إلا أهل السعادة، ثم إنه قد انقطع عنه التكليف، وأصبح روحاً مشرقة طاهرة مفكرة سياحة سباحة جوالاً في ملكوت الله وملكه سبحانه وتعالى، لا هم ولا حزن ولا بأس ولا قلق، لأنه لا دنيا ولا عقار ولا ذهب ولا فضة، فلا حسد ولا بغي ولا حقد، وإن كان غير ذلك، ففي عكس ذلك. فإن الميت يسمع ويحس ويعرف سواء

(١) مجموع الفتاوى: ٢٤ ص ٣٣١، وينظر كذلك فتوى أخرى للشيخ رحمه الله في الباب ج ٢٤

ص ٣٦٢، و ج ٢٤ ص ٣٣٢.

أكان مؤمناً أم كافراً، وهكذا الحياة البرزخية درجات ومراتب ومقامات متفاوتة قال تعالى: {ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً} (١).

٢ - ضغطة القبر وضمته:

وأول ما يلقي الميت في عالم البرزخ ضغطة القبر، وهي من العذاب، وتختلف شدة وضعفاً حسب أعمال الميت، فمنهم من يضم كما تضم الأم الحنون وليدها بحنان وشفقة، ومنهم من تضمه الأرض بقوة وشدة حتى تختلف أضلاعه، كل ذلك في عالم البرزخ الذي لا نعرف عنه إلا ما أخبرنا الله تعالى وبينه لنا رسوله المصطفى ﷺ في سنته المباركة، وله نواميس وقوانين تناسبه، تختلف كل الاختلاف عن قوانين ونواميس الحياة الدنيا.

وبما أن ضغطة القبر قانون ثابت يشمل الجميع بلا استثناء فلا ينجو منها أحد حتى الصالحاء وإن علا قدرهم ومنزلتهم ما خلا الأنبياء الكرام لمكانتهم، وفاطمة بنت أسد رضي الله عنها لشفاعته المصطفى ﷺ لها لأنها كانت له أمماً بعد أمه وقامت برعايته والإحسان إليه وآمنت به وصدقته وهاجرت معه، ومن قرأ سورة الإخلاص في مرض موته وعند قبض روحه (٢). قالت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: (إن للقبر ضغطة، لو سلم أو نجاه منها أحد، لنجا سعد بن معاذ) (٣)، وهو الذي اهتز عرش الرحمن لموته، فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (اهتز العرش لموت سعد بن معاذ) (٤). وهذا ما يؤكد لنا أن قانون ضغطة القبر وضمته سار المفعول على الجميع نسأل الله تعالى من فضله السلامة والنجاة.

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٢.

(٢) شرح جوهرة التوحيد: ص ٤٦٦، تحفة الأحوذى: ج ٥ ص ٢٥٠، وفيض القدير: ج ٢ ص ٤٥٢.

(٣) صحيح ابن حبان: ج ٧ ص ٣٧٩ برقم (٣١١٢)، مسند الإمام أحمد: ج ٦ ص ٥٥ برقم (٢٤٣٢٨).

(٤) صحيح البخاري: ج ٣ ص ١٣٨٤ برقم (٣٥٩٢)، صحيح مسلم: ج ٤ ص ١٩١٥ برقم (٢٤٦٦).

٣- سؤال القبر:

وردت الأخبار والأحاديث الصحيحة بطرق متعددة أفاد مجموعها التواتر المعنوي^(١)، فإذا مات ابن آدم أرسل الله تعالى إليه ملكين يسألانه عن ربه وعن نبيه وعن دينه وعن عمله، فمن صح جوابه سعد وفاز بالنعيم المقيم، بفضل الله وتوفيقه، ومن تلثم فأخطأ في الجواب فذلك المخذول الذي شقي وإلى الأبد، وإنما سمي الملكان بمنكر ونكير، لأنهما يأتیان الميت بصورة منكرة كما ورد في الحديث الشريف، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إذا قُبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان، يُقال لأحدهما مُنكر وللآخر نكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبدالله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يفسح في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، ثم ينور له فيه، ثم يقال له: نم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم؟ فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك.

وإن كان منافقاً، قال: سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله: لا أدري فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض التثمي عليه، فتلثم عليه فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك^(٢).

ثم إن سؤالهما يكون بعد تمام الدفن وانصراف الناس، ففي الحديث الشريف عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، وأنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له...) (٣). وفي الصحيحين أن قوله تعالى: {يثبت الله الذين آمنوا}

(١) ينظر حياة البرزخ في الفكر الإسلامي للدكتور مراد الجنابي: ص ١٧٢.

(٢) سنن الترمذي: ج ٣ ص ٣٨٣ برقم (١٠٧١)، وصحيح البخاري: برقم (١٣٧٤)، وصحيح مسلم: برقم (٢٨٧٠) من حديث أنس.

(٣) صحيح البخاري: برقم (١٣٧٤)، وصحيح مسلم: (٢٨٧٠).

بالقول الثابت^(١). نزلت في عذاب القبر، يقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله ونبي محمد ﷺ^(٢).

ويستفاد من الأحاديث الشريفة الأمور الآتية: إثبات:

أ-ضغطة القبر. ب-سؤال الميت. ج-عذاب القبر.

د-نعيم القبر. هـ-سماع الميت صوت قرع نعال المشيعين.

ولابد من سؤال الميت، ولو تمزقت أعضاؤه أو أكلته السباع في أجوافها، وكذلك العذاب أو النعيم، وإنما أضيف للقبر لأنه الغالب^(٣).

٤- عذاب القبر ونعيمه:

نعيم القبر لأهل الطاعة، وعذابه لأهل المعصية، وقد جاءت الأدلة من الكتاب والسنة متواترة في إثبات عذاب القبر ونعيمه وانعقد الإجماع على أن عقيدة أهل الحق تتضمن الإيمان بعذاب القبر للكفار والمنافقين وأهل الذنوب والكبائر، والنعيم للصالحين وأهل التقوى والإحسان.

ومن أدلة القرآن الكريم:

قوله تعالى: {كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون}^(٤).

وقوله سبحانه: {وحاق بآل فرعون سوء العذاب، النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب}^(٥). وقوله عز شأنه: {ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون}^(٦). وقوله تعالى: {الهاكم التكاثر

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

(٢) صحيح البخاري: رقم (١٣٦٩)، وصحيح مسلم: (٢٨٧١).

(٣) فتح الباري: ج ٣ ص ٢٣٣، فيض القدير: ج ٢ ص ١٢٤.

(٤) سورة المؤمنون: الآية ١٠٠.

(٥) سورة غافر: الآيتان ٤٥-٤٦.

(٦) سورة الأنعام: الآية ٩٣.

حتى زرتهم المقابر} (١). وقوله تعالى: {سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم} (٢).

وأدلة السنة النبوية كثيرة بلغت حد التواتر وسنذكر بعضها ومنها:

حديث أنس ؓ الذي ذكرناه في إثبات سؤال القبر (٣). وحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة) (٤). وحديث القبرين وفيه: (إنهما ليعذبان) (٥)، وحديث أبي أيوب الأنصاري ؓ قال: خرج النبي ﷺ وقد وجبت الشمس، فسمع صوتاً، فقال: (يهود تعذب في قبورها) (٦).

وحديث أسماء رضي الله عنها: "قام رسول الله ﷺ خطيباً فذكر فتية القبر التي يفتن فيها المرء فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة" (٧). وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها: "ما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر" (٨). وفي قصة الكسوف أمرهم حضرة النبي ﷺ أن يتعوذوا من عذاب القبر" (٩).

(١) سورة التكاثر: الآيتان ١-٢.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠١.

(٣) صحيح البخاري: برقم (١٣٧٤)، وصحيح مسلم: برقم (٢٨٧٠).

(٤) صحيح البخاري: برقم (١٣٧٩)، وصحيح مسلم: برقم (٢٨٦٦).

(٥) صحيح البخاري: برقم (٢١٦)، وصحيح مسلم: برقم (٢٩٢).

(٦) صحيح البخاري: برقم (١٣٧٥)، وصحيح مسلم: برقم (٢٨٦٩).

(٧) صحيح البخاري: برقم (١٣٧٣).

(٨) صحيح البخاري: برقم (١٣٧٢)، وصحيح مسلم: برقم (٥٨٦).

(٩) صحيح البخاري: برقم (١٠٥٠)، وصحيح مسلم: برقم (٩٣٢).

وكل هذه الأحاديث في الصحيح، وقد ساق أهل العلم منها نحو ستين حديثاً من طرق ثابتة عن جماعة من الصحابة يرفعونها إلى حضرة النبي ﷺ فلترجع^(١).

وإجماع الأمة قد تحقق بوجوب الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وقد ورد أن سيدنا عثمان بن عفان ؓ كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبيل لحيته، فسئل عن ذلك، وقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي إذا وقفت على قبر؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشد)^(٢).

ومن أراد أن يستزيد من أحوال الموتى في الحياة البرزخية وما فيها من عذاب أو نعيم فعليه مراجعة كتابنا حياة البرزخ في الفكر الإسلامي ففيه الخير الكثير بإذنه تعالى والله المنة والفضل.

٥- أمارات الساعة:

مجيء الساعة من مفاتيح الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمها كما قال تعالى: {إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت}^(٣). وقال سبحانه: {يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة}^(٤). وقال عز شأنه: {يسألونك عن الساعة أيان مرساها، فيم أنت من ذكراها، إلى ربك منتهاها}^(٥).

(١) ينظر معارج القبول: ج ٢ ص ٧٢١.

(٢) سنن الترمذي: ج ٤ ص ٥٥٣ برقم (٢٣٠٨).

(٣) سورة لقمان: الآية ٣٤.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٨٧.

(٥) سورة النازعات: الآيات ٤٢-٤٤.

ولما قال سيدنا جبريل لحضرة النبي ﷺ: فأخبرني عن الساعة: قال: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)، وذكر أماراتها وزاد في رواية: (خمس لا يعلمهن إلا الله) وتلا الآية السابقة.

وظهور علامات الساعة شيء ووقوعها شيء آخر، كظهور علامات الموت في الإنسان فإنها شيء أما وقوع الموت فيه حقيقة فإنه شيء آخر، وعلم الموت ووقوع الساعة أمرٌ غيبي لا يعلمه إلا الله تعالى.

ولكن الله تعالى أخبرنا في كتابه العزيز صوراً من علامات الساعة وقرب وقوعها فقال عز من قائل: {هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون} (١). وقال سبحانه: {وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون} (٢)، وقوله جل جلاله: {حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق} (٣)، وقال عز شأنه: {فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين} (٤)، وقوله تعالى: {إن زلزلة الساعة شيء عظيم} (٥).

ومن أدلة السنة النبوية المطهرة على علامات الساعة أحاديث طلوع الشمس من مغربها، وأحاديث الدابة، وأحاديث الفتن كالدجال والملاحم، وأحاديث نزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج، وأحاديث الدخان، وأحاديث الريح التي تقبض كل نفس مؤمنة، وأحاديث النار التي تظهر في عدن، وأحاديث الخسوف وانحسار الفرات عن جبل من ذهب وغيرها. لحديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: "طلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: ما

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

(٢) سورة النمل: الآية ٨٢.

(٣) سورة الأنبياء: الآيات ٩٦-٩٧.

(٤) سورة الدخان: الآية ١٠.

(٥) سورة الحج: الآية ١.

تذكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم^(١).

٦- البعث من القبور:

إن بعث الناس من قبورهم ليوم الحساب من المسائل الاعتقادية المهمة التي يجب على كل مكلف أن يؤمن بها ويستعد لها بالأعمال الصالحة لينجو من هول يوم القيامة، قال تعالى: {ثم إنكم يوم القيامة تبعثون}^(٢)، وقوله سبحانه: {ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور}^(٣). وهنالك العشرات من الآيات التي ذكرها الحق في كتابه العزيز تدعو العقل الإنساني للتفكير والتدبر في خلقه تعالى وأنه سبحانه هو الذي يبدء الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه، ويضرب الله تعالى لذلك مثلاً بإحيائه الأرض بالماء فتصبح تهتز مخضرة بالنبات بعد موتها بالجذب إذا كانت قبل هامة، قال تعالى: {ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحيها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير}^(٤). وغيرها من الآيات.

ومن كذب بالبعث فإنه كافر بالله عز وجل وبكتبه ورسله، قال تعالى: {وقال الذين كفروا اإذا كنا تراباً وأبأؤنا اننا لمخرجون}^(٥). وقال سبحانه: {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم

(١) صحيح الإمام مسلم: برقم (٢٩٠١).

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٦.

(٣) سورة الحج: الآيتان ٦-٧.

(٤) سورة فصلت: الآية ٣٩.

(٥) سورة النمل: الآية ٦٧.

وذلك على الله يسير^(١). وغيرها من الآيات.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقله لن يعيدني كما بدائي، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقول اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد)^(٢).

ويبدأ البعث بالنفخة التي ينفخ بها إسرافيل عليه السلام في الصور وعددها ثلاث نفخات، قال الله تعالى: {ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون}^(٣).

ففي هذه الآية ذكر نفختين، الأولى للصعق، والثانية للبعث. وقال تعالى: {ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله}^(٤).

فمن فسر الفزع في هذه الآية بالصعق فهي النفخة الأولى المذكورة في آية سورة الزمر، ويؤيده حديث مسلم وفيه: {ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها ورفع ليتها} - قال: - وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله - قال: - فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله - أو قال: - ينزل الله مطراً كأنه الطل - أو قال: - الظل فتتبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون [الحديث]^(٥).

(١) سورة التغابن: الآية ٧.

(٢) صحيح البخاري: برقم (٤٩٧٤).

(٣) سورة الزمر: الآية ٦٨.

(٤) سورة النمل: الآية ٨٧.

(٥) صحيح مسلك: من حديث ابن عمر رضي الله عنهما برقم (٢٩٤٠).

ومن فسر الفزع بدون الصعق فهي نفخة ثالثة متقدمة على النفختين، يؤيده ما في حديث الصور الطويل^(١)، فإن فيه ذكر ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين.

وبعث الناس ونشرهم: قد ورد بهما الشرع وهو حق، والتصديق بهما واجب، لأنه ممكن، ومعناه الإعادة بعد الإفناء، وذلك مقدور الله تعالى كابتداء الإنشاء، قال تعالى: {قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة}^(٢). فاستدل بالابتداء على الإعادة، والإعادة ابتداء ثان، فهو ممكن كالابتداء الأول^(٣).

٧- حشر الأجساد:

الحشر عبارة عن سوق جميع موتى الخلائق بعد بعثهم ونشرهم من القبور إلى الموقف الذي يقفون فيه بين يدي الله عز وجل على أرض بيضاء تدعى الساهرة، وهي أرض لم يرتكب عليها ذنب ولم يسفك فيها دم، ولا فرق في ذلك بين من يجازى وهم الأنس والجن، وبين من لا يجازى على ما صححه المحققون^(٤). والآيات في ذلك كثيرة منها قوله تعالى: {ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة}^(٥). وقوله تعالى: {فكيف إذا جمعناكم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون}^(٦).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير: (م ٢٥ ج ٣٦ ص ٢٦٦) وقال ابن كثير في تفسيره: ج ٢ ص ١٤٩ هذا حديث مشهور.

(٢) سورة يس: الآية ٧٨.

(٣) إحياء علوم الدين: ج ١ ص ١١٣.

(٤) المعرفة: ص ٩١.

(٥) سورة الأنعام: الآية ٩٤.

(٦) سورة آل عمران: الآية ٤٧.

وقوله تعالى: {وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً} ^(١)، وقوله سبحانه: {يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً، ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً} ^(٢)، وقوله عز شأنه: {ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم} ^(٣).

ومن أدلة السنة المطهرة قول حضرة النبي ﷺ: (يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين راهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار ثقيل معهم حيث قالوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث تمسي) ^(٤). وعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: (أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة) ^(٥)، كناية عن التهكم بالكافرين وزيادة في فضحهم وعذابهم.

وقال الحبيب الأكرم ﷺ: (إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً) "كما بدأنا أول خلق نعيده" وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم) ^(٦)، وزاد ابن المبارك يكسى إبراهيم قبطيتين، ثم يكسى محمد ﷺ حلة حبرة عن يمين العرش ^(٧). قال الحافظ: لا يلزم من تخصيص إبراهيم عليه السلام بأنه أول من يكسى أن يكون أفضل من نبينا عليه الصلاة والسلام مطلقاً ^(٨).

وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله الرجال والنساء ينضر بعضهم إلى بعض؟ فقال ﷺ: (الأمر أشد من أن يهتمهم ذلك) ^(٩).

(١) سورة الكهف: الآية ٤٧.

(٢) سورة مريم: الآيتان ٨٥-٨٦.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٩٧.

(٤) صحيح البخاري: برقم (٦٥٢٢) وصحيح مسلم: برقم (٢٨٦١).

(٥) صحيح البخاري: برقم (٤٧٦٠) وصحيح مسلم: برقم (٢٨٠٦).

(٦) صحيح البخاري: برقم (٣٣٤٩)، وصحيح مسلم: برقم (٢٨٦٠).

(٧) تحفة الأحوذني: ج ٧ ص ١٠٨.

(٨) جلاء الأفهام: ص ٧٣.

(٩) صحيح مسلم: برقم (٢٨٥٩).

٨- صفة الموقف:

قال تعالى: {ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيها الأبصار، مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء}{^(١)، وقال سبحانه: {يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً}{^(٢)، وقال جل جلاله: {وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع}{^(٣)، وغير ذلك من الآيات.

ومن أدلة صفة الموقف من سنة المصطفى ﷺ أحاديث كثيرة منها حديث ابن عمر رضي الله عنهما: (أن النبي ﷺ قال في قوله تعالى: {يوم يقوم الناس لرب العالمين}{^(٤): يقول أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه}{^(٥).

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ويلجمهم حتى يبلغ أذانهم){^(٦).

٩- الحوض:

هو حوض لرسول الله ﷺ عظيم المورد يكون له يوم القيامة، يردده الأخيار ويذاد عنه الأشرار، ووردت به النصوص الصحاح التي بلغ مجموعها التواتر، المعنوي، فوجب الإيمان به}{^(٧).

(١) سورة إبراهيم: الآيتان ٤٢-٤٣.

(٢) سورة النبأ: الآية ٣٨.

(٣) سورة غافر: الآية ١٨.

(٤) سورة المطففين: الآية ٦.

(٥) صحيح البخاري: برقم (٤٩٣٨)، وصحيح مسلم: برقم (٢٨٦٢).

(٦) صحيح البخاري: برقم (٦٥٣٢)، وصحيح مسلم: برقم (٢٨٦٣).

(٧) المسامرة: ص ٢٨٩، وقطف الأزهار للسيوطي: ص ٢٩٠، ونظم المتناثر: ص ٣٠٥، وشرح

الطحاوية: ص ١٢٥، ومرويات الصحابة في الحوض: ص ١٤، وفتح الباري: ج ١١

ص ٤٦٩، والبداية والنهاية: ج ٢ ص ٢٩، وشرح النووي لمسلم: ج ٥ ص ١٥٠.

فمن الأخبار الصحاح حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (حوضي مسيرة شهر، مأوه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لا يظمأ أبداً)^(١).

وقد استدلل بعض المفسرين على أن الحوض هو الكوثر بحديث عن أنس رضي الله عنه: (بينما رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءً، ثم رفع رأسه متبسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: نزلت عليّ أنفأ سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: {إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر، إن شانئك هو الأبتر}^(٢)، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آتيته عدد نجوم السماء)^(٣).

وذكر حضرة النبي ﷺ بشارات لأمته فقال: (أنا فرطكم على الحوض)^(٤)، وقال: (إني فرط لكم وأنا شهيد عليكم وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن)^(٥). ومعنى فرط لكم أي سابق لكم على الحوض أهئته لكم وافتتحه حتى تردوا عليه آمنين.

وذهب الإمام ابن كثير رحمه الله إلى أن الحوض يكون في ساحة الموقف قبل الصراط ويتضح ذلك من قوله: [إن قال قائل: فهل يكون الحوض قبل الجواز على الصراط أو بعده؟ فالجواب: أن ظاهر ما تقدم من الأحاديث يقتضي كونه قبل الصراط، لأنه يذاد عنه أقوام يقال عنهم: أنهم لم يزلوا يرتدون على أعقابهم منذ فارقتهم، فإن كان هؤلاء كفاراً، فالكافر لا

(١) صحيح البخاري: برقم (٦٥٧٩) وصحيح مسلم: برقم (٢٢٩٢).

(٢) سورة الكوثر: الآية ١-٣.

(٣) صحيح مسلم: برقم (٤٠٠).

(٤) صحيح البخاري: برقم (٦٥٧٥)، وصحيح مسلم: برقم (٢٢٩٧).

(٥) صحيح البخاري: برقم (٦٥٩٠)، وصحيح مسلم: برقم (٢٢٩٦).

يجاوز الصراط، بل يكب على وجهه في النار قبل أن يجاوزه، وإن كانوا عصاة وهم من المسلمين، فيبعد حجبهم عن الحوض ولاسيما عليهم سيما الوضوء، وقد قال رسول الله ﷺ: (أعرفكم غراً محجلين من آثار الوضوء) ثم من جاوز الصراط لا يكون إلا ناجياً مسلماً، فمثل هذا لا يحجب عن الحوض، فالأشبه والله أعلم أن الحوض قبل الصراط^(١).

١٠ - العرض والحساب:

لقد جاءت الأدلة من الكتاب والسنة بوجوب الإيمان بالعرض والحساب يوم القيامة، ومنها قوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ}^(٢)، وقال تعالى: {وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}^(٣)، وقوله عز وجل: {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}^(٤)، وقوله تعالى: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}^(٥)، وقال سبحانه: {وَقَفَّوْهُمْ إِنَّهُمْ مُسْأَلُونَ}^(٦). وغيرها من الآيات كثيرة.

ومن أدلة السنة المطهرة أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: (من نوقش الحساب عذب، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: أليس يقول الله تعالى: {فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا} قال: ذلك العرض)^(٧).

وقال حضرة النبي الأكرم ﷺ: (يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: رأيت لو كان لك ملئ الأرض ذهباً أكنّت تفندي به؟ فيقول: نعم، فيقال: قد

(١) البداية والنهاية: ج ٢ ص ٩٧، ومن أراد التفصيل في شأن الحوض فعليه العودة إلى كتابنا الحوض والصراط والميزان عند المتكلمين، ط ١، ٢٠٠٥، دار الكتاب العلمية - بيروت.

(٢) سورة الحاقة: الآية ١٨.

(٣) سورة الكهف: الآية ٤٨.

(٤) سورة الزلزلة: الآيات ٦-٨.

(٥) سورة الصافات: الآية ٢٤.

(٦) سورة الانشقاق: الآية ٨.

(٧) صحيح البخاري: برقم (٤٩٣٩)، وصحيح مسلم: برقم (٢٨٧٦).

سئلت ما هو أيسر من ذلك - وفي رواية - فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك^(١).

وقال المصطفى ﷺ: (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، ولو بكلمة طيبة)^(٢).

وبين حضرة النبي ﷺ صفة الحساب والسؤال بقوله: (يدنو أحدكم - يعني المؤمنين - من ربه حتى يضع كنفه - ستره - عليه فيقول: عملت كذا وكذا، فيقول: نعم، ويعمل كذا وكذا، فيقول: نعم، فيقرره ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم)^(٣). وغير ذلك من الأحاديث فمن أنكر العرض والحساب فقد كفر بالإجماع.

١١ - إيتاء الصحف (الكتب):

إن أخذ العباد الصحف واجب لوروده بالكتاب والسنة ولانعقاد الإجماع عليه، فمن أنكره كفر، والصحف هي الكتب التي كتبت فيها الملائكة ما فعله العباد في الدنيا، وقد جاء أخذ الصحف منصوصاً عليه في قوله تعالى: {فأما من أوتي كتاباً بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه، إني ظننت أني ملاق حسابيه، فهو في عيشة راضية، في جنة عالية، قطوفها دانية، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية، وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه، ولم أدر ما حسابيه}^(٤).

فالأول جازم باللقاء، فرح بالإعطاء، والثاني مبلس متحسر والراجح أن القراءة حقيقية، وقيل: مجاز عن علم كل أحد بما له وما عليه، لكن من

(١) صحيح البخاري: برقم (٣٣٣٤)، وصحيح مسلم: برقم (٢٨٠٥).

(٢) صحيح البخاري: برقم (١٤١٣) وصحيح مسلم: برقم (١٠١٦).

(٣) صحيح البخاري: برقم (٦٠٧٠)، وصحيح مسلم: برقم (٢٧٦٨).

(٤) سورة الحاقة: الآيات ١١٩-١٢٦.

الآخذين من لم يقرأ كتابه ذهولاً ودهشة لما فيه من قبائح، والمؤمن يأتيه كتابه بكتابة بيضاء، فيأخذه بيمينه فيقرؤه فيبيض وجهه، والكافر يأتيه أسود فيسود وجهه بعد قراءته^(١). قال الله تعالى: {وكل إنسان ألزمناه طائره بعنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً}^(٢)، وقال سبحانه وتعالى: {وأما من أوتي كتاب وراء ظهره} فهذا يدل على أن من يؤتى كتابه بيمينه يؤتاه من أمامه وهو المؤمن، ومن يؤتى كتاب بشماله يؤتاه من وراء ظهره، والعياذ بالله عز وجل.

وقد فصل حضرة النبي ﷺ أحوال المؤمن عند نشر الصحف بقوله الشريف: (يدني المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه تعرف ذنب كذا؟ يقول: أعرف، يقول: رب أعرف (مرتين) فيقول: سترتها في الدنيا وأغفرها لك اليوم، ثم تطوى صحيفة حسناته، وأما الآخرون - أو الكفار - فينادى عليهم من رؤوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم)^(٣).

وقالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قلت: يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ قال: (يا عائشة أما عند ثلاث فلا، أما عند الميزان حتى يتقل أو يخف فلا، وأما عند تطاير الكتب، إما يعطى بيمينه، وإما يعطى بشماله فلا، وحين يخرج عنق النار)^(٤).

١٢ - الميزان:

قال تعالى: {ونضع الموازين القسط ليوم القيامة}^(٥)، وقال سبحانه:

(١) الموافق للإيجي: (٣٧٤)، والاقتصاد في الاعتقاد: (١٥٧)، وشرح الجوهرة للباجوري: (٣٩٩).

(٢) سورة الإسراء: الآيتان ١٣-١٤.

(٣) سورة هو: الآية ١٨.

(٤) رواه أبو داود في سننه: (٤٧٥٥) والإمام أحمد: ج ٦ ص ١١٠، والحاكم في مستدركه: ج ٤ ص ٥٧٨.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

{والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون}{^(١)}.
 ووجهه أن الله تعالى يحدث في صحائف الأعمال وزناً بحسب درجات الأعمال عند الله سبحانه، فتصير مقادير أعمال العباد معلومة للعباد، حتى يظهر لهم العدل في العقاب، أو الفضل في العفو وتضعيف الثواب^(٢).

فيا من أيقن وصدق بالميزان، وما فيه من وزن للأعمال، هلا ثقلته بالصالحات من الأعمال، وفزت برضا العظيم المتعال، ونجوت من ذنوب بحجم الجبال، إن الجنة تنال بالأفعال لا باللغو من الأقوال^(٣).

١٣ - الصراط:

وهو جسر ممدود على ظهر النار، أدق من الشعر، وأحد من السيف، وهو طريق يوضع على ظهر جهنم يمر عليه الأولون والآخرين بعد انصرافهم من الموقف، فتنبت عليه أقدام المؤمنين الطائعين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: "ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم"^(٤)، وعن أبي سعيد رضي الله عنه: "ثم يضرب الجسر على جهنم"^(٥)، وعن رضي الله عنه أيضاً: "بلغني أنه أدق من الشعر وأحد من السيف"^(٦) ومثله لا يقال من قبل الرأي فله حكم المرفوع^(٧).

وجاء وصف الصراط وأحوال الناس عليه في حديث الشفاعة، قال حضرة النبي ﷺ: (يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم، قلنا: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: مدحضة مزلة عليه خطاطيف وكلايب وحسكة مقلطحة

(١) سورة الأعراف: الآية ٨-٩.

(٢) إحياء علوم الدين: ج ١ ص ١٣٦، والمسامرة بشرح المسامرة: ص ٢٨٩.

(٣) ينظر كتابنا الحوض والصراط والميزان فيما يتعلق بأدلة ثبوت الميزان وأحوال الناس عنده.

(٤) صحيح مسلم: برقم (١٨٣).

(٥) صحيح البخاري: برقم (٧٤٣٩)، وصحيح مسلم: برقم (١٨٣).

(٦) صحيح مسلم: برقم (١٨١).

(٧) صحيح البخاري: برقم (٧٤٣٤)، وصحيح مسلم: برقم (١٨٢).

لها شوك عقيفاء تكون بنجد يقال لها السعدان يمر المؤمن عليها كالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم وناج مخدوش ومكدوس في نار جهنم حتى يمر آخرهم يسحب سحباً^(١).

والجسر يرده كل الخلائق وهو قريب في اللغة فالصراط من الاستراط وهو الطريق الذي يستترط المارة فيه، قال تعالى: {وإن منكم إلا واردها}^(٢)، وقد فسر بعض المفسرين الورود بالدخول، لقول جابر رضي الله عنه لما سئل عن الورود: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الورود الدخول، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون جهنم على المؤمنين برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم عليه السلام، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها)^(٣)".

وقد وردت به كثير من الأخبار، قال تعالى: {يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم}^(٤)، وقوله تعالى خطاباً للملائكة: {احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم}^(٥). وهو ممكن من جهة العقل، لأن القادر على أن يسيّر الطير في الهواء، قادر على يسيّر الإنسان على الصراط، بل هو سبحانه قادر على أن يخلق للإنسان قدرة المشي في الهواء، ولا يخلق في ذاته هويّاً إلى أسفل، ولا في الهواء انخفاقاً، وليس المشي على الصراط بأعجب من هذا^(٦).

(١) صحيح البخاري: برقم (٥٤٣٥) وصحيح مسلم: برقم (١٨٣).

(٢) سورة مريم: الآية ٧١.

(٣) مسند الإمام أحمد: برقم (١٤٥٢٧) ومصنف ابن أبي شيبة: ج ١٣ ص ١٦٩، ومسند عبد بن حميد: برقم (١٢٠٦)، ومسند أبي يعلى: برقم (١٤٩٠)، والمستدرک: ج ٤ ص ٥٨٧.

(٤) سورة الحديد: الآية ١٢.

(٥) سورة الصافات: الآيات ٢٢-٢٣.

(٦) إتحاف السادة المتقين: ج ٢ ص ٢٢٠.

وقد مر في الحديث الشريف أحوال الناس عند المرور فمنهم من يجتاز الصراط بسرعة لمح البصر، ومنهم بسرعة البرق أو الريح اللهم اجعلنا منهم ومعهم إنك سميع مجيب ومنهم من تخطفه الكلايب فتتهوي به إلى قعر جهنم والعياذ بالله وذلك كل حسب أعمالهم.

١٤ - الشفاعة:

قد أثبت الله جل جلاله وعم نواله الشفاعة في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، بقيود ثقيلة وأخبرنا تعالى أنها ملك له ليس لأحد فيها شيء، فقال عز من قائل: {قل لله الشفاعة جميعاً} ^(١)، ولا تكون الشفاعة إلا بإذنه تعالى، قال سبحانه: {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} ^(٢)، وقوله عز شأنه: {ما من شفيع إلا من بعد إذنه} ^(٣)، وأنه تعالى لا يأذن بالشفاعة إلا لأوليائه المرتضين الأخيار كما قال سبحانه: {لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً} ^(٤)، وأنه سبحانه لا يأذن أن يشفع إلا لمن ارتضى كما قال سبحانه: {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} ^(٥)، وقوله جل جلاله: {يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً} ^(٦)، وهو سبحانه لا يرتضي إلا أهل الإيمان الصادق والإخلاص، وأما غيرهم فقال تعالى: {ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع} ^(٧). وغيرها من الآيات.

وقد أخبرنا حضرة النبي الأكرم ﷺ أنه أوتي الشفاعة ثم أخبر أنه يأتي فيسجد تحت العرش ويحمد ربه بمحامد يعلمه إياها لا يبدأ بالشفاعة أولاً حتى يقال له: "ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واشفع تشفع" ^(٨).

(١) سورة الزمر: الآية ٤٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٣) سورة يونس: الآية ٣.

(٤) سورة النبأ: الآية ٣٨.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٢٨.

(٦) سورة طه: الآية ١٠٩.

(٧) سورة غافر: الآية ١٨.

(٨) صحيح البخاري: برقم: (٤٧١٢)، وصحيح مسلم: برقم (١٩٤).

ثم أخبر المصطفى ﷺ أنه شفاعته في العصاة من أمته تكون على دفعات بقوله: (فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة)^(١). ثم يرجع فيسجد كذلك فيحد له حداً إلى آخر حديث الشفاعة.

وسأل أبو هريرة ؓ حضرة النبي ﷺ: [من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: (من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه)]^(٢).

والشفاعة أنواع أعظمها الشفاعة العظمى في موقف القيامة في أن يأتي الله تعالى لفصل القضاء بين عباده وهي خاصة بنبينا محمد ﷺ لإراحة الخلق من هول الموقف ومشقته، وهذه هي المقام المحمود الذي وعد به حضرة النبي ﷺ في قوله تعالى: {ومن الليل فتهدج به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً}^(٣).

وذلك أن الناس إذا ضاق بهم الموقف وطال المقام واشتد القلق وألجهم العرق التمسوا الشفاعة في أن يفصل الله بينهم فيأتون آدم، ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى ابن مريم، وكلهم يقولون نفسي نفسي إلى أن ينتهوا إلى نبينا محمد ﷺ فيقول: (أنا لها)^(٤).

والثانية: الشفاعة في استفتاح باب الجنة وأول من يستفتح بابها نبينا محمد ﷺ^(٥)، وأول من يدخلها من الأمم أمته^(٦).

والثالثة: الشفاعة في أقوام قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها ويشاركه ﷺ فيها الأنبياء وصالحو المؤمنين.

(١) صحيح البخاري: برقم (٦٥٦٥)، وصحيح مسلم: برقم (١٩٣).

(٢) صحيح البخاري: برقم (٩٩).

(٣) سورة الإسراء: الآية ٧٩.

(٤) صحيح مسلم: برقم (١٩٣).

(٥) أخرج مسلم من حديث أنس ؓ أن النبي ﷺ قال: (أنا أول شفيع في الجنة).

(٦) متفق عليه لحديث أبي هريرة مرفوعاً: (... ونحن أول من يدخل الجنة..) الحديث واللفظ

لمسلم.

والرابعة: الشفاعة في رفع درجات أقوام من أهل الجنة، وجوز الإمام النووي اختصاصها به.

والخامسة: في من يدخل النار من أهل الإيمان أن يخرجوا منها فيخرجون قد امتحشوا وصاروا فحماً فيطرحون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل^(١). وهذه ليست خاصة بنبينا ﷺ ولكنه المقدم فيها ثم بعده الأنبياء والملائكة والأولياء يشفعون ثم يخرج الله تعالى برحمته من النار أقواماً بدون شفاعة لا يحصيهم إلا الله فيدخلهم الجنة.

والسادسة: الشفاعة في تخفيف عذاب بعض الكفار وهذه خاصة لنبينا ﷺ في عمه أبي طالب، لحديث العباس بن عبدالمطلب ﷺ أنه قال: يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: (نعم، هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار)^(٢). ومن حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (ولا تزال جهنم تقول: هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فنقول: قط قط وعزتكم وينزوي بعضها إلى بعض، ولا يزال في الجنة فضل ينشئ الله خلقاً فسكن فضول الجنة)^(٣). وفي ذلك من النصوص ما لا يحصى فمن شاءها وجدها في الكتاب والسنة.

والسابعة: شفاعته ﷺ في إدخال قوم الجنة بغير حساب، قال النووي: وهي مختصة به ﷺ.

١٥ - الحساب والقصاص:

قال تعالى: {إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً}^(٤)، وقال سبحانه: {اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد ﷺ.

(٢) صحيح البخاري: برقم (٣٨٨٣)، وصحيح مسلم: برقم (٢٠٩).

(٣) صحيح البخاري: برقم (٤٨٥٠)، وصحيح مسلم: برقم (٢٨٤٦).

(٤) سورة النساء: الآية ٤٠.

اليوم} (١)، وقال جل جلاله: {وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون} (٢).

وقال الحبيب الأكرم ﷺ: (أول ما يقضى بين الناس في الدماء) (٣)، وقال ﷺ: (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منه اليوم فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرح عليه) (٤).

وقال حضرة النبي ﷺ: (لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم) (٥). وقال ﷺ: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء) (٦).

١٦- القنطرة:

قال المصطفى ﷺ: (يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة) (٧). وهذه القنطرة إنما وضعت للتصافي بين المؤمنين قبل دخول الجنة.

١٧- الجنة:

هي دار الثواب ، قال تعالى: {تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا} (٨)، أعدّها الله تعالى للمؤمنين من عباده خالدين فيها أبداً بمحض فضله،

(١) سورة غافر: الآية ١٧.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٩.

(٣) صحيح البخاري: برقم (٦٥٣٣)، ومسلم: برقم (١٦٧٨).

(٤) صحيح البخاري: برقم (٢٤٤٩).

(٥) رواه الترمذي في سننه.

(٦) رواه الترمذي في سننه.

(٧) صحيح البخاري: برقم (٢٤٤٠).

(٨) سورة مريم: الآية ٦٣.

فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال تعالى: {لا يمسمهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين} (١).

١٨- النار:

هي دار العقاب، قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا} (٢)، أعدّها الله للكافرين خالدين فيها أبداً، قال تعالى: {خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون} (٣).

وأوجب الله تعالى على عباده الإيمان بالجنة والنار فقال عز من قائل: {فاتقوا النار التي وقوها الناس والحجارة أعدت للكافرين، وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار} (٤)، وغيرها ما لا يحصى من الآيات الكريمة.

وكان من دعاء حضرة النبي ﷺ في صلاة الليل أنه يقول: (ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق) (٥). وغيره من الأحاديث الصحيحة (٦).

ومعنى الإيمان بالجنة والنار التصديق الجازم بوجودهما وأنهما مخلوقتان الآن، وأنهما باقيتان بإبقاء الله لهما لا تفنيان أبداً، ويدخل في ذلك كل ما احتوت عليه هذه من النعم وتلك من العذاب.

(١) سورة الحجر: الآية ٤٨.

(٢) سورة التحريم: الآية ٦.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٦٢.

(٤) سورة البقرة: الآيتان ٢٤-٢٥.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) صحيح البخاري: برقم (٣٤٣٥)، وصحيح مسلم: برقم (٢٨).

والأدلة على وجودهما الآن متواترة من كتاب الله تعالى وسنة المصطفى ﷺ نذكر بعضها: قال تعالى في حق الجنة: {أعدت للمتقين} ^(١)، وقال سبحانه في حق النار: {أعدت للكافرين} ^(٢)، وما جاء أنه تعالى أسكن آدم وزوجته الجنة قبل أكلهما من الشجرة، وأن الكفار يعرضون على النار في قبورهم غدواً وعشيا.

أما ما ورد في السنة المطهرة فإنه لا يحصى نذكر منها قول المصطفى ﷺ: (أُطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، وأُطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء) ^(٣). وقوله ﷺ في شأن عذاب القبر: (إذا مات أحدكم يعرض عليه مقعده) ^(٤)، وقوله ﷺ: (أبردوا بالصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم) ^(٥).

(١) سورة آل عمران: الآية ١٣٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣١.

(٣) صحيح البخاري: برقم (٣٢٤١)، وصحيح مسلم بمعناه (٢٧٣٨) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) صحيح البخاري: برقم (٥٣٦)، وصحيح مسلم: برقم (٦١٥).

المبحث الأول: فضله ورسالته

خاتمة في ذكر رسالي الواجب مما على مكلف من واجب
 نبينا محمد قد أرسلنا المصالحين وحسنه وأفضل

الفصل الثالث

المفردات

العالمين: أي جميع العالم، وهو اسم لأمر من الله تعالى من التوحيد
نبينا محمد صلى الله عليه وسلم
 يشمل المصطفى والأمر والعقل والصفات

الشرح

أي هذه خاتمة تسأل الله تعالى حسنها، فالخاتمة ما تذكر إلا لإصلاحها
 يتعلق بالمقصود ويسمى تعلق بالماضي من زيادة في التوضيح بخلاف
 المقدمة فإنها تتعلق بالماضي من حيث الإعادة في المشروع وأما
 التفسير فإنه يذكر لإعادة المقصود وقوله نما على مكلف من التعليل لقوله
 (في ذكر) كقوله تعالى: (ما خطبتناهم أحقرًا). وقوله (من واجب) من
 رتبة وواجب غير مستأد مأخوذ من قوله (ما على مكلف) هو واجب على مكلف.
 وعلى الميت: إن ما يذكر بعد هذا البيت من قوله محمد وآله إلخ منهم
 وتابع لما سبق من الواجبات من حيث هي، أي هذه خاتمة في ذكر بقية ما
 يجب اعتقاده على كل مكلف وهي:

المبحث الأول: فضله ورسالته

خَاتِمَةٌ فِي ذِكْرِ بَاقِي الْوَاجِبِ مِمَّا عَلَى مَكْلَفٍ مِنْ وَاجِبٍ

نَبِيِّنَا مُحَمَّدٌ قَدْ أُرْسِلَا لِلْعَالَمِينَ رَحْمَةً وَفُضِّلَا

المفردات:

العالمين: اسم جمع لعالم، وهو اسم لما سوى الله تعالى من الموجودات فيشمل الملائكة، والإنس، والجن، والجمادات^(١).

الشرح:

أي هذه خاتمة نسأل الله تعالى حسنها، فالخاتمة ما تذكر إلا لإفادة ما يتعلق بالمقصود ويسمى تعلق اللاحق بالسابق من زيادة في التوضيح بخلاف المقدمة فإنها لتعلق السابق باللاحق من حيث الإعانة في المشروع وأما التقسيم فإنه يذكر لإفادة المقصود وقوله مما على مكلف: من للتعليل لقوله (في ذكر) كقوله تعالى: (مما خطيئاتهم أغرقوا). وقوله (من واجب) من زائدة وواجب خبر لمبتدأ محذوف تقديره لأجل الذي هو واجب على مكلف.

ومعنى البيت: إن ما يذكر بعد هذا البيت من قوله محمد ﷺ.. إلخ متمم وتابع لما سبق من الواجبات من حيث هي، أي هذه خاتمة في ذكر بقية ما يجب اعتقاده على كل مكلف. وهي:-

أن الله تعالى أرسل نبينا محمد ﷺ رحمةً للعالمين ومنةً للمؤمنين، قال تعالى: {وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين} (١). وقول حضرة النبي ﷺ: (إنما أنا رحمةٌ مهداة) (٢)، وقال الحق تبارك وتعالى: {لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويُعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين} (٣). وإنما خصَّ الله تعالى المنَّةَ للمؤمنين، لأنهم هم الذين يعرفون حقيقة نعمة الرسالة المحمدية.

وآخر الأنبياء هو حضرة المصطفى سيدنا محمد ﷺ، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين بدليل: قوله تعالى: {ما كان محمدٌ أباً أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين} (٤). وقول الرسول الأكرم ﷺ: (متلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بنيانياً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين) (٥).

أما ما صح من الأحاديث التي تذكر أن السيد المسيح عليه السلام ينزل قبيل قيام الساعة، فالثابت أنه لا ينزل بوحى جديد، وإنما ينزل فيحكم بشريعة نبينا محمد ﷺ، فهو مقرر ومؤكد لها (٦).

ولذا حين ينزل السيد المسيح آخر الزمان يكسر الصليبان ويقتل الخنزير ولا يقبل الجزية (٧).

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

(٢) رواه ابن سعد في طبقاته والحاكم في المستدرک عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

(٥) صحيح البخاري: ج ٤ ص ٢٢٥، وصحيح مسلم: ج ٤ ص ١٧٩١.

(٦) شرح العقائد النسفية للفتازاني: ص ١٣٥، والباجوري على الجوهرة: ج ٢ ص ٣٧، ولوامع

الأنوار البهية: ج ٢ ص ٢٧٧.

(٧) لوامع الأنوار: ج ٢ ص ٢٧٨.

وبهذا كانت شريعة المصطفى سيدنا محمد ﷺ خاتمة الشرائع السماوية وناسخة لها، وهو مصداق قوله تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) ^(١)، وقوله سبحانه: (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ^(٢)، وقوله عز وجل: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) ^(٣).

وسبب ختم شريعة الإسلام الرسالات السابقة ما يأتي:-

١. شريعة المصطفى ﷺ بيّنة واضحة، ينظر إليها المتزود الطالب العلم في أي وقت وفي أي مكان، فينهل منها ما يسد حاجته.

٢. لا حاجة إلى شريعة تضيف إلى الإسلام، أو تنقص منه، لأنه لا قصور فيه عن حل أية مشكلة تواجهه. وأوضح دليل عليه هو أنها أعطت حكمها في كل المشاكل الكثيرة، التي لا حصر لها، والتي حدثت للمسلمين في جوانب الحياة كافة، من لدن عصر حضرة النبي ﷺ إلى يومنا هذا، بل الحاجة قائمة إلى من ينشر شريعتنا الإسلامية بالوسطية والاعتدال، ليتزود العالم بالعلاج الناجح الذي يستأصل شأفة أمراض الأمم جميعاً.

٣. نبوة حضرة النبي ﷺ عامة إلى جميع أهل الأرض، فلم تختص بها أمة أو بلدة أو زمن ^(٤).

وجاءت النصوص المتواترة من كتاب الله تعالى وسنة المصطفى ﷺ لتؤكد عموم رسالته ﷺ وأفضليته على الخلق أجمعين، قال تعالى: ﴿وَمَا

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

(٣) سورة المائدة: الآية ٣.

(٤) مبادئ الإسلام للشيخ المودودي رحمه الله: ص ٦٠، وأصول الدين الإسلامي: ص ٣٧٩.

أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً^(١)، وقوله تعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً^(٢)، وكذلك قتاله ص لأهل الكتاب، وضرب الجزية عليهم وفتوحات الخلفاء الراشدين لنشر الإسلام محل الأديان الأخرى. بينما كان الأنبياء السابقون مرسلين إلى أقوامهم خاصة قال تعالى: {لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه^(٣). وقال سبحانه: {إلى مدين أخاهم شعيباً^(٤)، وقال تعالى: {ولوطاً إذ قال لقومه^(٥).

وبناءً على ذلك: فمن اتبع حضرة النبي محمد ﷺ فقد اتبع الأنبياء جميعاً، ومن أنكر نبوته فقد أنكر نبوة الأنبياء جميعاً، وما ذلك الإنكار إلا مكابرة وعناداً وهدرًا لقيمة العقل، لذلك يستحق صاحبه العقاب الشديد يوم القيامة.

أما بشأن أفضليته ﷺ فإن الأنبياء جميعاً يشتركون في وصف النبوة كما بينا ذلك عند الحديث عن الملائكة في الفصل السابق^(٦)، فالأنبياء على حد واحد في النبوة، لأنها في نفسها لا تتفاضل، إلا أن سيدنا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين أرفعهم منزلة، وأعلاهم مقاماً، فتفضيله ﷺ على غيره من الأنبياء يعود إلى زيادة الأحوال والكرامات والرتب، كما بينا سابقاً.

وقد أجمعت الأمة الإسلامية على أنه ﷺ أفضل الخلائق بالإطلاق ويدل عليه وجوه كثيرة ذكرناها سابقاً ونزيد عليها قوله ﷺ: (أعطيت خمساً لم يُعطهن أحدٌ قبلي، كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعِثْتُ إلى كل أحرر وأسود، وأجِلْتُ لي الغنائم، ولم تحل لأحدٍ قبلي، وجُعِلَتْ لي الأرض طهوراً

(١) سورة سبأ: الآية ٢٨ .

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٨ .

(٣) سورة الأعراف: الآية ٥٩ .

(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٨ .

(٥) سورة الأعراف: الآية ٨٠ .

(٦) ينظر المبحث الثاني من الفصل الثاني حيث ذكرنا الأدلة مفصلة حول أفضلية الحبيب الأكرم ﷺ.

ومسجداً، فأئماً رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة^(١).

ولما كان حضرة النبي ﷺ رحمةً للعالمين، لزم أن يكون أفضل من كل العالمين، وقرن الله تعالى طاعته بطاعته فقال عز من قائل: {من يطع الرسول فقد أطاع الله}^(٢). وقرن الحق سبحانه رضاه برضائه ﷺ فقال سبحانه: {والله ورسوله أحق أن يرضوه}^(٣). وقرن تعالى إجابته بإجابته ﷺ فقال عز شأنه: {يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول}^(٤)، ولما كان دينه أفضل الأديان لزم أن يكون ص أفضل الأنبياء والناس أجمعين.

وقوله ﷺ: {أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر}^(٥). أي: لا أقول ذلك فخراً بنفسي، بل تحدثاً بنعمة ربي^(٦). إشارة إلى قوله تعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}^(٧).

ولا يعارض هذا الحديث قوله ﷺ: {لا تخيروا بين الأنبياء}^(٨)، وقوله ﷺ: {لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن مئى}^(٩). فإن هذه الأحاديث محمولة على أن حضرة النبي ﷺ قالها على سبيل التواضع ونفي العجب، أو أن المقصود منها ألا يفضل بينهم تفضيلاً يؤدي إلى تنقيص بعضهم أو الغضب منهم في أصل النبوة والرسالة، ولئلا يعتقد الناس تنقيص يونس عليه السلام، أو أن النبي ﷺ قال ذلك قبل أن يعرف من هو أفضل^(١٠).

(١) صحيح البخاري ومسلم: ج ١ ص ١١٩، وصحيح مسلم واللفظ له: ج ١ ص ٣٧٠.

(٢) سورة النساء: الآية ٨٠.

(٣) سورة التوبة: الآية ٦٢.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٨٠.

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجه / الجامع الصغير: ج ١ ص ١٠٧.

(٦) نيل المرام: ص ١٣.

(٧) سورة الضحى. الآية ١١.

(٨) صحيح البخاري: ج ٣ ص ١٥٩.

(٩) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان: ص ٦٢٧.

(١٠) تفسير الرازي: ج ٦ ص ١٩٤، والشفاء: ج ١ ص ٢٢٥، وشرح النسفية: ص ١٣٧.

واجبنا نحو حضرة الرسول المصطفى ﷺ:

بعد أن أنعم الله تعالى على عبده المسلم بأن آمن بالله ونبهه الأعظم ﷺ وجب عليه أن يعرف واجبه نحوه ﷺ وهو:

١. محبته أكبر من النفس والولد، والمال والنفس، قال ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين) وهذه المحبة لا تتجلى إلا في طاعته طاعة كاملة في كل ما يقول.

٢. تبجيله واحترامه حياً وميتاً، ففي حياته لا يجوز سبقه بالحديث، لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله} (١). ولا يجوز رفع الصوت أمامه لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون} (٢). ويبقى هذا الاحترام حتى بعد مماته، فلا يرفع الصوت عند قبره الشريف أو في مسجده المبارك ص، كما يجب التأدب عند سماع حديثه والرضى بما قال، وعدم الخروج عليه.

٣. عدم إيذائه بأي نوع من أنواع الأذى في ذاته أو في آل بيته أو في أصحابه أو في سنته قال تعالى: {والذين يؤذون رسول الله لهم عذابٌ أليم} (٣).

والإيذاء شامل: للسب أو الطعن به، أو بشرعه أو بزواجه الطاهرات، قال تعالى: {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم} (٤)، أو الطعن بآل بيته والتفقيص من قدرهم ومنزلتهم أو النيل من أصحابه الكرام البررة بسبهم أو شتمهم أو الكذب عليهم.

(١) سورة الحجرات: الآية ١.

(٢) سورة الحجرات: الآية ٢.

(٣) سورة التوبة: الآية ٦١.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٦.

٤. الصلاة والسلام عليه: قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} (١).

٥. وجوب التأسّي برسول الله ﷺ، قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (٣). والتأسّي هو الاقتداء به في كل أقواله وأفعاله ما لم يكن خاصاً بحضرته ﷺ.

وبعد أن بيّن الناظم رحمه الله إرساله ﷺ وأفضليته، وذكر ما يتعلق بنسبه ﷺ من جهة أبيه وأمه فقال:

أَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ عَبْدُ الْمُطَّلَبِ وَهَاشِمٌ عَبْدٌ مَنَافٍ يَنْتَسِبُ
وَأُمُّهُ أَمْنَةُ الزُّهْرِيَّةُ رَضَعَتْهُ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةِ

الشرح:

يجب على كل مكلف أن يعرف نسبه ﷺ من جهة أبيه ومن جهة أمه.

أما نسب حضرة النبي ص من جهة أبيه فتلاثة أجزاء:

جزء اتفق على صحته أهل السير والأنساب وهو إلى عدنان، وجزء اختلفوا فيه ما بين متوقف وقائل به، وهو ما فوق عدنان إلى إبراهيم عليه السلام، وجزء لا نشك أن فيه أموراً غير صحيحة، وهو ما فوق إبراهيم إلى آدم عليهما السلام، والذي نعتمده بإذن الله تعالى الجزء الأول:

فهو سيدنا محمد (٣) رسول الله ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب - واسمه

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٦.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

(٣) سيدنا محمد ﷺ: اسم مفعول على الصفة، للفتاوى بأن يكثر حمده، قال في الفتح: المحمّد الذي حُمد مرة بعد أخرى، أو الذي تكاملت فيه الخصال المحمودة. ينظر منتهى المؤل: ج ١ ص ١٢٧.

شبيه الحمد^(١) - بن هاشم - واسمه عمرو^(٢) - بن عبد مناف^(٣) - واسمه المغيرة - بن قصي^(٤) - واسمه زيد - بن كلاب^(٥) بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر^(٦) - وهو الملقب بقريش وإليه تنتسب القبيلة - بن مالك بن النضر^(٧) - واسمه قيس - بن كنانة بن خزيمة بن مدركة^(٨) - واسمه عامر - بن إلياس بن مضر بن نزار^(٩) بن معد بن عدنان^(١٠).

وهكذا تواصل نسبه الشريف إلى عدنان بالاتفاق، وإلى هنا إجماع الأمة. ومن بعد عدنان إلى إبراهيم فمختلف في وصله وإن حقق زين الدين العراقي

(١) واسمه شبيه الحمد، لشبيهة في رأسه، وكنيته أبو الحارث، واسمه عبد المطلب، لأن عمه المطلب جاء به من المدينة بعد وفاة أخيه هاشم في غزة، وجاء به إلى مكة رديفه على ناقته وهو بهيئة رثة فقال عنه الناس: إنه عبد المطلب، ينظر ابن هشام: ج ١ ص ١٣٧.

(٢) سُمي هاشمًا لأنه كان يهشم الخبز وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة وهو أول من سنَّ الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء والصيف، ينظر ابن هشام: ج ١ ص ١٣٧ ورحمة للعالمين: ج ١ ص ٢٦، وج ٢ ص ٢٤.

(٣) بن عبد مناف واسمه المغيرة، لقب بذلك لأن أمه حَبَى أخدمته صنماً عظيماً لهم يسمى مناة، ثم نظر أبوه فرأه يوافق عبد مناة بن كنانة، فحوله (عبد مناف) ينظر وسائل الوصول إلى شمائل الرسول: ص ٤٧.

(٤) واسمه مُجَمَّع، ولقب بذلك لأنه بَعْدَ عن عشيرته في بلاد قضاة حيث احتملته أمه فاطمة بنت سعد العذري بعد أن مات أبوه، فلما شبَّ قصي رجع إلى مكة وصارت له السيادة والأمر النافذ فيها، ينظر ابن هشام: ج ١ ص ١١٧ وقلب جزيرة العرب: ص ٢٣٢.

(٥) واسمه حكيم، ولقب بكلاب لمحبته كلاب الصيد، فكان يجمعها، ينظر وسائل الوصول: ص ٤٧.

(٦) واسمه قريش، وإليه تنتسب قبائل قريش، وفهر معناه الحجر الطويل الأملس، أو حجر مليء الكف، ينظر منتهى السؤل: ج ١ ص ١٣١.

(٧) واسمه قيس ولقب بالنضر، لنضارة وجهه وإشراقه وجماله منقول من النضر اسم الذهب الأحمر، ينظر وسائل الوصول: ص ٤٧.

(٨) واسمه عمرو ولقب بمدركة لإدراكه كل عز وفخر كان في آبائه وكان فيه نور المصطفى ﷺ، ينظر منتهى السؤل: ج ١ ص ١٣٢.

(٩) واسمه خلدان، ولقب نزار لأنه لما ولد ونظر أبوه إلى نور محمد ص بين عينيه، فرح فرحاً شديداً ونحر وأطعم وقال: إن هذا كله نزر أي قليل، لحق هذا المولود فسمي نزاراً، وكان أجمل أهل زمانه وأكبرهم عقلاً، وكان مقدماً وإنبسطت إليه يد الملوك، ينظر وسائل الوصول: ص ٤٨.

(١٠) ابن هشام: ج ١ ص ١، تلخيص فهوم أهل الأثر: ص ٥ - ٦، ورحمة للعالمين: ج ٢ ص ١١ - ٥٢.

في ألفتِه الوصل وهو حُجَّة^(١). وما بعده إلى آدم لا يصح فيه شيء يعتمد^(٢).

وقد كان رسول الله ﷺ إذا انتسب.. لم يُجاوز في نسبته معد بن عدنان بن أدد، ثم يُمسك ويقول: (كذب النسابون)^(٣) قال تعالى: (وقرئنا بين ذلك كثيراً)^(٤). وكره الإمام مالك رفع النسب إلى آدم لعدم ثبوته.

وهذا النسب أشرف الأنساب على الإطلاق، فعن العباس ؓ أن النبي ﷺ قال: (إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً)^(٥).

وعند وائلة بن الأسقع ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)^(٦).

ومما شهدت به الأدلة فهو ﷺ خير أهل الأرض نسباً على الإطلاق، فلنسبه من الشرف أعلى ذروة، وأعداؤه كانوا يشهدون له بذلك، ولهذا شهد له به أبو سفيان عدوه آنذاك بين يدي ملك الروم، فأشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيلته، وأشرف الأفخاذ فخذه، فهو ﷺ النبي العربي،

(١) نيل المرام: ص ١٣.

(٢) منتهى السؤل: ج ١ ص ١٣٤، قال العسقلاني في السيرة: اختلف فيما بين عدنان وإسماعيل اختلافاً كثيراً، ومن إسماعيل إلى آدم متفق على أكثره، وفيه خلف يسير في عدد الآباء، وفيه خلف في ضبط بعض الأسماء.

(٣) رواه في مسند الفردوي عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً. منتهى السؤل: ج ١ ص ١٣٥.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٣٨.

(٥) رواه الترمذي، باب ما جاء في فضل النبي ﷺ: ج ٢ ص ٢٠١.

(٦) رواه مسلم عن وائلة، باب فضل نسب النبي ﷺ: ج ٢ ص ٢٤٥، والترمذي في سننه:

ج ٢ ص ٢٠١.

الأبطحي الحرمي، القرشي الهاشمي، نخبة بني هاشم، المختار المنتخب من خير بطون العرب، وأعرقها في النسب، وأشرفها في الحسب، وأنضرها عوداً، وأطولها عموداً، وأطيبها أرومة، وأغرها جرثومة، وأفصحها لساناً، وأكرمها معشراً، من قبل أبيه وأمه، ومن أكرم بلاد الله على الله وعباده.

وأما نسبه ﷺ من جهة أمه:

فهو سيدنا محمد ﷺ ابن آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. فتجتمع معه ص في جده كلاب^(١).

وثبت أن عبد المطلب جد حضرة النبي ﷺ اختار لولده عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة وهي يومئذ تعد أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً، وأبوها سيد بني زهرة نسباً وشرفاً، فبنى بها عبد الله في مكة، ثم سافر تاجراً إلى الشام، فنزل بالمدينة - يثرب يومئذ - وهو مريض فتوفي بها، ودفن في دار النابغة الجعدي، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ، وبه يقول أكثر المؤرخين، وقيل: بل توفي بشهرين. ولما بلغ نعيه إلى مكة رثته السيدة آمنة بأروع المراثي قالت:

[عفا جانب البطحاء من ابن هاشم وجاور لحداً خارجاً في الغمام
دعته المنايا دعوةً فأجابها وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
فإن تك غالت المنايا وريبها فقد كان معطاءً كثير التراحم]^(٢)

(١) ابن هشام: ج ١ ص ١٥٦، وفقه السيرة لمحمد الغزالي: ص ٤٥ ورحمة للعالمين: ج ٢ ص ٩١، والرحيق المختوم: ص ٤٤.

(٢) ابن هشام: ج ١ ص ١٥٦. فقه السيرة لمحمد الغزالي: ص ٤٥، ورحمة للعالمين: ج ٢ ص ٩١.

وجميع ما خلفه عبد الله خمسة جمال، وقطعة غنم، وجارية حبشية اسمها بركة، وكنيتها أم أيمن وهي حاضنة رسول الله ﷺ (١).

وأول من أرضعته ﷺ أمه السيدة آمنة الزهرية ثم أرضعته ثويبة الأسلمية مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له مسروح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي (٢). وقد عدها ابن منده في الصحابة، وفي ذلك خلاف بين أهل العلم، وكانت ثويبة تدخل على رسول الله ﷺ بعدما تزوج خديجة فيكرمها ﷺ وتكرمها خديجة رضي الله عنها، وكان ﷺ يبعث إليها بعد الهجرة بالكسوة والصلة حتى ماتت.

وثويبة هي جارية أبي لهب فأعتقها لما بشرته بولادة المصطفى ﷺ فخفف الله عنه من العذاب بسبب فرحه وسروره بولادته ﷺ كما روى ذلك البخاري معلقاً، وأنه روي بعد وفاته فأخبر بأنه يخفف عنه في كل يوم الاثنين لعتقه ثويبة فرحاً بولادة رسول الله ﷺ (٣).

ويقول في ذلك الحافظ شمس الدين محمد بن ناصر الدين الدمشقي:

إذا كان هذا كافراً جاء نومه بتبت يداؤه في الجحيم مخلداً
أتى أنه في يوم الاثنين دائماً يخفف عنه للسرور بأحمداً
فما الظن بالعبد الذي طول عمره بأحمد مسروراً ومات موحداً (٤)

ثم أرضعته حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية من بني سعد بن بكر في

(١) طبقات ابن سعد: ج ١ ص ٦٢.

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر: ص ٤، والرحيق المختوم: ص ٤٥.

(٣) رواه البخاري في الصحيح في كتاب النكاح معلقاً، ونقله الحافظ ابن حجر في فتح الباري، ورواه عبد الرزاق الصنعاني في المصنف: ج ٧ ص ٤٧٨، والحافظ البيهقي في الدلائل، وابن كثير في السيرة النبوية من البداية: ج ١ ص ٢٢٤، وابن الديبع الشيباني في حقائق الأنوار: ج ١ ص ١٣٤، والحافظ البغوي في شرح السنة: ج ٩ ص ٧٦ وغيرها.

(٤) مورد الصادي في مولد الهادي: ص ١٠.

البادية بلبن ابنها عبدالله أخي أنيسة والشيما على وجه الاستمرار، واسم زوجها أبو كبشة، وهو الذي كان المشركون من قريش ينسبون له رسول الله ﷺ حينما يريدون الاستهزاء، فيقولون: هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء.

فأخذته حليلة إلى بلادها وراء الطائف في بني سعد وأقام عندها في قبيلتها أربعة أعوام على الصحيح فنالت برضا عته خيراً ونوراً من سعة الرزق ورغد العيش، ودرت البركات على أهل ذلك البيت الذين أرضعوه وحضنوه ﷺ عندهم، وكانت أخته الشيما وهي بنت حليلة السعدية تحضنه مع أمها، وقد ردت حليلة خوفاً عليه بُعيد حادثة شق الصدر وهو ابن أربع أو خمس سنين^(١).

ثم لم تره بعد ذلك إلا مرتين إحداها بعد تزوجه خديجة جاءت تشكو إليه جذب فأعطتها السيدة خديجة عشرين رأساً من غنم وغير ذلك من المؤن والملابس، والمرة الثانية يوم معركة حنين^(٢).

(١) زاد المعاد: ج ١ ص ١٩، ابن هشام: ج ١ ص ١٦٢، وصحيح مسلم: ج ١ ص ٩٢.

(٢) تاريخ الحوادث والأحوال النبوية: ص ٩.

المبحث الثاني: ولادته ووفاته

قال الناظم رحمه الله:

مَوْلَدُهُ بِمَكَّةَ الْأَمِينَةِ وَفَاتُهُ بِطَبَّيَّةَ الْمَدِينَةِ

الشرح:

يجب علينا أن نعتقد أن سيدنا محمد ﷺ ولد بمكة وأنه أرسل فيها وقوله الأمين صفة لمكة ووصفت بالأمن لأمن الناس فيها جاهلية وإسلاما، قال تعالى: {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} ^(١) وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا} ^(٢)، ومعنى الأمن أن لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيده ولا يقطع شجره وحشيشه الرطب إلا للدواء.

وقد ولد سيد الكائنات والمرسلين محمد ص بشعب بني هاشم في صبيحة يوم الاثنين في شهر ربيع الأول من عام الفيل، قيل ثانيه، وقيل ثامنه، وقيل تاسعه ^(٣). وقيل ثاني عشره، وهذا هو المشهور عند الجمهور، لأول عام من حادثة الفيل أي العام الذي حاول فيه أبرهه الأشرم الحبشي غزو مكة وهدم الكعبة، فردّه الله عن ذلك بالآية الباهرة، وقد ذكرت هذه الحادثة في سورة الفيل من كتاب الله المجيد ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان،

(١) آل عمران: الآية ٩٧.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٧.

(٣) حسبما جزم بذلك الفلكي المشهور محمود باشا الفلكي في كتابه نتائج الإقحام: ص ٢٠ وكما حققه العالم الكبير محمد سليمان المنصور فوري، ينظر محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري بيك: ج ١ ص ٦٢.

ويوافق التاسع من شهر ربيع الأول العشرين أو الثاني وعشرين من شهر
إبريل - نيسان سنة ٣٥٧١ م.

ولم تجد أمه لحمله ثِقْلاً ولا وَحْماً، وذكر أنها وجدت ثِقْلاً في ابتداء
العلوق، وخفة عند استمرار الحمل ليكون خارجاً عن المعتاد. وولد ﷺ
مختوناً^(١) مسروراً مقبوضة أصابع يده مشيراً بالسبابة كالمسبح بها، وقيل:
إن جده خنته ﷺ وعق عنه يوم السابع^(٢)، واختلف في مدة الحمل به ص،
فقل تسعة أشهر وهو المشهور، وقيل سبعة وقيل ستة^(٣).

وليلة مولده ﷺ وقعت عجائب وغرائب وإرهاصات بالبعثة فمنها:
انتكاس كثير من الأصنام لوجوهها وسقوطها من أماكنها. ومنها ظهور النور
معه حتى أضاء له قصور الشام حين ولد، وروى ابن سعد أن والدة حضرة
النبي ﷺ قالت: لما ولدته خرج مني نور أضاءت له قصور الشام، وروى
الإمام أحمد عن العرباض بن سارية ما يقارب ذلك^(٤).

ومن الإرهاصات اضطراب إيوان كسرى وسقطت أربع عشرة شرفة
من قصره، وخمدت النار التي يعبدها المجوس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام،
وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت^(٥).

ولما ولدته أمه آمنة الزهرية أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بخفيده،
فجاء مستبشراً ودخل بحضرة ﷺ الكعبة، ودعا الله تعالى وشكر له، واختار
له اسم محمد، ولم يكن هذا الاسم معروفاً في العرب^(٦).

(١) ينظر تلقيح فهوم أهل الأثر: ص ٤، وقال ابن القيم: ليس فيه حديث ثابت، ينظر زاد المعاد:
ج ١ ص ١٨، وفي الشفا للقاضي عياض رحمه الله: ولد رسول الله ﷺ مختوناً مقطوع السرة.
وقد روي عن أمه آمنة أنها قالت: ولدته نظيفاً مابيه قدر. ينظر وسائل الوصول: ص ٢٧٧.

(٢) تاريخ الحوادث: ص ٨.

(٣) تاريخ الحوادث: ص ٨.

(٤) طبقات ابن أسعد: ج ١ ص ٦٣، وينظر مختصر سيرة الرسول: ص ١٢.

(٥) مختصرة سيرة الرسول للشيخ النجدي: ص ١٢، وتاريخ الحوادث: ص ٨.

(٦) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ١٥٩، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية: ج ١ ص ٦٢.

ويوم الاثنين يوم مبارك، فقد جاء عند الإمام أحمد رحمه الله أنه قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولد النبي صلى الله عليه وآله يوم الاثنين واستتبئ يوم الاثنين والإسراء يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة المنورة يوم الاثنين، وقدم المدينة المنورة يوم الاثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين^(١).

وكان حضرة النبي صلى الله عليه وآله يعظم يوم مولده، ويشكر الله تعالى فيه على نعمته الكبرى عليه، وتفضله عليه بالجوّد لهذا الجوّود، إذ سعد به كل موجود، وكان يُعبر صلى الله عليه وآله عن ذلك التعظيم بالصيام كما جاء في الحديث عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله سُئل عن صوم يوم الاثنين؟ فقال: (فيه ولدت، وفيه أنزل علي)^(٢). وهذا دليل على أن حضرة النبي صلى الله عليه وآله كان يلاحظ ارتباط الزمان بالحوادث الدينية العظمى التي مضت وانقضت، فإذا جاء الزمان الذي وقعت فيه كان فرصة لتذكرها، وتعظيم يومها لأجلها ولأنه ظرف لها، ومثاله صيام يوم عاشوراء شكراً لله على نعمة نجاته نبي الله موسى عليه السلام وغرق عدو الله فرعون وجنوده.

وقال السيد أمين كتبني رحمه الله:

لِإِذَا لَيْلَةُ الْاِثْنَيْنِ مَاذَا صَافَحْتَ يُمْنَاكَ مِنْ شَرَفٍ أَشْمُ وَمِنْ غَنَى

كُلَّ اللَّيَالِي الْبَيْضِ فِي الدُّنْيَا نَسَبَ إِلَيْكَ فَأَنْتَ مِفْتَاحُ الْبَسْمَا

فَالْقَدَرُ وَالْأَعْيَادُ وَالْمَعْرَاجُ حَسَنَاتِكَ اللَّاتِي بَهْرُنَ الْأَعْيَانِ^(٣)

ويجب أن يعتقد المكلف أن سيدنا محمداً توفي بالمدينة المنورة، وقوله طيبة: اسم من أسمائها ولها أسماء كثيرة أوصلت إلى ثمانين كما ذكر ذلك السمهودي رحمه الله في خلاصة الوفا، وهما مكة وطيبة ممنوعان من

(١) تاريخ الحوادث: ص ٨ .

(٢) صحيح مسلم: باب الصيام: ج ١ ص ٣٦٨، ومسنّد الإمام أحمد: ج ٥ ص ٢٩٧، وسنن البيهقي: ج ٤ ص ٢٨٦، ٣٠٠ .

(٣) المولد النبوي الشريف: ص ١١ .

الصرف للعلمية والتأنيث اللفظي، وكانت وفاته ﷺ في يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة، الموافق ٨ يونيو - حزيران - سنة ٦٣٣ ميلادية، ودفن ﷺ يوم الأربعاء في حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها^(١). ويوم الأربعاء قبل الوفاة بخمسة أيام دخل رسول الله ﷺ إلى المسجد النبوي وهو معصوب الرأس فأوصى أصحابه بقوله: (لا تتخذوا قبوري وثناً يُعبد)^(٢)، ثم أوصى بالأنصار خيراً وحث الناس على تقبل الخير من مُحسنهم وأن يتجاوزوا عن مُسيئهم^(٣)، ثم قال: (إن عبداً خيرهُ الله أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده) قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: فبكى أبو بكر، وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا فعجبنا له، فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا^(٤).

انتقل حضرة النبي الأكرم ﷺ إلى الرفيق الأعلى وقد بلغ ثلاثاً وستين، وقيل غير ذلك، يوم الاثنين حين اشتد الضحى لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، ومرض أربعة عشر يوماً، ولما حضره الموت بأبي هو وأمي كان عنده قدح فيه ماء فجعل يدخل يده فيه ويمسح وجهه ويقول: (اللهم أعني على سكرات الموت)^(٥).

ودهش أصحابه الكرام فأنكر عمر رضي الله عنه وفاته ﷺ وأخرس عثمان وأقعد علي رضي الله عنهما، ولم يكن فيهم أثبت من العباس وأبي بكر رضي الله عنهما^(٦). واختلفوا في غسله هل يكون في ثيابه أو يُجرد عنها؛ فوضع الله عليهم النوم، فقال قائل لا يدري من هو: اغسلوه في ثيابه، فانتبهوا وفعلوا ذلك، وتولى غسله العباس وعلي والفضل وقتم أبناء العباس وأسامة وشقران مولياه. وحضرهم أوس بن خولي من الأنصار، فكان العباس

(١) تاريخ الحوادث: ص ٥٢، ورحمة للعالمين: ج ١ ص ٢٨٢.

(٢) موطأ الإمام مالك: ص ٦٥.

(٣) صحيح البخاري: ج ١ ص ٥٣٦.

(٤) متفق عليه، مشكاة المصابيح: ج ٢ ص ٥٤٦.

(٥) صحيح البخاري: ج ٢ ص ٦٤٠.

(٦) ابن هشام: ج ٢ ص ٦٥٥، وصحيح البخاري: ج ٢ ص ٦٤٠ - ٦٤١.

والفضل وقثم يقلبونه، وأسامة وشقران يصبان الماء، وعلي يغسله، وأوس أسنده إلى صدره، ومسحه علي فلم يخرج منه شيء فقال: يا رسول الله، لقد طببت حياً وميتاً^(١).

وكفن في ثلاثة أثواب سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة بل لفائف من غير خياطة، وصلى عليه المسلمون أفراداً، ولم يؤمهم أحد، فدخل عليه الناس في الحجرة أرسالاً عشرة عشرة، يُصلون على رسول الله ﷺ ولا يؤمهم أحد، وصلى عليه أولاً أهل عشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، وصلت عليه النساء بعد الرجال، ثم صلى عليه الصبيان^(٢).

واختلفوا في موضع دفنه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: إنني سمعت رسول الله ص يقول: ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض. واختلفوا في كيفية دفنه لحداً أم شقاً، وكان بالمدينة حفاران: أحدهما يلحد وهو أبو طلحة، وآخر يشق وهو أبو عبيدة، فاتفقوا أن من جاء منهما أولاً عمل عمله، فجاء الذي يلحد، فرفع أبو طلحة فراشه الذي توفي عليه، فحفر تحته، وجعل القبر لحداً^(٣).

ومضى في ذلك يوم الثلاثاء كاملاً، حتى دخلت ليلة الأربعاء، قالت عائشة رضي الله عنها: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل من ليلة الأربعاء^(٤). وذلك في بيت السيدة عائشة، ودفن معه أبو بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما بعد موتها في نفس الحجرة، وكانت السيدة عائشة تزورهما وتضع على رأسها حجابها فقيل لها لماذا؟ قالت أما رسول الله ﷺ فزوجي وأبو بكر أبي وأما عمر فأجنبي^(٥).

(١) متفق عليه، صحيح البخاري: ج ١ ص ١٦٩، وصحيح مسلم: ج ١ ص ٣٠٦.

(٢) مختصر سيرة الرسول: ص ٤٧١، وابن هشام: ج ٢ ص ٦٤٩، وتلقيح فهم أهل الأثر: ص ٣٨، ورحمة للعالمين: ج ١ ص ٢٧٧.

(٣) صحيح البخاري: ج ٢ ص ٦٤١، وصحيح مسلم: ج ١ ص ٣٠٨.

(٤) ابن هشام: ج ٢ ص ٦٦٥، والرحيق المختوم: ص ٤٣٣.

(٥) تاريخ الحوادث: ج ١ ص ٥٢.

المبحث الثالث: بعثته ونبوته

قال الناظم رحمه الله:

أَتَمَّ قَبْلَ الْوَحْيِ أَرْبَعِينَ أَوْ عُمُرُهُ قَدْ جَاوَزَ السِّتِينَ

الشرح:

يجب علينا أن نعتقد أن سيدنا محمد ﷺ بعثه الله تعالى نبياً ورسولاً عند استكمال أربعين سنة من عمره ﷺ، ومكث بمكة بعد البعثة ثلاث عشر سنة يوحى إليه وأقام بطيبة بعد الهجرة عشر سنين فيكون مجموع عمره الشريف ثلاثاً وستين سنة.

وكان ﷺ قبل البعثة متديناً ومتعبداً، يبغض ويكره الحرام، وكان يشتغل برعي الغنم ويقول: (ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، ف قيل: وأنت؟ قال: نعم)^(١).

وكان يشتغل بالتجارة، وقد كان السائب بن أبي السائب يشاركه ﷺ في التجارة حتى إنه قال له يوم الفتح: مرحباً بأخي وشريكي^(٢)، وكان ﷺ لا يداري ولا يماري، وقام على تجارة خديجة وسافر لأجل ذلك إلى الشام ورجع بأرباح وفيرة لم تكن في الحسبان^(٣).

(١) رواه البخاري في صحيحه، وابن هشام: ج ١ ص ١٦٦. ج ٢ ص ١٦٦.

(٢) تاريخ الحوادث: ص ٥٢. ج ٢ ص ١٦٦. ج ٣ ص ١٦٦.

(٣) ابن هشام: ج ١ ص ١٨٧ - ١٨٨.

ومن علامات النبوة قبل البعثة:

أول علامات النبوة المحسوسة هي: شق صدره الشريف، وهذا الشق قد حصل له ﷺ أول مرة وهو صغير السن عند حليلة في بني سعد، وكان في الرابعة من عمره على الصحيح، وأما المرة الثانية فقد شق صدره الشريف ﷺ وهو ابن عشر سنين.

وأما المرة الثالثة فقد شق صدره الشريف عند مجيء جبريل بالوحي حين نبئ. وأما المرة الرابعة فهي ليلة الإسراء كما ورد في الصحيحين. واعلم أن جميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب مما يجب التسليم به دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك.

خاتم النبوة: ومن علامات النبوة خاتم النبوة، واختلفت الأقوال في صفته، وأشهر ما جاء أنه كبيضة الحمامة وأنه بضعة لحم ناشزة أي مرتفعة في ظهره عند ناغض كتفه اليسرى، يزهر بالنور وتعلوه المهابة وينفج بالطيب.

وكان رسول الله ﷺ واسع الظهر، ما بين كتفيه خاتم النبوة، وهو مما يلي منكبه الأيمن، وكان خاتمه ﷺ غدة حمراء مثل بيضة الحمامة، فعن جابر بن سمرة رضي الله عنهما بلفظ: (رأيت الخاتم بين كتفي رسول الله ص غدة حمراء مثل بيضة الحمامة). وفي تحديد خاتم النبوة أقوال كثيرة.

وعن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه أن سلمان الفارسي رضي الله عنه جاء إلى حضرة النبي بصدقة فرفضها ثم جاءه بهدية فقبلها ثم نظر سلمان إلى الخاتم على ظهر رسول الله ﷺ فأمن به.

الرؤيا الصالحة: وهي من علامات النبوة، فقد كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وكان يرى الضوء والنور ويسمع الصوت، وكان يُسلم عليه الأحبار والأشجار وتظلل الغمامة عند الظهيرة حيث سار.

ولما تكامل له أربعون سنة - وهي رأس الكمال - وقيل: لها تبعث الرسل - بدأت آثار النبوة تتلوح وتتلمع له من وراء آفاق الحياة، وتلك الآثار هي الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، حتى مضت على ذلك ستة أشهر، ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته ﷺ بغار حراء شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض، فأكرمه بالنبوة والبعثة، وأنزل جبريل بآيات من القرآن الكريم.

وكان مجيء جبريل عليه السلام بالنبوة يوم الاثنين يوم سابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده، فيكون عمره الشريف آنذاك أربعين سنة قمرية وستة أشهر، وثمانية أيام وذلك يوافق ١٦ أغسطس - آب - سنة ٦١٠ م وهو بغار حراء.

وقيل: هو اليوم السابع^(١) وقيل الثامن عشر^(٢)، وقيل الحادي والعشرين^(٣)، ورجحه الشيخ صفى الرحمن المبارك فوري بقوله: وإنما رجحنا أنه اليوم الحادي والعشرين مع أننا لم نر من قال به، لأن أهل السير كلهم أو أكثرهم متفقون على أن مبعثه صلى الله عليه وسلم كان يوم الاثنين ويؤيدهم ما رواه أئمة الحديث عن صياحه صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين مولده ومبعثه^(٤)، ويوم الاثنين من رمضان من تلك السنة لا يوافق إلا اليوم السابع، والرابع عشر، والحادي والعشرين، والثامن والعشرين، وقد دلت الروايات الصحيحة أن ليلة القدر لا تقع إلا في وتر من ليالي العشر الأواخر من رمضان وأنها تنتقل فيما بين هذه الليالي، فإذا قارنا بين قوله تعالى: {أنزلناه في ليلة القدر}^(٥)، وبين رواية أبي قتادة أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين

(١) الرحيق المختوم: ص ٥٦

(٢) ينظر مختصر سيرة الرسول: ص ٧٥، ورحمة للعالمين: ج ١ ص ٤٩

(٣) الرحيق المختوم: ص ٥٦-٥٧

(٤) صحيح مسلم: ج ١ ص ٣٦٨، مسند الامام أحمد: ج ٥ ص ٢٩٧

(٥) سورة القدر: الآية (١)

وبين حساب التقويم العلمي في وقوع يوم الاثنين في رمضان من تلك السنة
تعين لنا أن مبعثه صلى الله عليه وسلم كان في الحادي والعشرين من
رمضان ليلاً^(١). والله تعالى أعلم.

وأول ما نزل عليه من القرآن الكريم {اقرأ باسم ربك الذي خلق}^(٢)، كما
صح ذلك عن عائشة رضي الله عنها، وروي ذلك عن أبي موسى الأشعري،
وعبيد بن عمير رضي الله عنهما^(٣).

قال النووي رحمه الله تعالى: وهو الصواب الذي عليه الجماهير من
السلف والخلف، ومكث ﷺ بعد البعثة بمكة ثلاث عشرة سنة يعاني من شدة
الكفار وغلظتهم وعذابهم، وضرب أروع معاني الصبر والثبات على الحق
وبناء العقيدة الصحيحة، وأرسى ﷺ قواعد وأصول الدعوة الناجحة التي
تميزت بالوسيلة والاعتدال وتبذ للتطرف والتعصب، ثم هاجر إلى المدينة
المنورة التي صارت أعظم دولة إسلامية لنشر الفضيلة والعدل والعلم
والإحسان في عشر سنوات، وتوفى ﷺ وعمره ثلاث وستون سنة قمرية
كاملة وثلاثة أيام، وإحدى وستون سنة شمسية وأربعة وثمانون يوماً، وقد بلغ
الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده.

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله مراتب الوحي في نقاط منها:

إحداها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ.

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه^(٤).

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما
يقول له.

(١) الرحيق المختوم: ص ٥٦

(٢) سورة العلق: الآية (١)

(٣) صحيح البخاري: ج ١ ص ٢-٣

(٤) زاد المعاد: ج ١ ص ١٨

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه فيتلبس به الملك.

الخامسة: أنه عليه السلام يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحى إليه ما شاء أن يوحيه.

السادسة: ما أوحاه الله إليه، وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله تعالى له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران، وشهد بذلك القرآن ولنبينا صلى الله عليه وسلم في الإسراء والمعراج.

الثامنة: وقد زاد بعض العلماء تكليم الله عليه السلام كفاحاً من غير حجاب وهي مسألة خلافية بين العلماء^(١).

(١) الرقيع المنصور: ج ١ ص ١٨ وما بعدها.

(٢) الرقيع المنصور: ج ١ ص ٢٥٠ وما بعدها.

(٣) الرقيع المنصور: ج ١ ص ٢٥٠ وما بعدها.

(٤) الرقيع المنصور: ج ١ ص ٢٥٠ وما بعدها.

(٥) الرقيع المنصور: ج ١ ص ٢٥٠ وما بعدها.

(٦) الرقيع المنصور: ج ١ ص ٢٥٠ وما بعدها.

المبحث الرابع: أولاده عليه السلام وأزواجه

قال الناظم رحمه الله:

وَسَبْعَةُ أَوْلَادُهُ فَمِنْهُمْ قَاسِمٌ وَعَبْدُ اللَّهِ وَهُوَ الطَّيِّبُ
أَتَاهُ إِبْرَاهِيمُ مِنْ سُرِّيَّةٍ وَغَيْرُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ خَدِيجَةٍ
وَأَرْبَعُ مِنَ الْإِنَاثِ تُذَكَّرُ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ بَعْلُهَا عَلِيٌّ
فَزَيْنَبُ وَبَعْدُهَا رُقِيَّةٌ
ثَلَاثَةٌ مِنَ الذُّكُورِ تُفْهَمُ وَطَاهِرٌ بِذَيْنِ ذَا يُلَقَّبُ
فَأُمُّهُ مَارِيَّةُ الْقُبْطِيَّةُ هُمْ سِتَّةٌ فَخُذْ بِهِمْ وَلِيجَةٌ
رِضْوَانُ رَبِّي لِلْجَمِيعِ يُذَكَّرُ وَأَبْنَاهُمَا السَّبْطَانِ فَضْلُهُمْ جَلِيٌّ
وَأُمُّ كُلُّثُومٍ زَكَّتْ رَضِيَّةٌ

المفردات:

بذَيْن: أي بالطيب والطاهر.

سُرِّيَّة: الأمة.

وَلِيجَةٌ: محبة في الظاهر والباطن.

بَعْلُهَا: زوجها.

وَأَبْنَاهُمَا: السبطين الحسنين الأحسنين سيدا شباب أهل الجنة الحسن الحسين رضي الله عنهما.

الشرح:

وسبعة خبر مقدم وأولاده مبتدأ مؤخر، وتفهم تكمل أي بيان وتكميل للبيت، وقوله سرية بضم السين وهي الأمة منسوبة إلى السر بالكسر وهو الجماع والنسبة فيها على خلاف القياس فرقاً بينها وبين الحرة إذا نكحت سرّاً فهي بالكسر على القياس. وينبغي لكل مؤمن أن يعرف عدة أولاد حضرة النبي ﷺ وترتيبهم في الولادة، وهل ذلك واجب أم ندب، يحتمل أمران، وعندي أنه ليس بواجب لأنه لا يرجع إلى ذاته ﷺ، والله أعلم. وترتيب أولاده ﷺ في الولادة: القاسم، ثم زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم أم كلثوم، ثم عبد الله، وهؤلاء كلهم من خديجة رضي الله عنها ثم إبراهيم من مارية القبطية رضي الله عنها.

وأولاد حضرة النبي ﷺ سبعة: ثلاث بنون وأربعة بنات وهم:

١. **القاسم:** وكني به عليه السلام، وتوفي بمكة وعمره سنتان، وهو أول من مات من أولاد الرسول ﷺ قبل النبوة.

٢. **عبد الله:** المقلب بالطيب والظاهر: توفي بمكة صغيراً، وولد بعد النبوة، وقيل لم يدرك النبوة، ولكن لما توفي قال العاص بن وائل السهمي عدو الله ورسوله: قد انقطع ولده فهو أبتر، فأنزل الله تعالى: {إن شائنك هو الابتر} (١).

٣. **إبراهيم:** ولد في المدينة المنورة في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة، وعق عليه السلام يوم سابعه بكشين، وسماه يومئذ وحلق شعره وتصدق بزنته فضة، وأمه مارية القبطية التي هداها لحضرته ﷺ المقوقس عظيم القبط في مصر والإسكندرية ومعها أختها سيرين وبغلة شهباء وهي دلدل وخصياً يقال له مأبور وألف مثقال من ذهب وعشرين ثوباً لينة، وحماراً أشهب وهو عفير ويقال له يعفور، ووهب رسول الله ﷺ

سيرين لحسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، وماتت مارية في خلافة الفاروق سيدنا عمر رضي الله عنه^(١)، وتوفي إبراهيم في المدينة من السنة العاشرة للهجرة وهو ابن سبعين ليلة، وقيل: سبعة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وحزن عليه حضرة النبي ﷺ حزناً شديداً وبكى بأبي هو وأمي ﷺ.

٤. زينب: وهي أكبر بناته ﷺ تزوجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع، وأمه هالة بنت خويلد، وقد أسلم فولدت له علياً مات صغيراً وأمامه وهي التي جاء أنه حملها ﷺ في صلاته، تزوجها علي بعد وفاة خالتها السيدة فاطمة بوصية منها، ثم خلف عليها المغيرة ابن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب فولدت له يحيى وماتت عند المغيرة. وقد توفيت السيدة زينب رضي الله عنها سنة ثمان للهجرة ودفنت في المدينة المنورة^(٢).

٥. رقية: تزوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه، فولدت عبد الله، وتوفيت يوم جاء زيد بن حارثة بشيراً بالنصر يوم بدر في شهر رمضان سنة اثنين من الهجرة.

٦. أم كلثوم: تزوجها سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد وفاة رقية، ولذا سُمي ذا النورين توفيت سنة تسع من الهجرة فحزن حضرة النبي ﷺ عليها حزناً شديداً، وقال لعثمان: لو كانت عندي لزوجتكها^(٣).

٧. فاطمة الزهراء^(٤): تزوجها سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو ابن إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر، وهي بنت خمس عشرة

(١) تاريخ الحوادث والأحوال النبوية: ص ٢٠

(٢) تاريخ الحوادث: ص ٢١

(٣) الرحيق المختوم: ص ٤٠٣

(٤) فاطمة وتسمى البتول وسميت فاطمة لأن الله تعالى فطمها وذريتها من النار، والبتول من التبتل وهو القطع لانقطاع من زخارف الدنيا وقيل لانقطاعها من نساء زمنها حسباً ودينياً وكانت أحب أولاد النبي صلى الله عليه وسلم ينظر أنها الزهراء فاطمة: ص ١٠

سنة عقب رجوعهم من بدر، وولدت له ستة: ثلاثة بنون، وثلاث بنات، فالبنون: الحسن، والحسين، والمُحَسِّن رضي الله عنهم، فمات محسن صغيراً، والبنات: رقية وزينب وأم كلثوم، ماتت رقية قبل البلوغ، وتزوج زينب عبد الله بن جعفر فولدت له علياً ومات، وتزوج أم كلثوم رضي الله عنها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فولدت له زيدا ورقية.

وتوفيت السيدة فاطمة بعد حضرة النبي ﷺ بستة أشهر في ثالث رمضان للسنة الحادية عشرة من الهجرة، ودفنها سيدنا علي رضي الله عنه ليلاً^(١).

والبنات رضي الله عنهن أدركن وهاجرن معه وكلهن من السيدة خديجة رضي الله عنها، وذرية السيدة فاطمة رضي الله عنها موجودة إلى وقتنا الحالي بكثرة وهم السادة الأشراف وقد أمرنا الله تعالى بمحبتهم لأنهم أهل بيته صلى الله عليه وسلم، وقول الناظم: (فخذ بهم وليجة) أي خذ بمعرفة أولاده صلى الله عليه وسلم، عليه محبة مستمرة إلى الموت لأن حبهم بل وحب عترة المصطفى ﷺ واجب على كل مسلم ومسلمة لقوله تعالى: {قل لا أسئلكم عليه أجراً إلا المودة في القربى^(٢)}؟ أي قرايتي، وقالوا: يا رسول الله؟ من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: علي وفاطمة وأبنائهما^(٣).

وقول الناظم رضوان ربي للجميع... إلخ: المقصود بها طلب الرضوان من الله عز وجل عن جميع أولاده السبعة ﷺ ويؤكد تكلمة للبيت قوله فاطمة الزهراء... إلخ بدل من أربع بدل بعض من كل أو خبر مبتدأ وخبر قوله فضلهم جلي مبتدأ وخبر معناه: إن فضل هؤلاء الأربعة ظاهر عند جميع المسلمين إلا من كتب عليه الشقاء.

(١) تاريخ الحوادث: ص ٢٢

(٢) سورة الشورى: الآية (٢٣)

(٣) جلاء الافهام: ص ٩١

المبحث الخامس: أزواجه وأعمامه

قال الناظم رحمه الله:

عَنْ تِسْعِ نِسْوَةٍ وَفَاةٍ الْمُصْطَفَى خَيْرُنَ فَاخْتَرَنَ النَّبِيُّ الْمُقْتَفَى
عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ وَسَوْدَةُ صَفِيَّةٌ مَيْمُونَةٌ وَرَمْلَةٌ
هَنْدٌ وَزَيْنَبُ كَذَا جَوَيْرِيَّةُ لِلْمُؤْمِنِينَ أُمَّهَاتُ مَرْضِيَّةُ
حَمْزَةُ عَمَّةٌ وَعَبَّاسُ كَذَا عَمَّتُهُ صَفِيَّةٌ ذَاتُ احْتِذَى

المفردات:

المقتفى: المتبع.

مرضية: بتخفيف الياء للوزن.

الشرح:

قوله من تسع نسوة جار ومجرور خبر مقدم تقديره حاصل المصطفى من الصفوة أي المختار، يروى عن النبي ﷺ أنه قال أن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريشاً بني هاشم واصطفاني من بني هاشم^(١).

(١) صحيح مسلم: ج ٢ ص ٢٤٥، وسنن الترمذي: ج ٢ ص ١٠٢.

وقوله خيرن بالبناء للمجهول أي أمرن بالخيار بين زينة الحياة الدنيا والدار الآخرة فاخترن النبي المقتفى، أي فاخترن هؤلاء الأزواج التسعة الدار الآخرة حين نزل على حضرة النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: {يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها...} (١) والمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم فارق الحياة الدنيا إلى الرفيق الأعلى وعنده يومئذ تسع زوجات.

أما زوجات النبي ﷺ المدخول بهن إحدى عشرة، توفي ﷺ عن تسع، وتوفيت قبله اثنتان، فأما الاثنتان فهما:

١. خديجة بنت خويلد: وهي أول أزواجه ﷺ، تزوجها بمكة المكرمة قبل النبوة، وعمرها أربعون سنة وعمره ﷺ خمس وعشرون سنة، وكانت قبله عند أبي هالة، فولدت هند بن أبي هالة، وزينب بنت أبي هالة، وكانت قبل أبي هالة عند عتيق بن عائذ المخزومي، فولدت له عبدالله وجارية، وما تزوج ﷺ بامرأة حتى ماتت، وعاشت رضي الله عنها مع حضرة النبي ﷺ قبل الوحي خمس عشرة سنة وبعده إلى ما قبل الهجرة بثلاث سنين، وماتت عنده ودفنت في مقبرة المعلاة المعروفة بالحجون في مكة المكرمة.

٢. زينب بنت خزيمة أخت ميمونة بنت الحارث لأُمها: وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم، ولم تلبث عنده إلا شهرين، أو ثلاثة، ثم توفيت وصلى الله عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفنها بالبقيع (٢).

وأما التسع: فقد ذكرهن الناظم في هذه الأبيات وهن اللاتي خيرهن حضرة الرسول ﷺ بين زينة الدنيا والإقامة معه طلباً للآخرة عندما طلبن منه نصيباً من الدنيا، فاخترن المصطفى ﷺ قال تعالى: {يا أيها النبي قل

(١) سورة الأحزاب: الآية (٢٨)

(٢) تاريخ الحوادث والأحوال النبوية: ص ٢٣

لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنن وأسرحكن سراحاً جميلاً* وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً^(١) ولما اختارت كل واحدة منهن الله ورسوله والدار الآخرة، أمتدحن الله وأنزل في حقهن: {يا نساء النبي لستن كأحد من النساء أن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً^(٢)}.
 (١) سورة النساء: ٣١
 (٢) سورة الأحزاب: ٣٢

ولمزيد من البيان نذكر نبذة مما يتعلق بأمهات المؤمنين التسع رضي الله عنهن:

١- عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنه: تزوجها حضرة النبي ﷺ بمكة في شوال وهي بنت سبع سنين، وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين^(٣) في شوال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة على الصحيح، ولم يتزوج حضرة النبي ﷺ بكرةً غيرها، وكانت أحب النساء إليه لخصوصيات كثيرة مذكورة في محله منها أنها رأت جبريل يتحدث مع النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي رضي الله عنه وقال: هذا جبريل يسلم عليك (ومات عنها رسول الله ﷺ) وهي بنت ثمان عشرة سنة وكنيتها أم عبدالله، توفيت وقد قاربت سبعاً وستين سنة في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين، وصلى عليها أبو هريرة ؓ، وقيل: سعيد بن زيد، ودفنت بالبقيع، وذلك في عهد ولاية مروان بن الحكم على المدينة فسي ولاية معاوية ؓ. وكانت أफقه نساء الأمة وأعلمهن على الإطلاق^(٤).

(١) سورة الأحزاب: الايتان ٢٨-٢٩

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٣٢)

(٣) يرجى مراجعة كتاب أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ للدكتور إبراهيم علي شعوط، ط ١ فيه معلومات ينبغي الوقوف عليها في موضوع زواج حضرة النبي ﷺ بالسيدة عائشة رضي الله عنها.

(٤) الرحيق المختوم: ص ٤٣٤، صحيح البخاري: ج ١ ص ٥٥، وتلقيح فهم أهل الأثر: ص ١٠.

٢- حفصة بنت عمر بن الخطاب: وكانت تحت خنيس ابن حذافه السهمي، فلما مات تأيمت حفصة، فتزوجها حضرة النبي ﷺ وذلك بعد غزوة أحد سنة ثلاث وعمرها عشرون سنة، وروي أنه طلقها لأنها أفشت أمراً أسر إليها لعائشة رضي الله عنها وكان بينهما مصادقة أي مصافاة فنزل جبريل عليه السلام فقال: (إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة)^(١) وفي خبر قال: رحمة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتوفيت سنة خمس وأربعين في عهد ولاية مروان بن الحكم على المدينة وعمرها ستون سنة^(٢).

٣- سودة بنت زمعة: كانت تحت ابن عمها السكران بن عمرو، وهو من مهاجري الحبشة، ثم قدما مكة فمات بها، ولم يعقب، وقد كبرت رضي الله عنها عند حضرة النبي ﷺ فأراد أن يطلقها فوهبت يومها لعائشة رضوان الله عنها، وقالت: لا حاجة لي في الرجال وإنما أريد أن أحشر في زوجاتك، ومن خصائصها رضي الله عنها أنها انفردت بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم بعد موت خديجة ثلاثه أعوام، فتزوجها صلى الله عليه وسلم في رمضان للسنة العاشرة من النبوة، وتوفيت في آخر خلافة عمر رضي الله عنه على المشهور سنة خمس وخمسين من الهجرة^(٣).

٤- صفية بنت حيي بن أخطب: أبوها سيد بني النضير من سبط هارون بن عمران عليهما السلام، كانت رضي الله عنها عند سلام بن مشكم اليهودي، ثم خلفها عليها كنانة بن أبي حقيق، وهما شاعران فقتل عنها كنانة ولم تلد لأحد منهما، سببت من خيبر سنة سبعة هجرية، واصطفاهما

(١) نيل المرام: ص ١٨

(٢) تأريخ الحوادث: ص ٢٢

(٣) الرحيق المختوم: ص ٣٤

رسول الله ﷺ لنفسه، فأعتقها وتزوجها، وجعل عتقها صداقها، وكانت لم تبلغ سبع عشرة سنة، وتوفيت في رمضان سنة خمسين، وقيل: اثنين وخمسين في عهد معاوية رضي الله عنها ودفنت بالبقيع^(١).

٥- ميمونة بنت الحارث بن حزن: وهي خالة عبد الله بن عباس رضي الله عنها، وأختها أسماء بنت عميس، وسلمى بنت عميس، وزينب بنت خزيمة، زوج حضرة النبي صلى الله عليه وسلم، وخالة خالد بن الوليد رضي الله عنها، وكانت في الجاهلية عند مسعود بن عمرو ففارقها، فحلف عليها أبو رهم بن عبد العزي العامري فتوفي عنها، فتزوجها المصطفى ﷺ سبع هجرية في عمرة القضاء، وتوفيت سنة إحدى وخمسين على الأصح بسرف وهو قريب من التنعيم، ودفنت فيه وقد بلغت ثمانين سنة، وهي آخر من تزوج بها حضرة النبي ﷺ وآخر من توفي من أزواجه ﷺ^(٢).

٦- أم حبيبه، رملة بنت أبي سفيان بن حرب، وهي بنت عمه عثمان بن عفان، أسلمت قديماً وهاجرة إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش، فتتصر بالحبشة ومات بها، وأبت هي أن تتتصر وثبتت على إسلامها.

فبعث حضرة النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي سنة سبعة هجرية، فتزوجها ﷺ وأصدقها النجاشي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار، وولى نكاحها خالد بن سعيد بن العاص على الأصح لكونه ابن عمها، وقيل: عثمان بن عفان رضي الله عنهما. وتوفيت سنة أربع وأربعين ودفنت بالبقيع^(٣).

٧- أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومي، وأسمها هند، وكانت قبل رسول الله ﷺ عند أبي سلمة ابن عمته ﷺ برة بنت عبد المطلب،

(١) جلاء الأفهام: ص ٩٥

(٢) تاريخ الحوادث: ص ٢٣

(٣) الرحيق المختوم: ص ٤٣٥

وأخيه عليه السلام من الرضاعة، ولدت له سلمة وعمر، ودره وزينب، وتوفي أبو سلمة رضي الله عنه فخلفه عليه السلام بعده في شوال سنة أربع، وكانت من المهاجرات إلى الحبشة وإلى المدينة، وكان سنّها حين تزوجها عليه السلام ثلاثين سنة، وتوفيت سنة ستين على الصحيح، وقد بلغت أربعاً وثمانين سنة، وصلى عليها أبو هريرة رضي الله عنه، وقيل سعيد بن زيد ودفنت بالبقيع^(١).

٨- زينب بنت جحش: وهي بنت عمته عليه السلام أميمة بنت عبد المطلب، تزوجها صلى الله عليه وسلم سنة خمس من الهجرة وعمرها خمس وثلاثون سنة، وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة، ثم طلقها، فلما انقضت عدتها زوجّه الله تعالى إياها، وفي زواجها أمر تشريعي وإنساني عظيم لم يشهد له التاريخ^(٢). قال تعالى: {فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها}^(٣). وكانت رضي الله عنها تفتخر بذلك على نساءه عليه السلام وتقول: {إن الله أنكحني إياه من فوق سبع سماوات}^(٤) ومن خصائصها أنها نزل فيها الحجاب، وهي أو نساءه لحوقاً به في الوفاة، فقد توفيت سنة عشرين في خلافة الفاروق عمر رضي الله عنه، وقد بلغت ثلاثاً وخمسين سنة، وصلى عليها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانت من أجود الناس وتكثر الصدقات على الفقراء، ودفنت بالبقيع^(٥).

٩- جويرية بنت الحارث الهلالية: كانت في سبايا بني المصطلق من خزاعة، فوقع في السهم لثابت بن قيس الأنصاري، ثم أسعدها الله فتزوجها رسول الله عليه السلام بعد أن قضى رسول الله عليه السلام كتابها سنة ست

(١) نيل المرام: ص ١٨

(٢) ينظر أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ: ص ١٠

(٣) سورة الأحزاب: الآية (٣٧)

(٤) جلاء الافهام: ص ٩٧

(٥) الرحيق المختوم: ص ٤٣٥

هجرية في شهر شعبان وهي بنت عشرين سنة، وتوفيت بالمدينة سنة ست وخمسين وصلى عليها مروان بن الحكم، وقد بلغت سبعين سنة، وقيل خمساً وستين سنة^(١).

ولكل واحدة من زوجات حضرة النبي ﷺ فضيلة وخصوصية وأنهن أمهات للمؤمنين في التعظيم والاحترام، وتحريم النكاح حتى على الأنبياء السابقين وأممهم لأنه رسول إلى كافة الناس، ولأنهن مطيعات لله ولرسوله ومحفوظات من الآثام بدليل قوله تعالى: {ومن يقنت منكن} وأما الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: {من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين} فقد قال المفسرون: إن القضية الشرطية لا تقتضي الوقوع. وأيضاً أن قوله تعالى: {إن كنتم تردن الله ورسوله... إلخ} الآية تدل على ما قلنا، وقد صح أنهن جميعاً اخترن الله ورسوله والدار الآخرة وأولهن عائشة رضي الله عنها^(٢).

والزواج بأكثر من أربعة جائز له ﷺ لأنه من خصائصه، كما أن من خصائصه أيضاً: عقده بلا شهود ولا ولي^(٣).

واعترض بعض المستشرقين الحاقدين من اليهود والنصارى المشركين على تعدد زوجاته ﷺ واتهموه بأنه كان رجلاً شهوانياً، وحاشى الله أن يكون كذلك، فإنه ليس لدافع شهواني، بل لحكم وأغراض منها:

١- أن يوجد بينه ﷺ وبين أصحابه وكبار قومه صلة قوية بواسطة المصاهرة حتى يسهل عليه اتصالهم في قضايا مختلفة، مع عدم الحجاب، وهذا مما يساعد للدفاع عن مبدئه السامي، ونشر الدعوة الإسلامية، وهذا أمر لينسجم مع الفطرة الإنسانية وتستجيب له بقوة.

(١) تأريخ الحوادث: ص ٢٣

(٢) نيل المرام: ص ١٨

(٣) جلاء الافهام: ص ٩٩

٢- حياته ﷺ دروس لأُمته وقدوة حسنة، ففي تزوجه ﷺ بأكثر من من أربعة منفعة كبيرة للأمة كي ينقلن إلينا ما يتعلق بحياته اليومي، كما أنهن أعرف بذلك، ونقل الرواية في حاجة إلى تعددهن، فكم من حديث جاء إلينا منهن وبذلك نعرف أحكاماً تتعلق بحياته المنزلية والمعاشرة الزوجية، والغسل والحيض والنفاس، وما إلى ذلك، فكن أعواناً لحضرته ﷺ على القيام بما أكرمه الله به من تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة وتعليم المسلمين دينهم.

٣- أكثر زوجاته صلى الله عليه وسلم مسلمات قبل أن يكن تحتها صلى الله عليه وسلم وقد فارقن أزواجهن، فلأجل ألا تتعطل حياتهن، أحتضنهن الرسول صلى الله عليه وسلم ليرعيتن، وذلك الأمر تشريع رباني لرعاية النساء والاهتمام بأمور الأراامل منهن حماية وصيانة ورعاية في ظل العدل الإسلامي العظيم.

هذا وقد ثبت بالدليل القاطع أنه ﷺ لم يتزوج في شبابه إلا بالسيدة خديجة الكبرى رضي الله عنها التي ماتت وعمره الشريف خمسون عاماً. وبالإضافة إلى ذلك فإنه ﷺ كان مشغولاً بأمور الدعوة فهو في جهاد مستمر لمكافحة الأعداء، وجاء في السيرة أنه سيد المتعبدين فإنه يقوم ليله حتى تورمت قدماء من القيام والتهجد، ولم تشغله كثرة زوجاته عن عبادة ربه والقيام بواجبات الرسالة، والنهوض بأعباء الدعوة، والجهاد في سبيل الله تعالى، فدعوى المجرمين ساقطة وفضائح ساداتهم وحاخاماتهم ورهبانهم على مر الدهور يندى لها جبين الكاتب عن أن يذكرها وصمت القلم حائراً كيف يجمعها، ولكن موعدهم الصاخة وعذاب جهنم وبئس المصير.

وهكذا لنعلم أنهم يفترون على أمنا الإسلامية الكذب، وليس ذلك في هذا المجال فحسب، بل لهم شتى المجالات التي يدرجون فيها مبادئهم الحاقدة ضد حضرة الرسول ﷺ وأُمته الإسلامية^(١).

(١) ينظر كتاب الحرية الجامعية للدكتور الشيخ عبدالله مصطفى حيث أظهر تلك الحقائق واضحة جلية.

وأعمام النبي ﷺ اثنا عشر وهم:

- ١- حمزة: وأمه هالة بنت أهيب، وهو عمه ﷺ، وأخوه في الرضاعة أَرْضَعْتُهُما ثوبية، وكان أَسَنُّ منه صلى عليه وسلم بأربع سنين، وقيل: بسنتين، وكان أسد الله وأسد رسوله ﷺ، شهد بدرًا وأحداً، وبها قُتِلَ شهيداً على يد وحشي، ووجدوا فيه يومئذٍ بضعاَ وثمانين جرحاً، ما بين ضربة سيف، وطعنة رمح، ورمية سهم.
- جاء في الحديث الشريف: أنه سيد الشهداء^(١)، قال حضرة المصطفى ﷺ: (سيد الشهداء عند الله يوم القيامة حمزة بن عبد المطلب)^(٢).
- ٢- العباس، وأمه قيلة بنت حيان، كان أصغر أعمامه، وأسن من حضرة النبي ﷺ بسنتين أو ثلاث، حضر بدرًا مع المشركين مكرهاً، وأُسر مع من أُسر، وفدى نفسه، وقد أسلم يومئذٍ وكان يكتُم إسلامه بأمر النبي ﷺ. وأمره رسول الله ﷺ بالإقامة بمكة ليكتب له أخبار قريش، وما أظهر إسلامه إلا يوم الفتح، وكان مقيماً بمكة على سقايته، وكان ينفع المستضعفين بمكة، وبه يتقون، ورسول الله ﷺ عنه راضٍ، حضر يوم حنين، وتوفي سنة اثنتين وثلاثين، وعُمره ثمان وثمانون، وصلى عليه عثمان بن عفان.
- ٣- أبو طالب: وأمه فاطمة بنت عمرو بن عابد، وهي أم عبد الله أبي رسول الله ﷺ واسمه عبد مناف، وقد ظل ﷺ في كفالته منذ أن كان من الثامنة من عمره حتى يكبر، وكان يدافع عن الرسول ﷺ دفاعاً بالغاً من معارضة كفار قريش.
- ٤- أبو لهب: وأمه لين بنت هاجد، سُمي أبا لهب لإشراق وجهه، وكُنِيته أبو عتبة، واسمه عبد العزي، وهو كافر بنص القرآن، وكان من أشدهم

(١) سيد شهداء هذه الأمة في المعركة كما قاله الزين العراقي ينظر جلاء الافهام: ص ١٠١

(٢) رواه الحاكم عن جابر والطبراني عن علي، حديث صحيح.

معارضة للدعوة وزوجته أم جميل، وأصابته العدسة فقتله، والعدسة: بثره خبيثة تشبه العدسة تخرج في مواضع من جنس الطاعون تقتل صاحبها، وهي معدية، وكانت عادتهم أن يتجنبوا جيفة من مات بها، فلما أصابت أبا لهب تباعدته بنوه، وبقي بعد موته ثلاثاً لا يقربه ولا يحاول أحد دفنه، ولما خافوا السبّة في تركه حفروا له حفرة قريبة منه، ثم دفعوه في تلك الحفرة بألة طويلة، ثم قذفوه بالحجارة من بعيد حتى توارى^(١).

٥- الحارث: وأمه ثمرة بنت جندب، وهو أكبر أولاد عبد المطلب، وبه يكنى، ولم يدرك الإسلام.

٦- الزبير: وأمه أم عبد الله، ولم يدرك الإسلام.

٧- جحل: وأمه أم حمزة، واسمه المغيرة.

٨- عبد الكعبة: وأمه أم عبد الله، ولم يدرك الإسلام ولم يكن له نسل.

٩- قثم: وأمه أم الحارث، مات صغيراً.

١٠- ضرار: وأمه أم العباس، مات في أيام أوحى إلى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسلم، وكان جميل وسخي.

١١- الغيداق: لقب بالغيداق لكثرة جوده لأنه من أجود قریش طعماً ومالاً وجمالاً، وأسمه مصعب.

١٢- المقوم: وأمه أم الحمزة، ومن أهل العلم من بعد أعمام حضرة النبي ﷺ، ويجعل عبد الكعبة والمقوم واحداً، وجحلاً والغيداق واحداً، وأشقاء عبد الله هم أبو طالب والزبير وعبد الكعبة.

وعمات حضرة النبي ﷺ ست هن:

١- صفية: وهي أم الزبير بن العوام، وأمها هالة بنت أهيب أم حمزة، توفيت في المدينة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة عشرين، وقد بلغت ثلاثاً وسبعين سنة، ودفنت بالبقيع.

قيل: لم يسلم من عمات النبي ﷺ اللاتي أدركن البعثة غيرها، وقيل أسلمت أروى، وعاتكة.

٢- أروى. ٣- عاتكة. ٤- أم حكيم. ٥- برة. ٦- أميمة. ولا خلاف في عدم إسلام هذه الثلاثة الأخيرة. وهذه الخمسة الأخيرة شقيقات عبد الله والد النبي ﷺ.

وأخوته ﷺ من الرضاعة هم: حمزة وأبو سلمة بن عبد الأسد، أرضعتهم معه ثؤيبة، وحمزة وأبو سلمة من السابقين الأولين. وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، أرضعته ورسول الله ﷺ حليلة السعدية وقد أسلم. وعبد الله وأنيسة والشيماء أولاد حليلة من زوجها الحارث بن عبد العزي السعدي. وهؤلاء الثلاثة وأبوهم الحارث ذكرهم في الإصابة من جملة الصحابة، وفي الأخير خلاف بين العلماء^(١).

وأخواله ﷺ: الأسود بن وهب جاء إلى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وعلمه كلمات، ولقنه دعاء، نقله في شرح المواهب. وخاله أيضاً عبد يغوث بن وهب والد الأسود الذي كان من المستهزئين، وخالته فريضة بنت وهب^(٢).

(١) تاريخ الحوادث والأحوال النبوية: ص ٢٥

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٦

المبحث السادس: الأسراء والمعراج

وقال الناظم رحمه الله:

وَقَبْلَ هَجْرَةِ النَّبِيِّ الْإِسْرَا مِنْ مَكَّةَ لَيْلًا لِقَدْسٍ يُدْرَى
وَبَعْدَ إِسْرَاءِ عُرُوجٍ لِلسَّمَاءِ حَتَّى رَأَى النَّبِيُّ رَبًّا كَلَّمَا
مِنْ غَيْرِ كَيْفٍ وَانْحِصَارٍ وَافْتَرَضُ عَلَيْهِ خُمُسًا بَعْدَ خَمْسِينَ فَرَضُ

المفردات:

الاسراء: أسرى وسرى لغتان زاد بعضهم أنهما مختصان بسير الليل وأسرى لازم كسرى فيحتاج إلى التعدية، والهمزة هنا ليست للتعدية خلافاً لابن عطية وإنما المعدى الباء في بعبده ولا تقتضي مصاحبة الفاعل للمفعول في الفعل عند الجمهور خلافاً للمبرد والسهيلي^(١).

والإسراء: توجيهه ﷺ ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، من أسرى: أي سار ليلاً كما بينا آنفاً.

عروج للسما: صعود إلى السماء من المسجد الأقصى.

الشرح:

وقبل هجرة ظرف منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بمحذوف خبر مقدم هجرة مضاف والنبي مضاف إليه، الإسراء مبتدأ مؤخر تقرير الكلام

(١) وهو بالأفق الأعلى: ص ٢٠

الإسراء ثابت وحاصل قبل هجرة النبي ﷺ والإسراء بحذف الهمزة الممدودة للوزن، وقوله من مكة بالصرف للوزن أيضاً.

وقوله ليلاً: أي في بعض قليل من الليل. لقدس، فاللام بمعنى [إلى] كقوله تعالى: {كل يجري لأجل مسمى} (١) والقدس بسكون الدال للوزن هو الطهر والأرض المقدسة المطهرة المباركة.

ويجب على كل مكلف أن يعتقد أن الله تعالى أكرم نبيه محمداً ﷺ بالإسراء من مكة المكرمة ببعض الليل كما فهم من تكرير اللفظ في قوله تعالى ليلاً، من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى كما صرح به القرآن الكريم، والمعراج من المسجد الأقصى إلى السماوات فأراه من آياته الكبرى، وأفاض عليه من رحمته عند سدره المنتهى، وذلك في ليلة سبع وعشرين من رجب قبل الهجرة بسنة على المشهور (٢). قال تعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياته أنه هو السميع البصير} (٣) ولهذا يكفر من أنكر الإسراء.

وأما المعراج إنما وقع للنبي ﷺ من البيت المقدس بعد أن صلى إماماً بالأنبياء والمرسلين ثم أعرج به بصحبة جبريل عليه السلام إلى السماوات العلى حتى رأى النبي صلى الله عليه وسلم ولم رباً كلمه، وفي رؤية النبي ﷺ ليلة الإسراء أقوال ثلاثة، قيل بعيني رأسه بلا كيف ولا انحصار وهو الراجح، وهو قول ابن عباس وأنس والحسن وعكرمة ورجحه أكابر العلماء وذكر ذلك البغوي في تفسيره.

(١) سورة يس: الآية

(٢) اختلف في تعيين زمن الإسراء على أقوال شتى زادت على ستة أقوال وقد ناقشها الشيخ/ صفى الرحمن في كتابه الرحيق المختوم: ص ١٢٤، والعلامة الشيخ الدكتور/ محمد علوي المالكي في كتابه وهو بالأفق الأعلى وكتابه الأنوار البهية من إسراء ومعراج منير البرية، وقالوا: الراجح أن الإسراء وقع في ليلة الاثنين السابع والعشرين من شهر رجب قبل الهجرة بسنة على المشهور.

(٣) سورة الإسراء: الآية (١)

والثاني: بعيني قلبه وهو قول عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما، وفيه أنها ثابتة للنبي ﷺ دائماً ولمن شاء الله من الصالحين.

وقيل بالوقف مع إثبات الأصل وأسند لجماعة من المحققين وهو أسلم^(١).

وأختلف أهل العلم: هل كان الإسراء بجسده مع روحه أو بروحه فقط، فذهب معظم السلف والخلف إلى الأول، وذهب إلى الثاني طائفة من أهل العلم وهم: عائشة، ومعاوية، والحسن البصري وابن إسحاق، وحكاه ابن جرير عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهم.

قال ابن جرير في شرحه على البخاري: (إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسده وروحه، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل)^(٢).

وفي تلك الليلة فرض الله تعالى على النبي ﷺ خمس صلوات بعد اقتراض خمسين عليه وكان التخفيف بواسطة سيدنا موسى عليه السلام وذلك بعد مراجعته ﷺ إلى مقام المناجاة أكثر من مرة عن تخفيف صلاة بأمر موسى عليه السلام، ووجود سيدنا موسى عليه السلام في هذا المكان لأسباب كثيرة أولها ترقية حضرة النبي محمد ﷺ روحياً بعد مراجعته إلى مقام المناجاة أكثر من مرة، والثاني إظهار مقامه الشريف وهو يتشرف بمقابلة الحق أكثر من مرة دون أن يسأل ذلك مع أن سيدنا موسى عليه السلام طلب ذلك مرة واحدة ولم يحظى به^(٣).

(١) نيل المرام: ص ٢١، والأنوار البهية: ص ٢٥، وجلاء الافهام: ١٠٦.

(٢) جلاء الافهام: ص ١٠٧.

(٣) محاضرة لحضرة الشيخ/ مصطفى كمال الدين الهرشي رحمه الله في جامع أبي بكر الصديق في محافظة أربيل عام ١٣٩٧هـ.

وليس قصة الإسراء والمعراج من أجل رؤية الله ومناجاته، كما وهم ذلك بعض الناس، وإنما كانت لإظهار عجائب ملكوت الله وآياته الكبرى لحضرة النبي ﷺ حيث يكون ذلك ميزة له على مر العصور والدهور قال تعالى: {لنريه من آياتنا} (١). وقال سبحانه: {لقد رآى من آيات ربه الكبرى} (٢).

وأما المناجاة فلا تتقيد بمكان، فلا فرق عند الله تعالى بين هذه وتلك أينما كانت، فمناجاة سيدنا محمد ﷺ عند سدره المنتهى، وموسى عليه السلام في طور سيناء، ويونس عليه السلام في بطن الحوت، كل ذلك عنده تعالى على حد سواء.

وقصة الإسراء والمعراج داخلية في باب المعجزات، ولكل رسول معجزة وهي أمر تعبدى يجب الإيمان بها، لأنها فوق مستوى عقول البشر (٣). وقال الناظم رحمه الله:

وَبَلَغَ الْأُمَّةَ بِالْإِسْرَاءِ وَفَرَضَ خَمْسَةَ بَلَاءِ امْتِرَاءِ
قَدْ فَازَ صَدِيقٌ بِتَصَدِيقٍ لَهُ وَبِالْعُرُوجِ الصَّدْقُ وَوَفَى أَهْلُهُ

المفردات:

بلا امتراء: بلا شك

وافى: وافق

الشرح:

لأشك أن النبي ﷺ بلغ أمته بخبر الإسراء والمعراج وفرضية الصلوات الخمس، وذلك صبيحة ليلة الإسراء، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه،

(١) سورة الإسراء: آية (١)

(٢) سورة النجم: الآية (١٨)

(٣) فتح الباري:

وهكذا كان الإسراء اختبار لهم قال تعالى: {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس} ^(١).

وأول من صدق بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ولذا يلقب بالصديق، فقد فاز أبو بكر بتصديقه، وهكذا كان شأنه رضي الله عنه أن يُصدق مبادرة ومباشرة في كل ما جاء به حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يحصل منه وقفة في حال من الأحوال. وهو المراد بقول الناظم قد فاز صديق بتصديق له.

روى البيهقي بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: (لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى، أصبح يحدث الناس بذلك، وأردت ناس ممن آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس: فقال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: فتصدق أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم أني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقته في خبر السماء في غدوه أو روحه ^(٢). فلذلك سمي أبو بكر: الصديق.

قال الناظم رحمه الله:

وهذه عقيدة مختصرة وللعوام سهلة ميسرة
ناظم تلك أحمد المرزوقي من ينتمي للصديق المصدق

الشرح:

وهذه عقيدة مختصرة... إلخ: أي هذه الألفاظ من بداية المنظومة إلى نهايتها عقيدة إسلامية وجيزة سهلة ميسرة لقارئها من الناس، لا يشق عليهم

(١) سورة الإسراء: الآية (٦)

(٢) تفسير ابن كثير: ج ٣ ص ٢١

معانيها ولا يعسر حفظها، ولا يتعب نطقها، عقيدة أي معقود عليها القلب لمعرفة ما هو واجب على العبد لله تعالى وما هو مستحيل وجائز وكذا للأنبياء والرسل، والمختصر ما قل لفظه وكثر معناه، والعوام متعلق بقوله سهلة ميسرة، والواو داخله على سهلة والتقدير: وسهلة ميسرة للعوام. والعوام جمع عامة بتشديد الميم فيهما مثل دابة ودواب. والمراد بالعوام: المبتدئون في العلم، فالمعنى أن هذه المنظومة قليلة اللفظ فلا يسئم نطقها ولا يعسر حفظها عن ظهر قلب.

أما ما جاء في معناها فلخصه بالآتي حتى يكون خاتمة نختم بها شرح المنظومة والله الموفق: إن عقيدة الإسلام أن نعلم ونعتقد، ونؤمن ونوقف ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أله عظيم، ملك كبير، لا رب سواه، ولا معبود إلا إياه، قديم أزلي، دائم أبدي، لا ابتداء لأوليته، ولا انتهاء لآخريته أحد صمد، {لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد} لا شبيه له ولا نظير، {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}.

وأنه تعالى قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، وعلى كل شيء رقيب وشهيد، حي قيوم {لا تأخذه سنة ولا نوم}، {بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون}، {الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل}.

وأنه تعالى على كل شيء عليم، {قد أحاط بكل شيء علماً}، {وأحصى كل شيء عدداً}، {وما يضرب عن ربك من متقال ذرة في الأرض ولا في السماء}، {يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما يعملون بصير}، {يعلم السر وأخفى}، وأنه تعالى مديد للكائنات، مدبر للحوادث، وأنه لا يكون كائن من خير أو شر أو نفع أو ضر إلا بقضائه ومشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولو اجتمع الخلق كلهم على أن يحركوا في الوجود ذرة أو يسكنوها - دون إرادته تعالى لعجزوا عنه.

وأنه تعالى سميع بصير، متكلم بكلام قديم أزلي لا يشبهه كلام الخلق، وأن القرآن العظيم كلامه القديم، وكتابه المنزل على نبيه ورسوله محمد ﷺ.

وأنه سبحانه الخالق لكل شيء، والرازق له والمدير له، والمتصرف فيه كيف شاء، وليس له في ملكه منازع ولا مدافع، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ويغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء: {لا يسأل عما يفعل وهم يسألون}.

وأنه تعالى حكيم في فعله، عدل في قضائه، لا يتصور منه ظلم ولا جور، ولا يجب عليه لأحد حق، ولو أنه سبحانه أهلك جميع خلقه في طرفة عين لم يكن بذلك جائراً عليهم، ولا ظالماً لهم، فإنهم ملكه وعبيده، وله أن يفعل في ملكه ما يشاء، وما ربك بظلام للعبيد، يثبت عباده على الطاعات فضلاً وكرماً، ويعاقبهم على المعاصي حكمة وعدلاً.

وأن طاعته واجبة على عباده بإيجابه على السنة أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام. ونؤمن بكل كتاب أنزله الله تعالى، وبكل رسول أرسله الله، وبملائكة الله تعالى، وبالقدر خيره وشره، ونشهد أن محمداً عبد الله ورسوله ﷺ، أرسله إلى الجن والإنس والعرب والعجم بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وأن سيدنا محمد ﷺ بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وجاهد في الله تعالى حق جهاده، وأنه ﷺ صادق أمين، مؤيد بالبراهين الصادقة، والمعجزات الخارقة، وأن الله فرض على العباد تصديقه وطاعته وأتباعه. وأنه لا يقبل إيمان عبد وإن آمن به سبحانه - حتى يؤمن برسالة سيدنا محمد ﷺ، وبجميع ما جاء به، وأخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة والبرزخ. ومن ذلك أن تؤمن بسؤال منكر ونكير للموتى عن التوحيد والدين والنبوة.

وأن يؤمن بنعيم القبر لأهل الطاعة وبعذابه لأهل المعصية، وأن يؤمن بالعبث بعد الموت وبحشر الأجساد والأرواح إلى الله تعالى، وبالوقوف بين

يُدي الله سبحانه، وبالحساب، وأن العباد يتفاوتون فيه إلى مسامح ومناقش، وإلى من يدخل الجنة بغير حساب.

وأن نؤمن بالميزان الذي توزن فيه صحف الأعمال وما فيها من حسنات وسيئات، وبالصراف وهو جسر ممدود على متن جهنم، وبحوض نبينا محمد ﷺ الذي يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة، وماؤه من الجنة. وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء، ثم الصديقين والشهداء، والعلماء والصالحين والمؤمنين، وأن الشفاعة العظمى مخصوصة بمحمد ﷺ.

وأن يؤمن بإخراج من دخل النار من أهل التوحيد، حتى لا يخلد فيها من كان في قلبه ذرة من إيمان.

وأن أهل الكفر والشرك مخلدون في النار أبد الأبدين {لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون}.

وأن المؤمنين مخلدون في الجنة أبداً سرمداً: {لا يمسه فيها نصب وما هم منها بمخرجين}.

وأن المؤمنين يرون ربهم في الجنة بأبصارهم، على ما يليق بجلاله وقدر كماله من غير إحاطة ولا تكيف.

وأن يعتقد فضل أصحاب رسول الله ﷺ وترتيبهم، وأنهم عدول خيار أمناء، لا يجوز سبهم، ولا القدح في أحد منهم، وأن الخليفة الحق بعد رسول الله ﷺ أبوبكر الصديق ثم عمر الفاروق، ثم عثمان الشهيد، ثم علي المرتضى رضي الله عنهم وعن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين، وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين^(١).

وناظم هذه المنظومة الميسرة السيد أحمد المرزوقي^(٢) وهو لقبه نسبه إلى العارف بالله السيد مرزوق الكفافي، وأما كنيته أبو الفوز، واسم أبيه محمد

(١) هو الله: ص ١٣٠

(٢) سبق ذكر ترجمة الشيخ رحمه الله في الفصل الأول.

رمضان الحسني والحسيني كما في الشرح الكبير، قوله من ينتمي أي من ينتسب لرسول الله ﷺ الصادق الأمين كما كانت قریش تسميه قبل النبوة والرسالة، ومعنى المصدق الذي أخبر الناس بصدقه.

قال الناظم رحمه الله:

والحمد لله وصلى سَلَمًا على النبي خير من قَدْ عَلَمًا
والآل والصُّحْبِ وَكُلِّ مُرْشِدٍ وَكُلِّ مَنْ بخيرٍ هدي يَقتدي

المفردات:

مرشد: مصلح ومربي وهادي إلى الخير.

هدي: طريق.

الشرح:

ولما كان تمام التأليف من عظم نعم الله تعالى على المؤلف أعاد ما ذكره في البداية من الحمد لله تعالى والصلاة والسلام على رسول الله النبي الرحمة ﷺ، ووصف رسول الله النبي الكريم ﷺ بأنه خير من علم الأمة فهو ﷺ كذلك كما أنه بلغ الرسالة ونصح الأمة وكشف الغمة وجلي الظلمة وهداهم إلى الصراط المستقيم وتحمل في ذلك أعباء لم يتحملها من كان قبله من الرسل صلوات وسلامه عليه وعليهم أجمعين ولهذا كان سيد المرسلين وسيد أولي العزم أجمعين.

ثم توجه الناظم إلى الله تعالى بطلب الإخلاص في العمل فقال:

وَأَسْأَلُ الْكَرِيمَ خَلاصَ الْعَمَلِ وَنَفَعَ كُلِّ مَنْ بِهَا قَدْ اشْتَغَلَ

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، والكريم من يعطي النوال قبل السؤال، والإخلاص معناه تصفية الأعمال من شوائب

الرياء والسمعة، وهنا طلب الناظم أمرين أساسيين هما إخلاص العمل من الشوائب والرياء والثاني أن ينفع الباري كل من اشتغل بها من حفظ لفظها وتحصيل معانيها، وقد استجاب الله دعوته لأنه كان مجاب الدعوة، فقد عني بها عدد كبير من أهل العلم حفظاً ودراسة وشرحاً، والله نسأل أن ينفع كل من اشتغل بهذه العقيدة الإسلامية النفع العظيم، فإنه تعالى خير مسؤول وبالإجابة جدير.

وقال الناظم رحمه الله:

أبياتها مَيَزَ بَعْدَ الْجُمْلِ تَأْرِخُهَا لِي حَيٌّ غُرَّ جُمْلِ

الشرح:

أبيات هذه المنظومة سبعة وخمسون بعدد حروف (ميز)، وتأريخ انتهاء نظمها سنة ثمان وخمسون وألف ومائتين بعدد حروف: (لي حي غير) والأبيات جمع بيت وهو بيت النظم وهو ما أشتمل على أجزاء معلومة وتسمى أجزاء التفاعيل سمي بذلك الانضمام بعضه إلى بعض على نوع خاص، كما تضم أجزاء البيت في عمارته على نوع خاص.

وقوله تاريخها لي حي غير مبتدأ والمضير مضاف إليه والخبر لي حي غير محكي على ما هو عليه أي بعدد هذه الحروف. وقوله جمل بالتشديد، وقد تخفف تكلمة للبيت، والتأريخ بالهمز وبالواو والألف كما في القاموس أول من وضعه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وسبب وضعه أنه أتى بصك مكتوب إلى شعبان: فقال: أهو شعبان الماضي أو شعبان القابل، ثم أمر بوضع التأريخ، وجعل ابتداءه من هجرة المصطفى ﷺ وجعلوا أول السنة المحرم وعليه يصير أول التأريخ الليل كما في الشرح. وحساب الجُمْل هو: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ.

فعدد أبيات هذه المنظومة سبعة وخمسون بعدد حروف ميز من حساب
الجمال فالميم: بأربعين، والياء بعشرة، والزاي: بسبعة والمجموع سبعة
وخمسون.

وتاريخ نهاية كتابتها في سنة ثمان وخمسين وألف ومائتين بعدد حروف:
لي حي غر. فاللام: بثلاثين، والياء: بعشرة، والحاء: بثمانية، والياء: بعشرة،
والغين: بألف، والراء: بمائتين.

قال الناظم رحمه الله:

سَمَّيْتُهَا عَقِيدَةُ الْعَوَامِ مِنْ وَاجِبِ الدِّينِ بِالْإِتِّمَامِ

الشرح:

سمي: تنصب مفعولين الهاء مفعولها الأول، وعقيدة مفعولها الثاني،
وهي قد تتعدى إلى الثاني بنفسها كما تقول سميت النبي محمداً، وبحرف
الجرسمية بمحمد، والضمير في سميتها للعقيدة وذكر النظم العقيدة باسمها
لأنه من الأمور المطلوبة في كل فن أن يذكر المصنف سبعة أشياء: أربعة
على طريق الوجوب الصناعي وثلاثة على سبيل النذب الصناعي فالأربعة
البسمة والحمدلة والتشهد والصلاة على حضرة النبي ﷺ، والثلاثة تسمية
نفسه وكتابه والإتيان ببراعة الاستهلال وهي أن يأتي المؤلف في طاعة كتابه
بما يشعر بمقصوده ومرامه بلفظ فصيح وقوله: من واجب في الدين بالتمام،
بيان لعقيدة العوام وفي محل نصب على الحال والتقدير حالة كونها واجبة في
الدين بالتمام لأنها اشتملت على الواجبات لله والمستحيل والجائز كما اشتملت
على ما يجب للرسول وما يجوز لهم وما يستحيل عليهم.

وكما بينت ما يجب علينا للأنبياء والرسول من الإيمان إجمالاً وتفصيلاً،
وكما تعرضت لما يجب الإيمان به للملائكة والكتب واليوم الآخر والقضاء

والقدر إجمالاً وتفصيلاً، حتى ذكرت بقية الواجب على المكلف في حق النبي محمد ﷺ في نسبه وولادته ووفاته ورضاعته وذكر من مات عنهن من نسائه أمهات المؤمنين وإلى غير ذلك مما يتصل بحضرة النبي ﷺ من جهة أولاده ذكوراً وإناثاً، وحيث قد قربت لنا كل ما يجب علينا على وجه التحقيق، فنحمد الله تعالى على توفيقه لنا إتمام شرح هذه المنظومة الموسومة بعقيدة العوام، فنقول الحمد لله أولاً وأخيراً وظاهراً وباطناً حمداً يليق بجلاله وكرمه، وأصلي وأسلم على فخر الكائنات سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكانت بداية كتابة هذا الكتاب في غرة شهر رجب سنة ١٤٢٦هـ هجرة وانتهيت من كتابته في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ١٤٢٦هـ الموافق ٢٩/١٠/٢٠٠٥ ميلادية. والله الحمد من قبل ومن بعد..

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، د. إبراهيم علي شعوط، المكتب الإسلامي، ط ٦، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٢. إتمام النصيحة لمريد العقيدة الصحيحة، للدكتور الشيخ عيسى بن عبدالله بن مانع الحميري، دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دبي، إدارة الإفتاء والبحوث، ط ١.
٣. الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، للجويني (ت ٤٧٨هـ) تحقيق د. محمد يوسف، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٦٩ - ١٩٥٠م.
٤. الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، ط ٤، سنة ١٩٧٣م.
٥. اشتقاق أسماء الله الحسنى للزجاجي، تحقيق د. عبدالحسين المبارك، مطبعة النعمان، سنة ١٩٧٤م.
٦. أصول الدعوة، للدكتور الشيخ عبدالكريم زيدان، أهمل ذكر المطبعة والسنة.
٧. أصول الدين الإسلامي، تأليف د. رشدي محمد عليان و د. قحطان عبدالرحمن الدوري، ط ٤، مطبعة دار الحكمة، بغداد، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
٨. أصول الدين للبغدادي (٤٢٩هـ) بيروت - لبنان، ط ٣، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
٩. أصول العقيدة الإسلامية التي قررها الإمام الطحاوي، مكتب زيار، مطبعة وزارة الأوقاف.
١٠. أصول الفقه للشيخ أبي زهرة، دار الفكر العربي، أهمل ذكر المطبعة والسنة.
١١. الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة، للإمام البيهقي (ت ٤٥٨هـ) دار الكتب العلمية، بيروت.
١٢. الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة، للحافظ البيهقي (ت ٤٥٨هـ) دار الكتب العلمية، بيروت - ط ٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
١٣. الاقتصاد في الاعتقاد، لأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، تقديم د. عادل العوا، دار الأمانة - بيروت، ١٩٦٩م.

١٤. الله جل جلاله، للشيخ العلامة سعيد حوى، ط ٣، سنة ١٩٧٢م.
١٥. الله، للعقاد، دار اهلل، مصر.
١٦. الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين، أشرف على تحريره جون كلوفر مونس، ط ٣، مؤسسة الحلبي، مصر.
١٧. الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للباقلاني (ت ٤٠٣هـ)، عالم الكتب، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.
١٨. الأنوار البهية من إسرائ ومعراج خير البرية، للسيد العلامة محمد بن علوي المالكي (ت ٤٢٥هـ)، ط ٣، مكة المكرمة، ١٤٢٤هـ، ردمك، ط ٢، ١٤٠٦هـ.
١٩. إنها الزهراء فاطمة، الدكتور محمد عبده يماني، ط ١، المملكة العربية السعودية.
٢٠. بردة المديح، للعلامة البوصيري، المكتبة الثقافية، بيروت، ط ١، سنة ١٩٧٤م.
٢١. البرهان للزركشي في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، (ت ٧٩٤هـ) تحقيق د. مصطفى عبدالقادر عط، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٣٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٢٢. تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين، للشيخ علي الغراي، مطبعة محمد صبيح، مصر، ط ٢، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.
٢٣. التحسين والتقبيح العقليان، د. مراد عبدالله الجنابي، بحث منشور في مجلة جامعة إب، اليمن، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٢٤. النذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للعلامة القرطبي (ت ٦٧١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٢٥. التعريفات للإمام علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط ٣، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٢٦. تفسير الأسماء والصفات، مخطوط، مكتبة أوقاف دبي.
٢٧. تفسير ابن كثير، (ت ٧٧٤هـ)، دار المفيد - بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٢٨. تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) دار الفكر، بيروت - لبنان.
٢٩. تفسير الرازي، دار الكتب العلمية، طهران، ط ٢، وطبعة دار الفكر، بيروت - لبنان.
٣٠. تفسير السيد قطب (في ظلال القرآن)، ط ٥، بيروت، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م.
٣١. التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن، حنفي أحمد، دار المعارف بمصر.
٣٢. تفسير الكشف للزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ومعه حاشية السيد الشريف الجرجاني عليه، دار الفكر، أهمل ذكر الطبعة والسنة.
٣٣. تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، وقد اعتمدت على طبعة أخرى.
٣٤. تفسير الماوردي، للعلامة الماوردي (ت ٤٥٠هـ)، حققه خضر محمد خضر، مطابع مقهوي، الكويت، ط ١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
٣٥. تفسير مواهب الرحمن، للعلامة عبدالكريم المدرس (ت ١٤٢٦هـ)، دار الحرية للطباعة، بغداد، ط ٢، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٣٦. جلاء الأفهام بشرح عقيدة العوام، للأستاذ محمد إحياء علوم الدين، ط ٢، مطبعة السفير، الرياض، ١٤٢٥هـ.
٣٧. الحب الخالد، للعلامة الشيخ محمد الحجار، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤٢٦هـ.
٣٨. الحرية الجامعية، الدكتور العلامة عبدالله مصطفى الهرشي (ت ١٤٢١هـ)، مطابع التعليم العالي، العراق، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
٣٩. حقائق عن التصوف، للشيخ عبدالقادر عيسى، ط ١، ١٩٨٨م.
٤٠. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ ابن نعيم الاصفهاني (ت ٤٣٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
٤١. الحكم العطائية والمناجاة الإلهية، للسكندري (ت ٧٠٩هـ) صححها وعلق عليها حسن السماحي، ط ١، ١٤١٩هـ.

٤٢. دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، د. عرفان عبد الحميد، مطبعة الإرشاد، بغداد، ط ١، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
٤٣. رحمة للعالمين، محمد سليمان سلمان المنصور خوري، جنيف بكذبودي.
٤٤. الرحيق المختوم، للشيخ صفى الرحمن المبارك خوري، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.
٤٥. رسالة في التوحيد والفرق المعاصرة، لكمال الدين الطائي، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
٤٦. رسالة في علم العقائد للعلامة الشيخ رشيد الخطيب، مطبعة الجمهورية، الموصل، ١٣٨٥هـ.
٤٧. سنن أبو داود، للحافظ السجستاني (ت ٢٧٥هـ)، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٤٨. سنن ابن ماجه للحافظ القزويني، دار الجيل، بيروت - لبنان.
٤٩. سنن الترمذي للحافظ أبي عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر.
٥٠. سنن النسائي، للحافظ النسائي وهي بشرح السيوطي وحاشية السندي، دار القلم، بيروت.
٥١. سيرة ابن هشام (ت ٢١٨هـ)، دار الفكر، بيروت.
٥٢. شرح جوهرة التوحيد، (اتخاف المريد بجوهرة التوحيد) للشيخ عبدالسلام المالكي، مصر، ط ٢.
٥٣. شرح حاشية الباجوري على متن السنوسية، القاهرة، ١٩٦٤م.
٥٤. شرح الخريدة على الدردير، سيدي أحمد الدردير (ت ١٢٠١هـ) مطبعة الاستقامة، مصر.
٥٥. شرح سنن ابن ماجه للإمام السندي، دار الجيل، بيروت - لبنان.
٥٦. شرح صحيح مسلم، للإمام النووي (ت ٦٧٦هـ)، دار القلم، بيروت، لبنان، ط ١.
٥٧. شرح العقائد العضدية، للعلامة جلال الدين الدواني (ت ٩٠٨هـ) المطبعة العثمانية، استانبول، ١٣١٦هـ.

٥٨. شرح الطحاوية، للإمام علي بن أبي العز (ت ٧٩٣هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ.
٥٩. شرح الفقه الأكبر للملا علي القارئ (ت ١٠٠١هـ) مطبعة التقدم، مصر، ط ١، ١٣٢٣هـ.
٦٠. شرح الفقه الأكبر للماتريدي (ت ٣٣٣هـ) مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد، الدكن، ١٣٢١هـ.
٦١. شرح المقاصد للتفتازاني (ت ٧٩٣هـ)، تحقيق د. عبدالرحمن عميدة، عالم الكتب، بيروت.
٦٢. شرح المقاصد النووية، للعلامة الشيخ محمد الحجار.
٦٣. شرح النسفية، للدكتور عبدالملك عبدالرحمن السعدي، دار الأنبار، العراق، ط ١، ١٤٠٨هـ.
٦٤. شرح النسفية للتفتازاني بحاشية رمضان افندي، مطبعة الحاج حسين افندي، ١٣٠٤هـ.
٦٥. شرح المواقف للسيد الشريف الجرجاني، مطبعة السعادة، مصر، ط ١، ١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م.
٦٦. صحيح البخاري، وهو مع فتح الباري للحافظ العسقلاني، دار المعرفة، بيروت.
٦٧. صحيح مسلم، دار القلم، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م وغيرها.
٦٨. الصحوه القرية، للعلامة الشيخ محمد النجار نزيل المدينة المنورة.
٦٩. الطب محراب الإيمان، د. خالص كنجو، دمشق، ١٣٩١هـ.
٧٠. طبقات المعتزلة لأحمد بن يحيى المعتزلي الزيدي المشهور بابن المرتضى، تحقيق د. فريد فلرز، بيروت، ١٩٦١م.
٧١. عقائد السلف، د. علي سامي، مكتبة الآثار السلفية، ١٩٧١م.
٧٢. عقائد الإمامية الاثني عشرية، إبراهيم الزنجاني، ط ٢، ١٩٧٣م.
٧٣. العقيدة الإسلامية، لعبدالرحمن حبنكة.
٧٤. العلم يدعو للإيمان، كريسي موريسون، ترجمة محمود الصالح، ط ٤، ١٩٦٢م.

٧٥. العين للفراهيدي، تحقيق د. مهدي المخزومي، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢م.
٧٦. فتح الباري، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
٧٧. الفرق بين الفرق، للبغدادى (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق محمد محي الدين، مطبعة المدني، مصر.
٧٨. الفصل في الملل والأهواء والنحل، للإمام الظاهري (ت ٤٥٦هـ) المطبعة الأدبية، ط ١، ١٣٢٠هـ.
٧٩. القول الموفى في شرح الفقه الأكبر، للإمام أبي حنيفة، مطبعة الشعب، بغداد، ١٩٨٩م.
٨٠. لسان العرب، للإمام ابن منظور (ت ٧١١هـ) الدار المصرية للتأليف والترجمة.
٨١. اللؤلؤ والمرجان، محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، مكة المكرمة.
٨٢. اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، للإمام الأشعري (ت ٣٣٠هـ) مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٥م.
٨٣. لوامع الأنوار البهية، للعلامة السفاريني الحنبلي، دار الأصفهاني، جدة، ١٣٨٠هـ.
٨٤. كبرى اليقينيّات الكونية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٨٥. الكبيرة والآثار المترتبة عليها عند المتكلمين، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، د. ثائر الشمري، ١٤١٨هـ.
٨٦. كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، كلكتا، سنة ١٨٦٢م.
٨٧. الكوكب الأزهر شرح الفقه الأكبر، للإمام الشافعي، مكتبة الفكر العربي للنشر، بغداد، ١٩٨٦م.
٨٨. مجمع الأشبات، للدكتور عبدالله مصطفى، مطابع التعليم العالي، العراق، ط ١، ١٩٩٠م.
٨٩. مُسند الإمام أحمد بن حنبل (ت ٣٤١هـ) شرحه وصنع فهارسه أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر.
٩٠. المسيرة لكمال الدين محمد بن همام وهو بشرح المسامرة، مع حاشية الشيخ زين الدين قاسم الحنفي، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر.

٩١. المستدرك على الصحيحين، للحاكم، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
 ٩٢. معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي، للدكتور العلامة عبدالله مصطفى، ط١، عمان، الأردن، ١٤١٤هـ.
 ٩٣. معجم مقاييس اللغة.
 ٩٤. المعتقد المنتقد، للشيخ فضل الرسول، لاهيور، المكتبة الحامدية.
 ٩٥. مفتاح الجنة للسيد أحمد بن مشهور الحداد، ط١، جدة، ١٤٢٥هـ.
 ٩٦. المعرفة العقلية، بحث للدكتور مراد عبدالله الجنابي، منشور في مجلة جامعة تعز، ١٤٢٩هـ.
 ٩٧. منتهى السؤل، للشيخ عبدالله بن سعيد اللحجي، دار الحاوي، بيروت، ط١٤١٩هـ.
 ٩٨. المنهل اللطيف، السيد محمد بن علوي المالكي، ط٧، المدينة المنورة، ١٤٢١هـ.
 ٩٩. النجم الزاهر، للأستاذ نكتل كشمولة، الموصل، العراق، ط٢، ١٩٩٠م.
 ١٠٠. النظام الفريد تحقيق جوهرة التوحيد، للشيخ محمد محي الدين، وهو مطبوع بذييل شرح جوهرة التوحيد.
 ١٠١. نور الظلام شرح عقيدة العوام، للنواوي التني، أهمل الطبعة والسنة.
 ١٠٢. نهاية الإقدام في علم الكلام، للشيخ الشهرستاني، حرره وصححه الفردجيوم، بلا تاريخ.
 ١٠٣. الوسطية في العقائد، للدكتور الشيخ علي محمد الصلاي، ط١، ١٩٩٧م.
 ١٠٤. الوسطية في العقيدة الإسلامية، للشيخ الدكتور ثائر إبراهيم الشمري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ.
 ١٠٥. الوسيلة في شرح الفضيلة في علم أصول الدين، للعلامة عبدالكريم المدرس (بيساره) ت٤٢٦هـ، مطبعة الإرشاد، بغداد، ط١، ١٣٩٢هـ.
 ١٠٦. هو الله، للسيد العلامة عمر بن علوي المالكي (ت١٤٢٥هـ) خادم العلم في الحرمين الشريفين - مكة المكرمة.
 ١٠٧. اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، للعلامة الشعراي، ملتزم الطبع والنشر عبدالحميد أحمد الحنفي، شارع المشهد الحسيني، مصر.
- ومصادر أخرى ذكرتها في شرح الكتاب.

المحتويات

٥.....	الاستفتاح
٧.....	الإهداء
٩.....	المقدمة
١٣.....	منظومة عقيدة العوام
١٨.....	ترجمة
٢٤.....	سبب إنشاء هذه المنظومة
٢٧.....	فصل الأول: مبادئ علم التوحيد وأقسامه
٢٩.....	المبحث الأول: مبادئ علم التوحيد
٤٤.....	المبحث الثاني: الحكم وأقسامه
٥١.....	المبحث الثالث: الإيمان والإسلام والإحسان
٦٣.....	المبحث الرابع: زيادة الإيمان ونقصانه
٧٩.....	المبحث الخامس: تأثير عقيدة التوحيد في الحياة
٨٣.....	فصل الثاني: شرح منظومة عقيدة العوام
٨٥.....	المبحث الأول: الإلهيات
١٧٣.....	المبحث الثاني: النبوات
٢١٦.....	المبحث الثالث: الملائكة الكرام
٢٢٦.....	المبحث الرابع: الكتب والصحف السماوية
٢٣٩.....	المبحث الخامس: في طاعة الرسول الأكرم محمد ﷺ
٢٤١.....	المبحث السادس: اليوم الآخر (السمعيات)
٢٦٧.....	فصل الثالث: نبينا محمد ﷺ
٢٦٩.....	المبحث الأول: فضله ورسالته
٢٨١.....	المبحث الثاني: ولادته ووفاته
٢٨٦.....	المبحث الثالث: بعثته ونبوته
٢٩١.....	المبحث الرابع: أولاده ﷺ وأزواجه
٢٩٥.....	المبحث الخامس: أزواجه وأعمامه
٣٠٦.....	المبحث السادس: الإسراء والمعراج
٣١٩.....	المصادر والمراجع

المحتويات

٥	الاستفتاح
٧	الإهداء
٩	المقدمة
١٣	منظومة عقيدة العوام
١٨	ترجمة
٢٤	سبب إنشاء هذه المنظومة
٢٧	الفصل الأول: مبادئ علم التوحيد وأقسامه
٢٩	المبحث الأول: مبادئ علم التوحيد
٤٤	المبحث الثاني: الحكم وأقسامه
٥١	المبحث الثالث: الإيمان والإسلام والإحسان
٦٣	المبحث الرابع: زيادة الإيمان ونقصانه
٧٩	المبحث الخامس: تأثير عقيدة التوحيد في الحياة
٨٣	الفصل الثاني: شرح منظومة عقيدة العوام
٨٥	المبحث الأول: الإلهيات
١٧٣	المبحث الثاني: النبوات
٢١٦	المبحث الثالث: الملائكة الكرام
٢٣٦	المبحث الرابع: الكتب والصحف السماوية
٢٣٩	المبحث الخامس: في طاعة الرسول الأكرم محمد ﷺ
٢٤١	المبحث السادس: اليوم الآخر (السمعيات)
٢٦٧	الفصل الثالث: نبينا محمد ﷺ
٢٦٩	المبحث الأول: فضله ورسالته
٢٨١	المبحث الثاني: ولادته ووفاته
٢٨٦	المبحث الثالث: بعثته ونبوته
٢٩١	المبحث الرابع: أولاده ﷺ وأزواجه
٢٩٥	المبحث الخامس: أزواجه وأعمامه
٣٠٦	المبحث السادس: الإسراء والمعراج
٣١٩	المصادر والمراجع